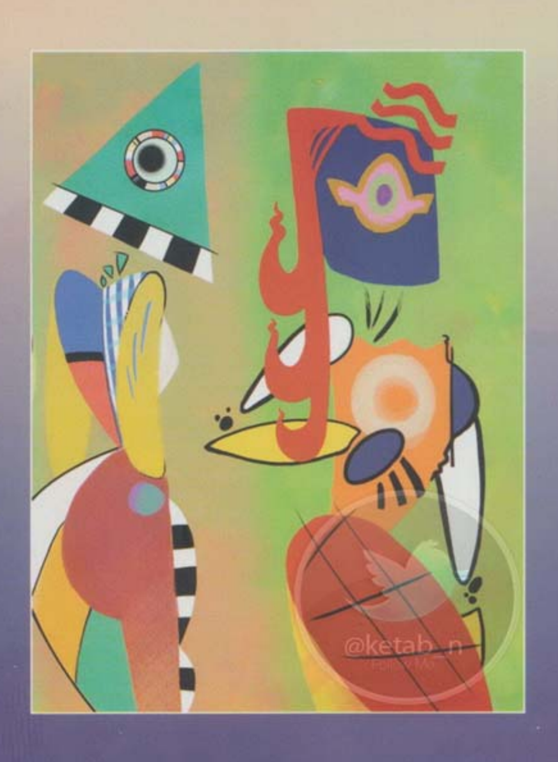
روايات عالمية

إدواردو غاليانو

الوجوه والأقنعة







ترجمة : أسامة إسبر

إدواردو غاليانو

الوجوه والأقنعة

ترجمة: أسامة إسبر

دار الحوار

الوجوه والأقنعة

ذاكرة النار

الكتاب: الوجوه والأقنعة
ذاكرة النار
تأليف: إدواردو غاليانو
ترجمة: أسامة إسبر
الطبعة الأولى: 2015/1
الإخراج الضوئي: بتول سامر ديبه

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للكتاب الإنكليزي:

FACES AND MASKS

Memory Of Fire

By: Eduardo Galeano

ISBN: 978 - 9933 - 523 - 31 -2

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار



دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
سورية- اللاذقية - ص. ب 1018
هاتف وفاكس: 33 422 41 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من ثلاثية ذاكرة النار. ليس هذا الكتاب مختارات أدبية بل عمل أدبي إبداعي. يسرد الكاتب تاريخ أميركا، وقبل كل شيء، تاريخ أميركا اللاتينية، كاشفاً أبعاده المتعددة ومخترقاً أسراره. في الجزء الثالث سيصل هذا الموزاييك الشاسع إلى أزمنتنا، أما هذا الجزء وهو الثاني والمُسمى بـ «الوجوه والأقنعة» فإنه يشمل القرنين الثامن والتاسع عشر.

على رأس كل نص، أشير إلى عام ومكان حصول الحادثة. وتشير الأرقام التي بين قوسين في الأسفل إلى الأعمال الرئيسة التي رجع إليها المؤلف بحثاً عن المعلومات والمراجع، أما المصادر الوثائقية فقد وُضعت قائمة بها في نهاية الكتاب.



" لا أعرف من أنا

ولا أين ولدت

أجهل من أين أنا

أو إلى أيّ جحيم أتجه

أنا قطعة من شجرة ساقطة

أجهل أين سقطتْ

أين جذوري؟

على أي نوع من الأشجار نَمَوْت؟"

أشعار شعبية من بوياكا، كولومبيا



وعد أميركا

سيحطِّم النمر الأزرق العالم

وستولد أرضٌ أخرى دون شرّ أو موت من حطامه. هذه الأرض تريد ذلك، تطلب الموت، تطلب الولادة، إنها الأرض القديمة التي أسيء إليها، المُنْهكة والعمياء من البكاء الكثير خلف الجفون المطبقة. على حافة الموت تتخطى الأيام، كومة الزمن القمامية، وفي الليل تستلهم الشفقة من النجوم. حالاً سيسمع الأب الأول تضرّعات العالم، الأرض التي تودّ أن تكون أرضاً أخرى، عندئذ سيقفز النمر الأزرق الذي ينام تحت أرجوحته الشبكية.

منتظرين تلك اللحظة، سافر الهنود الجوارانيون عبر الأرض الملعونة.

«أهناك شيءٌ تقوله لنا أيها الطائر الطنان؟»

رقصوا من دون توقّف، أكثر خفة ورشاقة، مترنّمين بأغانٍ مقدّسةٍ احتفلتْ بالولادة القادمة للأرض الأخرى.

«وهِّج أشعتك، وهِّج أشعتك أيها الطائر الطنان!»

بحثوا عن الفردوس من سواحل البحرِ إلى وسط أميركا. وصلوا إلى حواف الغابات والجِبال والأنهار بحثاً عن الأرض الجديدة التي سيجعلونها خاليةً من الشيخوخة أو المرض أو أي شيء يُوقف مهرجان الحياة الأبدي.

أعلنت الأغاني أن الذرة ستنمو بنفسها، أن السهام ستنطلق عبر الأدغال من تلقاء ذاتها ولن يكون العقاب أو الصفح ضروريين ذلك لأنه لن يكون هناك مَنْع أو لوم.

1701: وادي ساليناس

جِلْدُ الإله

أبحرَ هنود الشيريكوا، المنحدرون من الشعب الجواراني عَبْـرَ نهـر بيلكومايو منذ أعوام أو قرون ووصلوا إلى حدود إمبراطورية الآنكا. بقوا هناك في سفوح تلك المرتفعات الآندية الأولى بانتظار الأرض التي تخلو من الشر والموت.

اكتشف هنود الشيريكوا الورق والكلمـة المكتوبـة والكلمـة المطبوعـة حين وصل رهبان شوكيساكا الفرانسيسكان بعد رحلة طويلـة حـاملين الكتب المقدسة في سروج حميرهم.

وبما أنهم لم يعرفوا الـورق أو لأنهـم لم يحتـاجوا إليـه، لم يمتلـك الهنود اسماً له. أمـا اليـوم فيسـمونه جِلـد الإلـه لأن الـورق يُسـتَخدم لإرسال الرسائل إلى أصدقاء بعيدين جدا.

1701: ساو سلفادور دي باهيا

صوت أميركا

مات الأب أنطونيو فييرا عنـد منعطـف القـرن لكـنَّ صـوته بقـي حياً واستمر يحمي المستضعفين. وما يزال صدى كلمات هـذا المبشـر التي وجّهها إلى الفقراء والمضطهدين يدوّي برنينه الحيّ نفسـه عـبر أراضي البرازيل.

في إحدى الليالي، تحدث الأب فييرا عـن الأنبيـاء القـدامى قـائلاً إنـهم لم يخطئوا في قراءة الأقدار في أحشاء الحيوانات التي ضحوا بها.

قال: في الأحشاء، في الأحشاء وليس في الرأس لأن نبياً يقدر أن يحب أفضل من واحد يستطيع أن يفكر.

1701: باريس

إغواء أميركا

حكَّ جغرافيٌّ مثقف رأسه في مكتبه في باريس. رسم غيوم دوسليل خرائط دقيقة للأرض والسماء. هل يجب أن يضع الدورادو على خريطة أميركا؟ أيجب أن يعلّم البحيرة الغامضة، كما جرتْ العادة، في مكان ما في أعلى نهر أرينوكو؟ سأل دوسليل نفسه إذا كانت المياه الذهبية التي وصفها والتر رالي بأنها بحجم بحر قزوين، موجودة فعلا، والأمراء الذين يغوصون ويسبحونَ في ضوءِ المشاعل كأسماك ذهبية متموجة: هل هم أم هل كانوا لحما وعظما؟

إن البحيرة التي دعيت تارة الدورادو وطوراً باريما تظهر على جميع الخرائط التي رُسِمت حتى الآن، لكن ما قرأه دوسليل وما سمعه أثار فيه الشك. اخترق جنود مغامرون كثيرون العالم الجديد البعيد بحثاً عن الدورادو، هناك حيث تلتقي الرياحِ الأربع وتمتزج جميع الآلام والألوان، من دون أن يجدوا شيئاً. نبش الإسبان والبرتغاليون والفرنسيون والألمان المهاوي التي حفرتها آلهة أميركا بأظافرها وأسنانها، انتهكوا الغابات التي أدفأها دخان التبغ الذي نفخته الآلهة، أبحروا في أنهار ولدت من أشجار عملاقة انتزعتها الآلهة من جِذورها، عذّبوا وقتلوا الهنود الذين خلقتهم الآلهة من اللعاب والنَفس أو الحلم. لكن الذهب الهارب كان يختفي ويتلاشى في الجو. وكانت البحيرة تختفي قبل أن يستطيع أحد الوصول إليها، وبدت الدورادو على أنها اسم قبر دون كفن أو ضريح.

في القرنين اللذين مرّا منذ أن كبر العالم وأصبح دائرياً، استمر مطاردو الهلوسات في التوجه إلى أراضي أميركا من جميع المرافئ.

عبروا المحيط الضخم تحت حماية إله الإبحار والفتح مضغوطين في سفنهم. ومع الرعاة وفلاحي المزارع الذين لم تقتلهم أوروبا بالحرب أو الطاعون أو الجوع ذهب قباطنة وتجار وأنذال ومتصوفون ومغامرون. كانوا جميعهم ينشدون المعجزة، فوراء المحيط، المحيط السحري الذي يطهّر الدم ويغيِّر الأقدار انفتح الوعد العظيم لجميع العصور.

هناكِ سينتقم الشحاذون والذين ليسوا أحداً سيصبحون مركيزات، وسيتحول الأخسّاء إلى قديسين، ومغذّو الصليب والمشنقة إلى مؤسسين وستصبح بائعات الهوى سيدات المجتمع.

حارس أميركا

في قديم الزمان عاش الهنود في سلسلة الجبال الآندية في ليل أبدي. وكان الكندور، أقدم الحيوانات الطائرة، هو الذي أحضر لهم الشمس. أسقطها كرة ذهبية صغيرة، بين الجبال. التقطها الهنود ونفخوا قدر استطاعتهم حتى رفعوها إلى الأعلى حيث بقيت معلقة إلى الأبد. ومن الأشعة الذهبية التي تعرّقتها الشمس صاغ الهنود الحيوانات والنباتات التي تسكن الأرض.

طلع القمر في إحدى الليالي محاطاً بثلاث هالات ليشع فوق القمم؛ أعلنت هالة الدم الحرب، أعلنت هالة اللهب النار وكانت الهالة السوداء هالة الكارثة. عندئذ هرب الهنود إلى البرية الباردة المرتفعة حاملين الذهب المقدّس وغاصوا في أعماق البحيرات والبراكين.

والكندور، جالب الشمس إلى الآنديين، هو حارس الكنز، يحلّق فوق القمم الثلجية والمياه والفوهات المدخنة بجناحين عملاقين. يحذّره الذهب حين يقترب الجشع. يصرخ الذهب ويصفر ويصيح، فينحدر الكندور ويقتلع منقاره أعين اللصوص وتمزّق مخالبه لحمهم.

تستطيع الشمس فقط أن تشاهد ظهر الكندور، رأسه الأصلع وعنقه المجعّدة، ووحدها تعرف وَحْدَتَه. وحين يُرى الكندور من الأرض يبدو منيعاً.

1701: أورو بريتو

خدعة الاستدعاء

ليس جبل بوتوسي الفضي وَهْماً، ولا تحتوي أنفاق المكسيك العميقة على الهذيان والظلمة فحسب، ولا تنام أيضاً أنهار البرازيل الوسطى على أسرة من ذهب الحمقى.

يحصّص ذهب البرازيل اليانصيب أو القبضات، الحظ أو الموت. الذين لا يموتون يجمعون ثروات طائلة يأخذ خمسها ملك البرتغال. ومع ذلك حين يُنجز ويُقال كل شيء، يكون ذلك الخمس الملكي محض خرافة. تهرب أكوام وأكوام من الذهب ولا يستطيع ضبط تدفقه حراس بعدد أشجار غابات الإقليم الكثيفة.

يكرّس رهبان المناجم البرازيلية وقتاً لتسويق الذهب أطول من الوقت المخصص لإنقاذ الأرواح، ويضعون الذهب في قديسين خشبيين مجوّفين. وبالنسبة للراهب روبيرتو الذي يعيش قرب الساحل، فإن تزوير الأختام بسيط كتلاوة الصلوات وهكذا تنجو سبائك الذهب المخالفة للقانون من الختم الملكي. روبِرتو، الراهب البيندكتي لأبرشية سوروكابا صنّع أيضاً مفتاحاً قوياً جدا يقهر أي قفل.

1703: لشبونة

الذهب عابراً في الترانزيت

منذ بضع سنوات تجلّت لحاكم البرازيل العام بعض النبوءات التي كانت دقيقة بقدر ماهي بِدون فائدة. حذّر جاو دي لينكاستر، من باهيا، ملك البرتغال قائلا إن مجموعات من المغامرين ستحوّل إقليم

المناجم إلى ملاذ للمجرمين والمتصعلكين، والأكثر خطورة من ذلك هو أن الذهب يمكن أن يسبب للبرتغال ما سببه لإسبانيا التي حالما كانت تتلقى الفضة من أميركا، كانت تقبّلها قبلة الوداع الدامعة. يمكن أن يدخل الذهب البرازيلي من خليج لشبونة من دون أن يتوقف أبداً على التربة البرتغالية ويتابع رحلته عبر نهرتاجوس في طريقه إلى إنكلترا وفرنسا وألمانيا...

وُقّعت معاهدة ميثوين التي ستدفع البرتغال بمقتضاها ذهباً برازيلياً مقابل القماش الإنكليزي وكأن الأمر رجع صدى لصوت الحاكم. وبذهب البرازيل، التي هي مستعمرة دولة أخرى، ستدفع إنكلترة تطورها الصناعي دفعة هائلة إلى الأمام.

1709: جزر خوان فرنانديز

روبنسون كروزو

أبلغت المراقبة عن قصف مدفعي بعيد. للتأكد من ذلك غيَّرَ عيون الدوق مسارهم واتجهوا إلى ساحل تشيلي.

اقتربت السفينة من جزر خوان فرنانديز. من بين خيط من النيران جاء نحوها قارب كرشاش من الزبد. صعدت إلى ظهر السفينة كتلة من الوسخ والشعر ترتجف من الحمى وتطلق الصخب من فمها.

بعد أيام روى القبطان روجرز القصة: إن الرجل الناجي من الغرق هو أليكسندر سيلكيرك، زميل إسكتلندي متمرّس في الأشرعة والرياح والنهب. وصل إلى قبالة ساحل فلباريزو مع حملة القرصان ويليم دامبيير[1]، وبفضل إنجيل ومدية وبندقية عاش سيلكيرك أكثر من أربعة أعوام على إحدى هذه الجزر المهجورة. تعلم فن الصيد بأحشاء الماعز، استخدم في الطبخ الملح

[1] قرصان ومستكشف إنكليزي استكشف سواحل إستراليا وغينيا الجديدة.

الصخري وأضاء عالمه بزيت الفقمة. بنى كوخاً على أرض مرتفعة وشيّد إلى جانبه حظيرة ماعز. علم مرور الزمن على جذع شجرة وأحضرت له عاصفة بقايا سفينة غارقة وهنديا كان على وشك الغرق. سمّى الهندي فرايدي لأنه وصل يوم الجمعة. تعلم منه أسرار النباتات. حين وصلت السفينة الكبيرة اختار فرايدي البقاء. أقسم له سيلكيرك أنه سيعود وصدّق فرايدي ذلك.

في غضون عشرة أعوام سينشر دانييل ديفو في لندن روايته عن مغامرات بحار تحطمت سفينته. سيكون سيلكيرك هو روبنسون كروزو، ابن يورك، وستصبح حملة القرصان البريطاني دامبيير، الذي نهب شواطئ البيرو وتشيلي، مشروعاً تجاريا محترماً، أما الجزيرة الصحراوية التي لا تاريخ لها فستقفز من المحيط الهادي إلى مصب نهر أرينوكو وسيعيش البحار الناجي هناك ثمانية وعشرين عاماً. سينقذ روبنسون حياة آكل لحم بشر متوحش وستكون الكلمة الإنكليزية الأولى التي يعلمها له هي «سيدي».

علّم سيلكيرك بحد مدية أذني كل عنزة اصطادها وسيقع على عاتق روبنسون تقسيم الجزيرة، مملكته، إلى حصص للبيع، وسيسعّر كل ما حصل عليه من السفينة المحطمة، وسيحفظ حسابات كل ما ينتجه على الجزيرة ويوازن كل موقف. سيتحمّل روبنسون، مثل سيلكيرك الاختبارات القاسية للعزلة والخوف والجنون، لكن أليكسندر سيلكيرك سيكون في ساعة الإنقاذ بائساً ومرتجفاً غير قادر على النطق وخائفاً من كل شيء، أما روبنسون كروزو، مروّض الطبيعة الذي لا يُقهر، سيعود إلى إنكلترة مع خادمه المطيع فرايدي ليجمع الأموال ويُخطط للمغامرات.

1711: برامريبو

المرأتان الصامتتان

قطع الهولنديون وتر أخيل عبدٌ حاول الهرب للمرة الأولى، وقُطِعَت رجْل العبد الذي قام بمحاولة ثانية، ورغم ذلك ما من طريقة لإيقاف انتشار طاعون الحرية في سورينام.

أبحر الكابتن موليني عبر النهر إلى برامريبو وعادت حملته برأسين مقطوعين. كان عليه أن يقطع رأسي المرأتين الأسيرتين وكانت إحداهن تدعى فلورا والأخرى سيري، وفعل ذلك لأن التعذيب لم يمكنهما من السير خلال الغابة. كانت أعينهما ما تزال مثبتة نحو السماء ولم تفتحا فميها رغم لسعات السياط والنار والملاقط المحمرة من الحرارة. كانتا صامتتين بعناد وكأنهما لم تتفوها بكلمة منذ ذلك اليوم البعيد حين سُمِّنتا ودُهِنتا بالزيت ونُقِشت نجوم وأهلّة على رأسيهما الحليقين لتجهزا للبيع في سوق برامريبو. كانت فلورا وسيري صامتتين دائما حين سألهما الجنود أين يختبئ العبيد الآبقون. حدقتا إلى الأعلى دون أن يرف جفناهما ناظرتين إلى غيوم كبيرة كالجبال تتنقل عاليا في السماء.

يحملن الحياة في شَعرهن

رغم جميع السود الذين يصلبون أو يشنقون على علاّقات حديدية تُربط حول أضلاعهم، لا يتوقف الهرب من مستعمرات سورينام الساحلية الأربعمائة. عميقاً في الغابة، يزيّن أسد أسود راية الهاربين الصفراء. وبسبب عدم توفر الرصاص تطلق بنادقهم الحصى أو الأزرار العظمية لكن الأدغال التي لا تُخترق هي حليفهم الأفضل ضد المستعمرين الهولنديين.

كانت النساء العبدات تسرق قبل الهرب حبوب الأرز والذرة والحنطة والفاصولياء والقرع. وكانت تسريحات شعرهن الضخمة تُستَخدم كمخابىء وحين يصلن إلى اللاجئين في الغابة يهززن رؤوسهن ويزرعن بهذه الطريقة الأرض الحرة.

العبد الآبق

التمساح، الذي يتقنّع بجذع، يتشمّس. يدير الحلزون عينيه على حافة قرنين صغيرين. يثير الطائر الذكر أنثاه بحركات بهلوانية. يتسلق العنكبوت الذكر بيت أنثاه المرعب، الذي هو غطاء سرير وكفن، حيث سيعانق ويُفتَرَس. تتقافز مجموعة من القردة، لتقطف الثمار عن الأغصان. تسبب صرخات القردة الدوار للأدغال وتغرق أصوات الزيزان وتساؤلات الطيور. لكن تُسمع أصوات خطوات غريبة على سجاد الأوراق فتنام الغابة بسرعة مشلولة، تنسحب إلى نفسها وتنتظر. حين تدوي الطلقة الأولى تهرب الغابة كلها.

أعلنت الطلقة اصطياد العبيد الهاربين: سيمارون[1] تعني في جزر الآنتيل: «السهم الذي ينشد الحرية». استخدم الإسبان الكلمة ليطلقوها على الجاسوس الذي يهرب إلى الغابات فدخلت في لغات أخرى لتصبح شيمارو، مارون، ماروّن وتشير إلى العبد الذي ينشد في كل جزء من أميركا حماية الغابات والمستنقعات والأودية العميقة، والذي، بعيدا عن السيد، يبني فسحة حرة ويدافع عنها واضعاً آثارا وهمية وناصبا فخاخا قاتلة.

إن العبد الآبق هو غرغرينا المجتمع الاستعماري.

1711: مُرّي

الملك الأسود، القديس الأبيض وزوجته المقدسة

منذ أكثر من قرن، هرب الزنجي دومنغو بيوهو من المشنقة في قرطاجنة الآنديز، وأصبح الملك المحارب للأراضي المستنقعية.

---

[1] العبد الهارب.

خرجت مجموعات من الكلاب والبنادق لاصطياد وشنق دومنغو مرات عديدة. وفي أيام متنوعة من الحماس العام جُرّ دومنغو في شوارع قرطاجنة مربوطاً إلى ذيل بَغلْ وقطع عضوه التناسلي وثُبّتٍ على رمح طويل. كوفئ آسروه بمنح متلاحقة من الأراضي ومنحوا مرارا ألقاب مركيزات، ولكن داخل أسَيجة العبيد الآبقين في قناة ديك أو كوكا السفلى، يسود دومنغو بيوهو بوجهه المصبوغ الضاحك الذي لا يخطئ.

يعيش العبيد الأحرار في يقظة مستمرة وهم مدربون منذ الولادة على القتال، تحميهم الأودية والجروف والحفر العميقة المحاطةٍ بالأشواك السامة. إن أكثر الملاذات أهمية في الإقليم الذي يقاوم قروناً أطلق عليه اسم القديس باسيل الذي يُتَوقع وصول تمثاله حالاً عبر نهر مجدلينا.

كان القديس باسيل أول رجل أبيض سمح له بالدخول إلى هنا، وصل مع بُرطل وأدوات العمل وأحضر كنيسة خشبية صغيرة مليئة بالمعجزات.

لم يشعر بالعار من العري ولم يتحدث بصوت سيِّد. منحه الآبقون منزلاً وزوجة وأحضروا له أنثى مقدسة تُدعى كاتالينا كي لا يزفه الله في العالم الآخر إلى إناث، كي يستمتعوا بهذا العالم معاً بينما هم فيه.

السرعوف (فرس النبي)

ثمةٍ حياة حيوانية غنية حيث يحكم دومينغو بيوهو إلى الأبد ويوماً واحداً داخل أسيجته. ما يثير الخوف أكثر هو النمر والحية الكاسرة وتلك التي تلف نفسها حول الأغصان وتزحف إلى الأكواخ. والأكثر سحراً هي سمكة المايوبا التي تتبرّز من رأسها والسرعوف.

تلتهم أنثى السرعوف ذكورها كالعنكبوت. حين يعانقها الذكر من الخلف تدير وجهها الذي بلا ذقن إليه، تقيسه بعينيها الكبيرتين الناتئتين، تثبّت كلابتيها عليه وتلتهمه بهدوء مطلق حتى لا يبقى منه أي شيء.

إنها أنثى مؤمنة ورعة، دائماً تبقي ذراعيها مطويتين أثناء الصلاة وتصلي بينما هي تأكل.

1712: سانتا ماريا

من القرصنة إلى التهريب

يرتفع من السفوح الخضراء لجبال سييرا نيفادا، التي تبلل أقدامها في البحر، برج جرس محاط بمنازل من الخشب والقش، تعيش فيها ثلاثون عائلة بيضاء في ميناء سانتا مارتا. وحول هذا المكان، يعيش الهنود والسود وخلائط لم يضايق أحد نفسه بإحصائها في أكواخ من الخيزران والطين محتمين بسعف النخيل.

كان القراصنة دائماً كابوس تلك السواحل منذ خمسة عشر عاماً، ومنذ أسبوع اخترقت السفن الإنكليزية نيران مدفعية الحصون التي تحرس الخليج وقابلت بهدوء الفجر على الشاطئ. هرب الجميع إلى التلال.

انتظر القراصنة. لم يسرقوا منديلاً ولم يحرقوا منزلاً واحداً.

اقترب السكان واحداً واحداً من دون ثقة، وأصبحت سانتا مارتا سوقاً ظريفة. إن القراصنة المدجّجين بالأسلحة جاؤوا ليشتروا ويبيعوا ولقد ساوموا ودفعوا بتشدد.

وبعيداً كانت تنمو المشاغل الإنكليزية وتحتاج إلى الأسواق. أصبح كثير من القراصنة مهربين رغم أنه لا أحد منهم يعرف ماذا يعني تراكم رأس المال.

1714: أورو بريتو

طبيب المنجم

لا يؤمن هذا الطبيب بالعقاقير وبمساحيق البودرة البرتغالية المكلفة، لا يثق بالفصد وبالتعقيم واستخدامه قليل للبطريرك غالن ولوصاياه القانونية.

ينصح لويس غومز فيرّيرا مرضاه أن يستحموا يومياً، وهذا سيبدو في أوروبا علامة واضحة على الهرطقة والجنون. وصفٍ الطبيب فيريرا أعشاب وجذور الإقليم. أنقذ الطبيب فيريرا كثيرا من الحيوانات بفضل الفطرة السليمة للهنود وحكمتهم العريقة، ومساعدة براندي قصب السكر الذي يحيي الموتى.

على أية حال، لا يستطيع أن يفعل سوى القليل حيال عادة عمال المناجم الذين ينتزعون أحشاء بعضهم برصاصة أو بمدية. هنا تهرب أية ثروة، والدهاء أكثر قيمة من الشجاعة في حرب الفتح الضارِية ضد الطين الأسود الذي تختبئ فيه الشموس. ما من علم يمتلك دورا يلعبه. ذهب القبطانٍ توماس دي سوزا، خادم الملك، ليبحث عن الذهب فوجد رصاصا. لم يستطع الطبيب أن يفعل له شيئاً سوى أن يرسم إشارة الصليب. اعتقد الجميع أن القبطان يمتلك طناً من الذهب أخفاه في مكان بعيد، لكن الدائنين لم يجدوا ما يقسموه بينهم سوى بضعة عبيد.

نادراً ما يذهب الطبيب إلى مريض أسود ذلك أن العبيد في المناجم البرازيلية يُستخدمون ويُرمون. عبثاً ينصح فيريرا بمعالجة أكثر حرصاً قائلا للرؤساء: إنهم يذنبون ضد الله ومصالحهم. لا يستمر أي عبد عشر سنوات في الأمكنة التي ينقب فيها عن الذهب وفي الأروقة التي تحت الأرض، لكن حفنة من الذهب تشتري طفلا جديدا بسعر حفنة من الملح أو خنزير كامل.

1714: فيلانوفا دي برينسيبي

جاسينتا

قُدّست الأرض التي سارت عليها. إن جاسينتا دي سكويرا، المرأة البرازيلية الإفريقية، هي مؤسسة بلدة برينسيبي هذه ومناجم الذهب في أودية كواترو فينتس. جاسينتا، السوداء والنضرة، تنفتح وتنغلق كنبتة آكلة اللحم، تبتلع الرجال وتنجب أطفالاً من جميع الألوان في هذا العالم الذي ما يزال بلا خريطة.

تتقدّم جاسينتا وتفتح الأدغال على رأس الأوغاد الذين جاؤوا على ظهور البغال عراة ومسلحين ببنادق قديمة، والذين، حين يدخلون المناجم، يتركون ضمائرهم معلقة على غصن أو مدفونة في مستنقع. جاسينتا، المولودة في أنغولا، العبدة في باهيا، هي أم ذهب ميناس غيريس.

1716: بوتوسي

هولغوين

دخل نائب ملك ليما دون روبيكو مورسيلو دِي آنون إلى بوتوسي تحت مائة وعشرين قوس نصر من الفضة المشغولة، وعبر نفقاً من القماش المطرز بصور إيكار وإيروس وميركوري وإنديميون وعملاق رودس وإينياس الهارب من طروادة.

إن بوتوسي، بوتوسي الفقيرة، ليست كما كانت سابقاً. بعدد سكانها الذي انخفض إلى النصف، استقبلت المدينة نائب الملك في شارع ليس من الفضة بل من الخشب. لكن كما في أيام الروعة والمجد صخبت الأبواق والطبول وأضاء خدم يرتدون ثياباً أنيقة بمشاعل شمعية عرض الضباط الذين على ظهور الأحصنة والمحافظين والقضاة، رجال السلطة والسفراء.

حين خيّم الليل بدأت الحفلة التنكرية المتألقة: قدّمت المدينة للزائر المغطى بالغبار ولاء أبطال إسبانيا الاثني عشر. حيّاه «سيد» الشجاع والإمبراطور تشارلز في أزياء زاهية، بالإضافة إلى ما وجد في العالم أو في الأحلام من الحوريات والأمراء العرب والملوك الإثيوبيين.

رَصَد ميلكور بيريز هولغوين يوم الأعاجيب ذاك. رسم واحداً واحداً الأشخاص الألف وبوتوسي وأكثر الجبال كرماً في العالم بالتراب والدم وبألوان دخانية ملمعة بالفضة، ثم رسم صورته في سفح القماش الواسع: هولغوين، المولد ذو الأنف النسري، الذي يناهز الخمسين من العمر وذو الشعر الأسود الطويل المتدفق من تحت قبّعته المنحرفة، يرفع باليته بيد واحدة. رسم عجوزين يتكئان على قصبة وكتب كلمات خرجت من فميهما:

عجائب كثيرة مرة واحدة، من سبق له أن رأى ذلك؟

لم يُشاهد شيء بهذه العظمة منذ مائة وبضع سنين!

ربما لم يعرف هولغوين أن العجائب هي الشيء الذي كان يُبدعه وهو يعتقد أنه ينسخ فقط، ولم يعرف أن عمله سيبقى حياً حين تُزال كل أبهة بوتوسي عن وجه الأرض ولا يبقى أحد يتذكر أي نائب ملك.

1716: كوزكو

صانعو الصور

مات مستشار هولغوين دييغو كويسبي تيتو بعد وقت قصير من عماه: في ضباب العمى الأولي نجح في رسم شبيهه وهو في طريقه إلى الفردوس مرتدياً على جبهته الشرّابة الإمبراطورية الأنكية. كان كويسبي الأكثر موهبة بين الرسامين الهنود في كوزكو. في أعماله تحلق الببغاوات بين الملائكة وتحط على القديس سيباستيان المثقب بالسهام. تظهر وجوه وطيور وفاكهة أميركية مهربة إلى المشاهد الطبيعية الأوروبية أو إلى مشاهد الفردوس.

حين كان الإسبان يحرقون المزامير والأبواق الصدفية في ساحة مايور عثر صانعو الصور في كوزكو على طريقة لرسم آنية من الأفوكاتة وفلفل الريكو والتشيريموياز والفريز والسفرجل على طاولة العشاء الأخير، ورسموا أيضاً يسوع الرضيع منبثقاً من بطن العذراء والعذراء نائمة في سرير من الذهب تعانق القديس يوسف.

رفع البشر صلباناً من الذرة أو زينوها بأكاليل من البطاطا، وظهرت عند قدم المذابح تقدمات من القرع والبطيخ.

مريم، الأرض الأم

من المألوف أن نشاهد في كنائس هذه الأنحاء العذراء متوجة بالريش أو محمية بالمظلات كمثل أميرة آنكية، ونشاهد الإله الأب في شكل شمس بين الحمير يسند أعمدة وتشكيلات خشبية مزخرفة بالفاكهة والأسماك والطيور الإستوائية.

تُظهر لوحة دون توقيع مريم العذراء في جبل بوتوسي الفضي بين الشمس والقمر، يقف إلى جانبها بابا روما وفي الجانب الآخر ملك إسبانيا. إن مريم، على أية حال، ليست على الجبل بل في داخله، إنها الجبل، جبل له وجه امرأة ويدان ممدودتان، مريم ـ الجبل/ مريم ـ الحجر، يخصبها الله، كما تخصب الشمس الأرض.

باتشاماما

إنِ العذراء في الأراضي الآندية المرتفعة هي ماما والأرض والزمن هما أيضاً ماما.

الأرض، الأرض الأم ـ باتشاماما ـ تغضب إن شرب المرء من دون أن يدعوها. حين يشتد ظمأها تكسر الإناء وتسفح محتوياته.

تُقدَّم إليها مشيمة المولود ثمَّ تُدْفَن بين الأزهار ليتمكن الطفل من الحياة. ولكي يحيا الحب يدفن العشاق شعرهم المضفور.

تعانق إلهة الأرض المنهكين والمحطمين الذين انبثقوا منها مرة، تنفتح لتمنحهم الملاذ في نهاية الرحلة. ومن تحت الأرض يجعلها الموتى تزهر.

حوريَّتا البحر

في رواق كاتدرائية بونو الرئيس سينحت سيمون دي آستو حوريتين من الحجر.

ورغم أن حوريتي البحر ترمزان إلى الخطيئة، لن ينحت الفنان وحشين بل سيبدع فتاتين هنديتين أنيقتين، عازفتي شارانكو مبتهجتين ستعشقان من دون إحساس بالذنب. نهضت هاتان الحوريتان الآنديتان كويسينتو وأمانتو في الزمن الغابر من مياه بحيرة تيتيكاكا لتمارسا الحب مع الإله تونوبا، إله النار والبرق عند هنود الأيمارا، الذي يولد، لدى مروره، تيارا من البراكين.

1717: كيبك

الرجل الذي لم يؤمن بالشتاء

كما قال رابليه وكرر فولتير: إن برد كندا يجمّد الكلمات حين تخرج من الفم ويعلقها في الجو. في نهاية نيسان تشق الشمس جليد الأنهار، وينبثق الربيع من شقوق الانبعاث. حينئذ، حينئذ فحسب، تُسمع الكلمات التي نُطقت في الشتاء.

يخاف المستعمرون الفرنسيون من الشتاء أكثر مما يخاف الهنود، ويحسدون الحيوانات التي تنام في أثنائه. لا يعرف الدب أو فأر الجبل أمراض البرد: يغادران العالم لبضعة شهور بينما يشق الشتاء الأشجار بأصوات كطلقات المدافع ويحوّل البشر إلى تماثيل من الدم الجامد واللحم الرخامي.

أمضى بدرو داسيلفا البرتغالي الشتاء حاملاً البريد على زحافة تجرها الكلاب فوق جليد نهر القديس لورانس. كان يسافر في القارب في أثناء الصيف وأحيانا تجبره الرياح أن يمضي شهرا كاملا في الرواح

والغدو بين كيبك ومونتريال. كان بدرو يحمل أوامر الحاكم وتقارير الأساقفة والمسؤولين وعروضا من بائعي الفراء، ووعوداً من الأصدقاء وأسرار العشاق.

عمل ساعي بريد كندا الأول رَبْعَ قرن من دون أن يطلب إذناً من الشتاء ومات بعد ذلك...

1717: جزيرة دوباس

المؤسسون

تغطي خريطة كندا حائطاً كاملاً. ثمة مدن وحصون قليلة بين الساحل الشرقي والبحيرات الكبرى. وراء ذلك تمتد مساحة شاسعة وغامضة. على حائط آخر تحت براميل البنادق تتدلى فروات رأس الهنود الأعداء مسودّة من دخان التبغ.

على كرسي هزّاز كان بيير دي لا فيرندري جالساً يعض غليونه. لا يسمع بكاء طفله حديث الولادة بينما هو ينظر إلى الخريطة، وينحدر بصره إلى الأنهار الغزيرة التي لم يستكشفها أي أوروبي حتى الآن.

عاد حياً من ساحات الوغى في فرنسا حيث عدوه ميتاً من طلقة في الصدر وجراح متنوعة من السيف. حصل على طعام كثير في كندا بفضل قمح حقوله والتعويضات التي حصل عليها، باعتباره ملازماً أول مجروحاً، لكنه كان يهذي من الضجر.

سافرت ساقاه المجروحتان إلى أبعد من أحلام يقظته الأكثر توحّشاً، وجعلت رحلاته الاستكشافية هذه الخريطة تبدو أكثر غباء. وهو متوجه إلى الغرب بحثاً عن المحيط الذي يقود إلى سواحل الصين وصل إلى أمكنة في الشمال حيث انفجر بيت نار البندقية من البرد حين أُطلقت. وصل إلى الجنوب الأبعد من نهر ميسوري المجهول.

وصار الطفل الذي كان يبكي قربه في مهده الخشبي مستكشف حائط الجبال الصخرية الذي لا يُقهر.

تبعته البعثات التبشيرية وتجار الفراء، وهذا ما حدث دائماً كما مع كارتييه[1] وشامبلين ولي سال.

دفعت أوروبا أسعاراً جيدة لشراء جلود القنادس وثعالب الماء والصناصر والأيائل والثعالب والدببة، وحصل الهنود، مقابل ذلك، على أسلحة لقتل بعضهم البعض أو ماتوا في حروب بين الإنكليز والفرنسيين الذين يتنازعون على أراضيهم. حصل الهنود أيضاً على شراب مسكر يحوّل المحارب الأقوى إلى جلد وعظم، وعلى أمراض أكثر فتكاً من أسوأ العواصف الثلجية.

صورة الهنود

قال الرهبان والمستكشفون الفرنسيون إنه لا يوجد بين هنود كندا متكرّشون أو محدّبون، وإذا كان هناك أعرج أو أعمى أو أعور فإن هذا سببه الحرب.

قال بوشو إنهم يجهلون الملكية ويسمّون النقود، أفعى الفرنسي.

قال لافيتو إنهم يرون أنه من السخف طاعة إنسان آخر، وينتخبون الزعماء الذين لا يمتلكون أي امتياز، وإذا أصبح أحدهم طامعاً بالزعامة يطيحون به. تقدم النساء الآراء ويتخذن القرارات بشكل متساو مع الرجال وتكون الكلمة النهائية لمجالس الكبار والاجتماعات العامة لكن ما من كلمة بشرية تسبق صوت الأحلام.

إنهم يطيعون الأحلام كما يطيع المسيحيون الانتداب الإلهي كما قال بربيوف. يطيعونها لأن الروح تتحدث كل ليلة من خلال الأحلام. وحين

---

[1] ملاّح ومستكشف فرنسي.

ينتهي الشتاء ويذوب جليد العالم يقيمون حفلة عظيمة مكرسة للأحلام، وعندئذ يرتدي الهنود الأزياء وتمارس أنواع الجنون بكافة أشكالها.

قال كارتييه إنهم يأكلون حين يجوعون، والشهية هي التوقيت الوحيد الذي يعرفونه.

أضاف لِوجين: إنهم إباحيون؛ ذلك أن الرجال والنساء يستطيعون أن ينهوا قَسَمَ زواجهم متى شاؤوا. ولا تعني العذرية أي شيء لهم، ولقد عرف شامبلين نساء تزوجن عشرين مرة.

ورأى لوجين أنهم لا يحبون العمل لكنهم يستمتعون باختراع الأكاذيب، وهم انتقاميون، ومن أجل الانتقام يأكلون القمل والديدان وأية حشرة تستمتع بالدم البشري. ولقد بيّن بيارد أنهم غير قادرين على فهم أية فكرة مجرّدة.

وقال برِيبيوف إن الهنود لا يقدرون على فهم فكرة الجحيم ولم يسمعوا أبدا بالعقاب الأبدي. وحين هدّدهم المِسيحيون بالجحيم سأل المتوحشون: "هل سيكون أصدقاؤنا هناك أيضاً؟"

أغاني هنود التشيبيوا في إقليم البحيرات الكبرى

أحياناً أشفق على نفسي

بينما تحملني الريح عبر السماء.

* * *

الدغل

يجلس في ظل شجرة

ويغني.

1718: ساو خوسيّه ديل ري

المشهّرة

يستأصل فريق المغامرين الغابات ويفتح الأودية ويحرف مسار الأنهار، وطالما تستنهض النار شرارة في الأحجار الصدئة يأكل مطاردو الذهب الضفادع والجذور، ويؤسسون مدناً تحت الإشارة المضاعفة للجوع والعقاب.

يحدِّد نصب المشهّرة[1] ولادة كل مدينة في إقليم الذهب البرازيلي. المشهّرة؛ هي مركز كل شيء وحولها تبني المنازل وتشيّد الكنائس على التلال، المشهّرة التي ترتدي تاجاً في أعلاها وحلقتين حديديتين لتثبيت يدي العبد الذي يستحق التعذيب.

مشهراً سيفه أمامها أعلن الكونت أسيمار الولادة الرسمية لبلدة ساو خوسيّه ديل ري. استغرقت رحلته من ريو دي جانيرو أربعة أشهر وتوجب عليه أن يأكل في الطريق لحم القردة والنمل المشويّ.

سببت هذه الأرض للكونت أسيمار، حاكم ميناس غيريس الذعر والمرض. اعتبر أن روح التمرد طبيعة ثانية لهذا الشعب العنيد الذي بلا جذور. هنا تبث النجوم الفوضى كما يقول، وينفث الماء الانتفاضات وتخرج الأرض أبخرة عاصفة، الغيوم وقحة، الرياح متمردة والذهب غاضب.

أمر الكونت بقطع رأس كل عبد هارب ونظّم الميليشيات لإخماد تمرد السود. الذين بلا سلالة، الذين ليسوا بيضاً أو سوداً، النسل البائس المنحدر من السيد والعبد أو من خلائط آلاف الدماء هم صيادو العبيد الهاربين. الذين ولدوا ليعيشوا خارج القانون لا يصلحون إلا للموت كقتلة. هؤلاء الخلاسيون والمهجنون كثيرون. هنا، من دون نساء بيضاوات، ليس ثمة طريقة للنزول عند مشيئة الملك الذي أمر من لشبونة بتجنب النسل المريض المدنّس.

---

[1] آلة خشبية للتعذيب.

1719: بوتوسي

الطاعون

منذ ثلاثة أعوام أرسلت السماء تحذيراً من نار مريعة تنذر بكارثة. الشهاب ـ الشمس المارقة المجنونة ـ أشار بذيله الاتهامي إلى جبل بوتوسي.

ولد في بداية ذلك العام في حي سان بدرو طفل برأسين وتساءل القديس إن كان عليه أن يجري عمادة أو اثنتين.

ورغم الشهاب والوحش أصرت بوتوسي على أساليبها وألبستها وعاداتها الفرنسية التي ذمّها الله، المسيئة للطبع، والتي هي فضيحة للوقار المدني والسياسي.

احتفلت المدينة، كما جرت العادة، بكرنفال شروفتايد وسكرت وزأرت بطريقة تنافي الشرف. وحين ابتدأت ست فتيات جميلات رقصهن العاري انتشر الطاعون.

عانت بوتوسي من ألف مرض وميتة ولم يرحم الله الهنود الذين سفحوا نهرا من الدم ليدفعوا ثمن خطايا المدينة. واستنادا إلى الدون ماتياس سيبيرياكو إي سيلدا الطبيب العالم ذي الكفاءة العالية، استخدم الله التأثير الشرير لزحل لكي يحول الدم إلى بول ومرارة وذلك من أجل أن ينتقم لنفسه.

1721: زاكاتيكاس

التهام الإله

رنت الأجراس داعية الجميع إلى الاحتفال الذي أقيم بمناسبة توقيع زاكاتيكاس معاهدة سلام مع هنود الهويتشول.

منذ زمن بعيد وبعد أن انسحبوا إلى جبال ناياريت، دافع الهويتشوليون عن استقلالهم طوال قرنين وكانوا منيعين في وجه الهجوم المتواصل. لكنهم استسلموا للتاج الإسباني وضمنت لهم المعاهدة ألا يُجبروا على الخدمة في المناجم.

لم يكن لدى الهويتشيليين بديل حين يحجون إلى أراضيهم المقدسة سوى أن يمروا في إقليم المناجم الجائع للأيدي دائماً. كان الجد «النار» يحميهم من العقرب والأفعى لكنه كان عاجزاً أمام صيادي الهنود.

كانت الرحلة الطويلة إلى هضبة فيريكوتا عبر برية حجرية لا نهائية، رحلة إلى مكان أصلهم على طريق الآلهة. في فيريكوتا يعيش الهنود من جديد اصطياد الأسلاف للأيل، ويعودون إلى اللحظة الأبدية حين رفع إله الأيائل قرنيه للشمس المشرقة من جديد، وحين ضحّى بنفسه لتكون الحياة البشرية ممكنة، وحين سمَّد الذرة بدمه.

يسكن الأيِّل، إله الآلهة، في الصبار الذي يصعب جداً العثور عليه. تخبئ نبتة الصبار الصغيرة والقبيحة نفسها بين الصخور، وحين يكتشفها الهويتشوليون يرمونها بالسهام وحين يصطادونها، تبكي. بعد ذلك يجرحونها، يزيلون جلدها ويقطعون لحمها إلى شرائح، وحول نيران المخيم يأكل الهويتشليون الصبار المقدّس ثم تبدأ الغيبوبة. على حافة الجنون، في النشوة، حيث الجميع أبديون والجميع لم يوجدوا، يصبحون آلهة بينما يستمر العشاء الرباني.

إذا فقدت روحك سَهْواً

ماذا تفعل تلك المرأة الهويتشيلية التي هي على وشك الولادة؟ إنها تتذكر. تتذكر متوترة ليلة الحب التي جاء فيها الطفل الذي على وشك أن يولد. تفكر بها بكل قوة تلك الذاكرة، تلك السعادة فينفتح جسدها مستمتعاً باللذات التي عاشتها ويرسل هويتشلياً جيداً سيكون جديرا بالمتعة التي صنعته.

يعتني الهويتشلي الجيد بروحه، قوة الحياة المشعّة، لكن الجميع يعرفون أن الروح أصغر من نملة وأنعم من همسة، ذرة صغيرة، هبة ريح، ويمكن أن تضيع في أية لحظة إهمال.

يتخطر شاب على منحدر سِفح جبل، حين يسقط تنفصل عنه الروح التي ليست مربوطة إلاّ بخيط عنكبوتٍ حريري. ينادي الشاب الهويتشلي الدائخ والمريض متردداً حارس الأغاني المقدسة، الكاهن ـ الساحر.

ما الذي يبحِث عنه ذلك الهندي العجوز ٍالذي ينبش في منحدر الجبل؟ إنه يٍتعقب أثر الشاب المريض ٍمتسلقاً بصمت بين الصخور الحادة مفتشاً الأوراق ورقة ورقة، ناظراً تحت الأحجار ٍالصغيرة. أين سقطت الحياة؟ أين تستلقي خائفةٍ؟ يسير ببطء مصغياً بانتباه لأن الأرواح الضائعة تبكي وتصفر أحياناً كالنسيم.

حين يعثر الساحر على الروح المفقودة، يرفعها بطرف ريشة ويلفها في كرة قطن صغيرة ويحملها في قصبة صغيرة مجوفة إلى مالكها الذي لن يموت.

1726: خليج مونتيفيديو

مونتيفيديو

إلى الشرق مِن منعطف نهر أرغواي تربي السهول المرتفعة والمنخفضة أبقاراً أكثر من البرسيم. اشتهى غزاة البرازيل، بالعو الحدود، منجم اللحم والجلود الضخم، ويرفرف الآن العلم البرتغالي على ساحل الريفر بلاتا، فوق حصن كولونيا ديل ساكرامينتو. ولكي يوقف هجومهم يأمر ملك إسبانيا ببناء بلدة على خليج مونتيفديو. ولدت المدينة الجديدة تحت حماية المدفع والصليب، وازدهرت على نقطة من التراب والصخور تعصف بها الرياح ويهددها الهنود.

جاء المستوطنون الأوائل من بوينس آيرس: خمسة عشر شاباً، تسعة عشر طفلا، وبعض العبيد الذين لا يظهر رقمهم على القائمة؛ أيد سوداء للفأس والمعزق والمشنقة وأثداء لتقديم الحليب وصوت ليقوم بالحراسة.

حصل المؤسسون الأميون على امتيازات فرسان من الملك، وجرّبوا حق استخدام لقب الدون في جلسات المتّة والجن والسيجار:

– نخبك أيها الدون.

– نخبك!

كانت تفوح رائحة المتّة والتبغ من المخزن العام الذي كان المنزل الأول، والذي امتلك باباً خشبياً وجدرانا من الطوب بين الأكواخ المبنية من جلود البقر المبعثرة في ظل الحصن. كان المستودع يقدم المشروبات والأحاديث والغيتارات ويبيع أيضا الأزرار والمقالي والبسكويت وأشياء أخرى مشابهة.

ولد المقهى من المستودع العام وأصبحت مونتيفيديو مدينة المقاهي. ولم تخل أية زاوية من مقهى كمكان للأسرار والصخب، كمعبد صغير تلوذ إليه الوحدة، ويُحتفل فيه باللقاءات اللامتوقعة، حيث يخدم دخان السجائر كبخور.

1733: أورو بريتو

المهرجانات

زيّنت أقواس الأزهار شوارع أورو بريتو، وفي ظلها تم استعراض الطقوس الدينية بين جدران من الحرير والدمقس. كانت الرياح الأربع والكواكب السبعة تجيء وتروح على أحصنة مزينة بالمجوهرات، وعلى عروش مهيبة توهج القمر والحوريات ونجم الصباح مع حاشيتها من الملائكة. وبعد أسبوع من المفرقعات النارية والاحتفال المتواصل غنى الموكب أغاني شكر للذهب وهلل للألماس وكرّس لله.

الألماس جديد في المنطقة. اعتادوا حتى وقت متأخر أن يربحوا في ألعاب الورق وحين اكتشفت هوية أحجار الكريستال الصغيرة قدّم ملك البرتغال القطع الأولى لله وللبابا، ثم اشترى من الفاتيكان لقب الملك الأكثر إخلاصا، المكلف جدا.

كانت شوارع أورو بريتو ترتفع وتنحدر كحد مدية، وقُسِّم سكانها بين القمم والمهاوي. مهرجانات أولئك الذين في القمة هي عروض حفل الزامي، لكن مهرجانات القاع تحرّض على الشك والعقاب، ذلك أن الجلود الداكنة تخبئ تهديدات السحر وأخطار التمرد، أما أغاني وموسيقى الفقراء فهي خطيئة، والخلاسيّة التي تحب أن تضحك تجازف بالسجن أو الطرد، وفي أحد الابتهاج يمكن أن يفقد عبد أسود رأسه.

1736: سينت جون، أنتغوا

احتدامات

أنهوا قسمهم وهم يشربون من نفس الإناء الخزفي مزيجاً من الروم وتراب القبر ودم الديك، ثم انفجر زلزال من الطبول. كانوا قد جهّزوا البارود ليفجروا الحاكم وجميع فرسان جزيرة أنتغوا البريطانية، هذا ما قاله المدعي العام وهذا ما صدّقه القضاة.

مات ستة عبيد سود من الجوع مقيدين إلى المحرقة وحُطّم آخر إلى قطع وأُحرق سبعة وسبعون آخرون أحياء. أنقذ آخران نفسيهما لأنهما نطقا بأكاذيب حكمت على والديهما بالحرق.

تحول المتآمرون إلى فحم أو لحم نتن، لكنهم كانوا يتجولون على الشاطئ فجراً.

حين يكشف المد المنخفض عجائب في الرمل يعبر الصيادون ممرات مع الموتى الذين يبحثون عن الماء والطعام ليتابعوا رحلتهم إلى الغيب.

1738: بلدة تريلوني

كدخوي

تصبّبت النباتات والبشر عرقاً في الجبال المليئة بالأدغال والواقعة في غرب جامايكا وحتى الشمس خبّأت نفسها حين أعلن عويل البوق الطويل أن زعيم العدو وصل إلى الممر.

لم يأتِ الكولونيل كُثْري إلى القتال هذه المرة. عرض المستعبدون الإنكليز السلام مع العبيد الآبقين، ووعدوا أن يحترموا الحرية التي ربحوها في سنوات الحرب الطويلة، وأن يعترفوا بملكيتهم للأراضي التي يعيشون فيها. مقابل ذلك حوّل الآبقون أنفسهم إلى جندرما على أخوتهم المسجونين؛ من الآن فصاعدا، سيساعدون في قمع تمردات العبيد في مستعمرات السكر وسيعيدون الهاربين الذين يجيئون إليهم، باحثين عن ملاذ.

خرج الزعيم كدخوي ليقابل الكولونيل كُثري مرتدياً قبعة بلا حواف وسترة كانتِ زرقاءٍ مرة وتمتلك كمّين. ذلك أن غبار جامايكا الأحمر يضفي لوناً واحداً على الجلد والثياب، لكن، بالمقابل، لم يكن هناك زر مفقود في صدرية الكولونيل، ويمكن تمييز بياض شعره المستعار المجعّد. انحنى كدخوي وقبّل بوطه.

1739: بلدة ناني الجديدة

ناني

بعد أن تعامل مع كدخوي زعيمٍ عبيد ليوارد الهاربين، انطلق الكولونيل كثري نحو الشرق، لكن يداً مجهولة وضعت سماً مهلكاً في كأس رومه، فسقط عن حصانه كمعدن الرصاص.

بعد بضعة أشهرٍ، أنقذ النقيبٍ آدير السِلام في الشرق عند سفح جبل مرتفع جداً. متمنطقاً سيفاً احتفالياً ومعتمراً قبعة فضية، قبل كوو زعيم عبيد ويند ورد الهاربين شروط آدير. لكن، على هذه الجروف الشرقية، تمتلك ناني أكثر قوة كوو. أطاعتها عصابات ويندورد المبعثرة وأيضاً كتائب البعوض. ناني امرأة ضخمة من طين ناري، سيدة الآلهة، لا ترتدي سوى عقد مصنوع من أسنان جندي إنكليزي.

لا أحد يشاهدها، الجميع يشاهدونها. يقولون إنها ماتت لكنها تلقي نفسها عارية كقنبلة في وسط المعركة. تقف مديرة ظهرها للأعداء وتمسك مؤخرتها الرائعة الطلقات، وأحياناً تعيدها إلى مصدرها بدقة أو تحولها أحياناً إلى كرات قطنية.

حجٌّ في جامايكا

تخرج من ثغور في الأشجار، من ثغور في الأرض وشقوق في الصخور.

لا تمنعها الأمطار والأنهار. تعبر المستنقعات والأودية والغابات. لا يغيّر مسارها الضباب أو الشمس الحارقة.

بطيئة، لا تُقهر، تنحدر من الجبال. تتقدّم في طريق مستقيم من دون انحرافات. تتوهج ظهورها الصدفية تحت الشمس. ترأس مسيرها كتائب من المحاربين الذكور. تشهر سيوفها ومخالبها عند أية إشارة خطر. يموت كثيرون أو يفقدون ذراعاً وهم يشقون الطريق. تصرّ تربة جامايكا المغطاة بجيش السرطانات الكبير هذا.

الرحلة إلى البحر طويلة، أولئك الذين يصلون بعد شهرين أو ثلاثة، يصلون منهكين. بعد ذلك تتقدم الإناث، تتغطى بالأمواج ويسحب البحر بيوضها.

من الملايين التي بدأت الرحلة إلى البحر يعود القليل، لكن البحر، يحضن تحت الرمل شعباً جديداً من السرطانات، وفي وقت قصير ينطلق هذا الشعب الجديد إلى الجبال التي جاءت منها منجباته ولا يمكن أن يوقفه أحد.

ليس للسرطانات رؤوس؛ وصلت متأخرة في أثناء توزيع الرؤوس التي صنعها الملكٍ الإله في قصره القطني والنحاسي في إفريقيا. لا تملك السرطانات رؤوساً لكنها تحلم وتعرف.

1742: جزر خوان فرنانديز

آنسون

اعتقد التشيليون أن أمواج المحيط أحصنة ذات أفواه مزبدة تمتطيها الساحرات بأعنة من أعشاب الخليج. تهجم الأمواج على كتل الصخور التي لا تؤمن بالسحر، وتستسلم القلاع الصخرية للضرب بازدراء بعيد. عاليا كملِك يتأمل التيس الرذاذ. بقيت بعض الماعز في جزر خوان فرنانديز. منذ سنوات أحضر الإسبان من تشيلي مجموعة من الكلاب لاصطياد هذا الطعام السهل وليحرموا منه القراصنة.

عبثاً حاول رجال القائد آنسون اصطياد ظلال القرنين بين الصخور والجروف، واعتقدوا أنهم تعرّفوا على علامة أليكسندر سِيلكيرك على أذني عنزة اصطادوها. رفرف العلم الإنكليزي سليماً فوق صارية السفينة. وعاد أسطول اللورد جورج آنسون إلى لندن مدمراً من الجوع والإسقربوط، ولكن الغنيمة كانت رائعة بحيث لم تكف أربعون عربة تجرها الثيران لجرها من المرفأ. باسم إتمام علم رسم الخرائط والجغرافيا والفلك والهندسة وفن الإبحار اصطاد العالم آنسون بمدافعه سفناً إسبانية مختلفة، وأحرق عدة بلدان آخذاً كل شيء حتى اللمّات المستعارة والثياب الداخلية المطرزة.

في تلك السنوات كانت الإمبراطورية البريطانية تولد في الانتقال من القرصنة إلى التهريب لكن آنسون قرصان من المدرسة القديمة.

1735: نهر سيراليون

لنمدح الإله

جاء وحي اللّه في ومضات البرق، واعتنق القبطان جون نيوتن المسيحية في ليلة تجديف وسكر، حين كانت عاصفة مفاجئة على وشك أن ترسل سفينته إلى قاع المحيط.

من يومه ذاك أصبح أحد مُحبِّي اللّه وصار يقدم موعظة كل ليلة. يتمتم صلاة المائدة قبل كل وجبة ويبدأ كل يوم غناء مزامير يكررها البحارة بصوت أجش في كورس. كان يدفع في ليفربول عند نهاية كل رحلة من أجل احتفال خاص بعيد الشكر مكرسٍ للّه الكلي القدرة.

وبينما كان ينتظر حمولة عند مصب نهر سيراليون، طرد القبطان نيوتن المخاوف والبعوض وتوسّل إلى اللّه أن يحمي سفينة «أفريكان» وطاقمها، وأن يضمن وصول البضائع التي تحملها سليمة إلى جامايكا.

كان القبطان نيوتن وزملاؤه العديدون منشغلين بتجارة ثلاثية بين بريطانيا وأفريقيا وجزر الأنتيل. كانوا يحمِّلون الثياب وشراب الروم والبنادق والسكاكين في ليفربول، ويأخذون بدلاً منها الرجال والنساء والأطفال عن الساحل الإفريقي، ثم تسلك السفن مساراً إلى الجزر الكاريبية، وهناك تُقدِّم العبيد وتأخذ السكر والقطن والتبغ الذي تنقله إلى ليفربول لتبدأ دورة جديدة.

يسهم القبطان في أثناء أوقات فراغه في الطقوس الدينية المقدسة مؤلفاً الترنيمات. في تلك الليلة، يغلق كابينته ويبدأ كتابة ترنيمة جديدة بينما ينتظر قافلة العبيد التي تأخرت لأن بعض العبيد حاولوا أن يقتلوا أنفسهم ملتهمين الطين على الطريق. كان يمتلك العنوان مسبقاً، كم هو عذب رنين اسم يسوع! أنجزت الأبيات الأولى ودندن القبطان ألحاناً مقبولة تحت المصباح الذي يتدلى من السقف الأعلى.

1758: كاب فرانسي

ماكاندال

أخرج فرانسوا ماكاندال منديلاً أصفر من كأس ماء أمام حشد ضخم من العبيد الهاربين.

«في البداية، كان الهنود».

ثم أخرج منديلاً أبيض.

«أما الآن فالبيض هم الأسياد».

هزَّ منديلاً أسود أمام أعين الآبقين، وأعلن أن ساعة أولئك الذين جاؤوا من أفريقيا قد حانت. هزّ المنديل بيده الوحيدة لأنه ترك الأخرى بين الأسنان الحديدية لمطحنة سكر.

إن ماكاندال ذا اليد الوحيدة هو سيد السم والنار في السهول الواقعة شمال هاييتي. بأمر منه تُحْرَق حقول القصب وبرقاه ينهار لوردات السكر وهم يبصقون البصاق والدم.

عرف كيف يحوّل نفسه إلى إغوانة[1]، إلى نملة أو ذبابة مزودة بخياشيم وهوائِي أو جناحين، لكنهم يقبضون عليه ويحكمون عليه ويحرقونه حياً. يشاهد الحشد جسده يتلوّى ويرتجف من خلال ألسنة اللهب. فجأة تشق صرخة الأرض، صرخة ألم ومتعة عظيمة ويتحرر ماكاندال من المحرقة والموت: صارخاً ومحترقاً يخترق الدخان ويتلاشى في الجو.

وهذا لم يثر دهشة العبيد لأنهم يعرفون أنه سيبقى في هاييتي لوناً لجميع الظلال ومحرِّكاً لليل.

---

(1) عظاية أميركية استوائية ضخمة آكلة للأعشاب.

1761: سيستيل

كانيك

أعلن هنود المايا استقلال يوكاتان واستقلال أميركا القادم. «لم تحضر لنا السلطة الإسبانية سوى المتاعب، لا شيء سوى المتاعب».

«جاسينتو أوك»، الذي يجعل الطبول تقرع حين يداعب أوراق الأشجار، نصّب نفسه ملكاً واختار لنفسه اسم كانيك؛ الثعبانُ الأسود. عقد ملك يوكاتان حول عنقه رداء سيدتنا مريم وخطب مطولاً بالهنود الذين دحرجوا حبوب الذرة على الأرض وغنوا أنشودة الحرب. قال الأنبياء – الرجال ذوو الصدور الدافئة التي نوّرتها الآلهة –: "إن الذي يموت في القتال سيُبعث". وقال كانيك إنه ليس ملكاً من أجل محبة السلطة، وإن السلطة تتوق إلى مزيد من السلطة، وإن الإبريق حين يطفح بالماء ينسفح. قال إنه ملك ضد سلطة المتسلطين، وأعلن نهاية القنانة ومنصات الجلد والهنود الذين يصطفون لتقبيل يد السيد.

«لن يستطيعوا أن يقيدونا، ستنفد حبالهم».

تعددت الأصداء في سيستيل والقرى الأخرى وأصبحت الكلمات صرخات وتدحرج الكهنة والضباط مضرّجين بدمائهم.

1761: مريدا

أشلاء

أسروه بعد كثير من القتل وكان القديس يوسف هو القِديس الذي رعى ذلك النصر الاستعماري. اِتهموا كانيك بانتقاد المسيح وبحشْو فمه عشباً. حُكِم عليه بأن يحطم حياً بقضبان الحديد في حي مريدا الرئيَس.

دخل كانيك الحي راكباً بغلاً وقد حجب وجهه تاج ورقي ضخم. وعلى التاج كتَبَتْ جنحته: ثار ضد الله والملك.

فرموه قطعة قطعة من دون أن يسمحوا له براحة الموت، وكان مصيره أسوأ من مصير حيوان في مسلخ. بعد ذلك رموا أشلاءه في النار. اختتم الاحتفال بتصفيق مطوّل وفي أثناء التصفيق هُمس أن الأقنان سيضعون زجاجاً مطحوناً في خبز الأسياد.

1761: سيستيل

الذرة المقدسة

رمى جلاّدو كانيك رماده في الجو بحيث لا ينبعث يوم القيامة. قُتل ثمانية من قوّاده خنقاً وقُطِعتْ أذن مائتي هندي.

ولكي يؤذوا ما هو أكثر قداسة، حرق الجنود بذار الذرة التي زرعتها الجماعات الهندية.

إن الذرة الحية تعاني إذا حُرقت وتهان كرامتها إذا ديسَ عليها. وربما تحلم الذرة بالهنود كما يحلم الهنود بها، وهي تنظم المكان والزمان والتاريخ للشعب الذي صُنع من لب الذرة. حين ولد كانيك قطعوا حبل سرته على قرن ذرة وباسم المولود الجديد زرعت حبات ذرة ملطخة بدمائه. لقد تغذى من حقل الذرة هذا وشرب ماء صافياً يحوي ضوء نجم مسائي وترعرع.

1763: بوراكو دي تاتو

يقدم المخربون مثالاً سيئاً

نجا الأدلاء، الذين يستطيعون أن يروا في ليلة بلا قمر كما يرون في النهار، من المصائد. بفضلهم استطاع الجنود أن يعبروا متاهة الأوتاد المسنونة الخائنة وانقضّوا فجراً على قرية العبيد الأحرار.

تعالى دخان البارود وألسنة اللهب وأصبح الجو كثيفاً ومالحاً قرب ساحل إيتاباوا. ولم يبق في منتصف النهار شيء من بوراكو دي تاتو، ملاذ العبيد الهاربين الذي كان طوال عشرين عاماً إساءة لمدينة ساو سلفادور دي باهيا القريبة.

أقسم نائب الملك أن يطهر البرازيل من العبيد الهاربين لكنهم كانوا ينبثقون في جميع الجوانب وعبثاً قطع النقيب بارتولوميو بوينو أربعة آلاف زوج من الآذان في ميناس غيريس.

أجبرت أعقاب البنادق أولئك الذين لم يسقطوا دفاعاً عن بوراكو دي تاتو على الانتظام في الصف. وشم الجميع على صدورهم بحرف إف الذي يشير إلى العبد الهارب، وأعيدوا إلى مالكيهم. وبدأ النقيب جواكيم داكوستا المفلس يبيع الأطفال بأسعار رخيصة.

مشاركة

التاريخ، السيدة ذات الحجاب الأحمر، التي تقدم شفتيها للذين يربحون، تملك الكثير لتخبئه. تظاهرت بالغيبوبة أو بمرض فقدان الذاكرة المزيف، وكذبت قائلة إن عبيد البرازيل كانوا خنوعين، مستسلمين وحتى سعداء.

لكن مالكي المستعمرات كانوا يجبرون الطباخين أن يتذوّقوا عينة من كل طبق أمام أعينهم. بين متع المائدة تكمن سموم تعد بآلام

طويلة. العبيد يقتلون وأيضاً ينتحرون أو يهربون وهذه طرقهم لسرقة سيدهم من ثروته الرئيسة، أو ينتفضون مؤمنين وراقصين ومغنين وهذه طريقتهم في الخلاص والانبعاث.

يسكر قصب السكر المقطوع جوّ المستعمرة، وتتوقّد النار في التراب وفي الصدور البشرية: النار تصلب السياط، الطبول تدمدم. تستحضر الطبول الآلهة القديمة التي تهرب إلى أرض المنفى هذه استجابة لأصوات أطفالها الضائعين، تدخلهم، تمارس معهم الحب وتنتزع الموسيقى والصرخات من أفواههم ثم تعيد إليهم حياتهم سليمة.

في نيجيريا أو داهومي تطلب الطبول الخصب للنساء والحقول، لكن هذا لا يحدث هنا؛ هنا تحبل النساء بالعبيد وتسحقهم الحقول. هنا، لا تطلب الطبول الخصب بل الانتقام، وأوغم، إله الحديد، يشحذ الخناجر بدلاً من المحراث.

صورة باهيا

قال قادة باهيا إن الرجل الأسود لا يذهب إلى الفردوس مهما صلى لأن شعره الخشن يخز إلهنا. قالوا إنه لا ينام بل يشخر، لا يأكل بل يبلع وإنه لا يتحدث بل يغمغم. قالوا إنه لا يموت بل ينتهي. قالوا إن الله صنع الرجل الأبيض ورسم الخلاسي، أما الإنسان الأسود فقد تبرّزه الشيطان.

يُشتَبه بأن أي احتفال للسود، هو تمجيد للشيطان الأسود الشّرير ذي الذيل والمخالب والرمح الثلاثي، لكن القادة يعرفون أنه إذا سلى العبيد أنفسهم بين فينة وأخرى فإنهم ينجزون المزيد من العمل ويعيشون المزيد من السنين وينجبون المزيد من الأبناء. وكما يوحي طقس «الكابويرا» والصراع اليدوي المهلك بأنه لعبة ملونة، يتظاهر «الكاندومبلي» بأنه ليس إلا رقصاً وضجيجاً، ولا تغيب أبداً العذراوات أو القديسون الذين يعيرون أقنعة. لا أحد يوقف أوغم عن التحول إلى القديس جورج، إلى الفارس الأشقر، وتخبئ الآلهة السوداء الشريرة نفسها حتى في جراح المسيح.

في أسبوع آلام العبيد، العبد هو الذي يطبق العدالة على الخائن ناسفاً يهوذا الإسخريوطي الأبيض، الدمية المدهونة بالكلس، وحين يعرض السود العذراء في موكب يكون القديس الأسود بنيديكت في مركز كل التمجيد. لا تعترف الكنيسة بهذا القديس، واستناداً إلى السود كان القديس بنيديكت عبداً مثلهم، طباخاً في أبرشية، وكانت الملائكة تحرك الآنية أثناء صلواته.

يفضّل الأسياد القديس أنطوني الذي يرتدي قماشاً عسكرياً مخططاً ويختص في إدارة السود. حين يهرب عبد، يُرمى السيد القديس في الزاوية مع القمامة. يبقى القديس أنطوني تائباً ووجهه إلى الأسفل إلى أن تصطاد الكلاب العبد الهارب.

رأسك الآخر، ذاكرتك الأخرى

ثمة نقش كئيب على الساعة الشمسية لأبرشية سان فرانسيسكو يذكر العابر كيف يمر الزمن: «كل ساعة تمر تجرحك والأخيرة ستقتلك».

الكلمات مكتوبة باللغة اللاتينية، ولا يعرف عبيد باهيا السود اللاتينية أو القراءة والكتابة. أحضروا من أفريقيا آلهة سعيدة ومشاكسة. تُقرع الطبول كي لا يضيع الميت وكي يصل بأمان إلى أوهالا. هناك في منزل خالق الخالقين ينتظر رأسه الآخر، رأسه الخالد.

نملك كلنا رأسين وذاكرتين؛ نملك رأساً من الطين سيتحول إلى غبار، وآخر يبقى إلى الأبد منيعاً على حتّ الزمن والهوى. نملك ذاكرة يقتلها الموت، بوصلة تنفد في الرحلة وذاكرة أخرى، الذاكرة الجماعية، التي ستعيش طالما تعيش المغامرة البشرية في العالم.

حين حُرِّك هواء الكون واستُنشقَ لأول مرة وولد إله الآلهة، لم يكن هناك فصل بين السماء والأرض. أما الآن تبدوان مطلقتين، لكن السماء والأرض تنضمان في كل مرة يموت فيها شخص ما، وكلما ولد امرؤٌ وفي كل مرة يتلقى أحدهم الآلهة في جسد نابض.

1763: ريو دي جانيرو

هنا

اقترح لويس دا كُنها منذ ربع قرن على ملك البرتغال أن ينتقل مع بلاطه كلّه من لشبونة إلى ريو دي جانيرو، وأن يعلن في هذه المدينة نفسه إمبراطوراً للغرب. يجب أن تكون عاصمة الإمبراطورية هنا في مركز الثروة، لأن البرتغال لا تستطيع أن تحيا من دون ثروات البرازيل، لكن البرازيل، كما حذّر لويس دا أنها تستطيع أن تعيش بسهولة من دون البرتغال.

في ذلك الوقت بقي العرش في لشبونة لكن مركز المستعمرة انتقل من الشمال إلى الجنوب. باهيا، ميناء السكر، استسلمت لريو دي جانيرو، ميناء الذهب والألماس. نمت البرازيل جنوباً وغرباً مهاجمة الحدود الإسبانية.

شغلت العاصمة الجديدة أجمل بقعة في العالم. هنا تبدو الجبال كأزواج من العشاق، ويحمل الهواء عطوراً تسبّب الضحك وثمة نسيم دافئ يثير الطيور. الأشياء والبشر مصنوعون من الموسيقى، ويتلألأ البحر أمام عينيك فيكون من الممتع أن تغرق فيه.

1763: تيخوكو

العالم داخل ماسة

بين صخور حمراء مهيبة تبدو كالتنانين تتموّج الأرض الحمراء التي آذتها يد الإنسان. يزفر إقليم الألماس غباراً نارياً يحمّر جدران مدينة تيخوكو. يتدفق إلى جانب المدينة جدول، وبعيداً تبدو جبال لها لون البحر أو الرماد. تخرج من حوض النهر ألماسات تعبر الجبال، وتبحر

من ريو دي جانيرو إلى لشبونة ومن لشبونة إلى لندن حيث تُقطع ويتضاعف سعرها مرات عديدة وفيما بعد تقدّم التألق للعالم كله.

تهرّب الماسات كثيرة ورغم أن جسم الجريمة[!] يمكن أن يكون بحجم برغوث، فإن المعدّنين السريين الذين أُسروا يتمددون من دون قبور طعاماً للغربان، أما العبد الذي يُشتبه بأنه ابتلع ما يجب ألا يحصل عليه، يتلقى تطهيرا عنيفا بالفلفل الحار.

تنتمي أية ماسة إلى ملك البرتغال، وإلى جاو فرنانديز دي أوليفيرا الذي يحكم هنا بعقد من الملك وإلى جانبه شيكا دا سيلفا المعروفة أيضاً بشيكا التي تحكم، وهي خلاسية ترتدي ثياباً أوروبية محظورة على سود الجلود وتتباهى بالظهور حين تذهب إلى القداس على محفة، تتبعها حاشيتها من النساء السود اللواتي يلبسن كأميرات. تشغل موقع الشرف في الكنيسة وليس هناك نبيل في الجوار لا يحني عموده الفقري أمام يدها المغطاة بالخواتم الذهبية، ولا أحد يغيب عن اجتماعاتها في المنزل الذي في الجبال. هناك تقيم شيكا دا سيلفا المآدب والحفلات المسرحية حيث تؤدّى «مفاتن ميديا» أو مسرحية أخرى شعبية، وفيما بعد تأخذ ضيوفها في رحلة في تلك البحيرة التي حفرها لها أوليفيرا لأنها أرادت المحيط ولم يكن هناك محيط. يصعدون درجاً مموهاً بالذهب إلى الرصيف ويطوفون في مركب مهيب يتألف طاقمه من عشرة بحارة.

ترتدي شيكا دا سيلفا شعراً مستعاراً لفائفه بيضاء وتغطي اللفائف جبهتها مخفية تلك العلامة التي تركها الوشم الحديدي حين كانت عبدة.

[!] الجسم الذي وقعت عليه الجريمة.

1763: هافانا

التقدم

وصل الإنكليز إلى كوجيمار منذ عام مع القصف المدفعي. وبينما كانت هافانا توقع على استسلامها بعد حصار طويل كانت سفن العبيد تنتظر خارج المرفأ. حين رستْ السفن في الخليج اغتصب الشراة بضائعهم. كان التجار يتبعون المحاربين كالعادة وقد باع تاجر واحد يُدعى جون كينيون ألفاً وسبعمائة عبداً في أثناء الاحتلال البريطاني. ضاعف هو وزملاؤه القوة العاملة في المستعمرات التي كانت قديمة إلى درجة أنها كانت تنتج جميع أنواع الغذاء وتستخدم آلة واحدة فقط، وهي المطحنة التي تسحق قصب السكر وتدور بخطوة الثيران الدائرة.

لم يكن قد مرّ على الهيمنة البريطانية على كوبا عشرة أشهر، لكن الإسبان لم يتعرفوا بسهولة على المستعمرة التي استعادوها. فقد هزّ الإنكليز كوبا كثيراً حتى استيقظت من قيلولتها الزراعية الطويلة. ستتحول هذه الجزيرة في الأزمنة القادمة إلى معمل سكر ضخم يطحن العبيد ويخرّب كل شيء. ستدمَّر مزارع التبغ وحقول الذرة والمساحات الخضراء. ستُستَأصل الغابات وتُجفف الجداول وسَيُعصر كل عبد أسود في فترة سبع سنوات.

العبيد يؤمنون

يؤمن العبيد أن الآلهة تحرِّك الدم والنسغ. يتنفس في كل ورقة من عشب كوبا إله ولذلك فإن الغابة حية. الغابة؛ معبد الآلهة الإفريقية، منزل الأسلاف الأفارقة، مقدسة وتحفظ الأسرار. إذا نسي أي شخص أن يلقي عليها السلام، تغضب وتمنع الصحة والثروة. يتوجب على المرء أن

يقدم لها هدية ليحصل على الأوراق التي تشفي الجراح وتدرأ المصائب. يجب أن يحييها المرء بكلمات طقوسية أو أية كلمات تخرج منه. يتحدث كل شخص مع الآلهة كما يشعر ووفق قدرته.

ما من إله كله جيد أو كله سيء،

الإله نفسه يمكن أن ينقذ أو يقتل.

إن النسيم ينعش والإعصار يدمِّر، وكلاهما هواء.

النخلة الملكية

في هذه النخلة المتغطرسة يعيش شانغو الإله الأسود، الذي يسمّي نفسه القديسة بربارة حين يتنكر بزيّ امرأة مسيحية. أوراق قنتها ذراعاه ومن الأعلى يطلق نيران مدفعيته. شانغو يأكل النار ولا يتعب أبداً من التنكيت والحب ولهذا تكرهه الآلهة وتجنّ منه الإلاهات. تزوَّج أويا، زوجة شقيقه أوغم، الذي قيل إنه عذراء كانديلاريا، ويقاتل إلى جانب شانغو بسيفين. في الأنهار يمارس الحب مع أوشن، ومعاً يتناولان السكر والقرفة.

1766: حقول آريكو

الخيول البرّية

غنى في بوينس آيرس عشرون طفلاً هندياً ينتمون إلى خورس إرسالية سان خافيير الجزويتية في الكاتدرائية وفي عدة كنائس مكتظة. وعبّر الجمهور عن امتنانه لتلك الأصوات السماوية. إن الأوركسترا الجوارانية المؤلفة من الكمنجات والآلات ذات الوتر الواحد اجترحت المعجزات أيضاً.

انطلق الموسيقيون في رحلة عودتهم يقودهم فراي هيرمان بوك. وكان يفصلهم أسبوعان من السفر عن منازلهم الواقعة على الساحل.

على الطريق جمع بوك ورسم كل ما رآه: النباتات والطيور والعادات.

يشاهد بوك وموسيقيوه الجوارانيون في حقول آريكو تضحية الخيول غير الموسومة. يحضر عمال هنود تلك الخيول البرية إلى الزرائب مختلطة مع الخيول المروّضة وهناك يرسنونها ويخرجونها واحداً واحداً إلى البلاد المفتوحة، ثم يقلبونها وبضربة واحدة يشقون بطونها. تتابع الخيول غير الموسومة عدوها، تخطو على أحشائها إلى أن تتدحرج على العشب وتنشر عدوى الحرية بين الخيول المروّضة.

1767: البعثات التبشيرية

قصة سبع قرى

قدّم ملك إسبانيا لحميه، ملك البرتغال، هدية تتألف من سبع قرى. منحها فارغة لكنها كانت مسكونة وهي سبع إرساليات أسسها الآباء اليسوعيون للهنود الجوارانيين إلى الشرق من نهر الأوروغوي الأعلى. خدمتْ كمتاريس ضد الجبهة التي كانت تُهاجم دائما مثل الإرساليات الأخرى.

رفض الجوارانيون الخروج. هل يغيّرون مراعيهم كقطيع من الخراف لأنِ الإنسان يأمر بذلك؟

علّمهم اليسوعيون صناعة الساعات والمحاريث والأجراس والمزامير وكتباً مطبوعة بلغتهم الجوارانية، وعلموهم أيضاً كيف يصنعون البنادق ليدافعوا عن أنفسهم ضد صيادي العبيد.

يطرد الجنود البرتغاليون والإسبان الهنود لكنهم يعودون خفية في الليل. يُطردون ثانية ويعودون مرة أخرى متحولين إلى رياح مرعدة وعاصفة من البرق تحرق الحصون.

يعرف الجميع أن الكهنة يصفّون إلى جانبهم. قال رؤساء الرهبان في نظام لويولا: "إن مشيئة الملك هي مشيئة الله، وهي مشيئة لا تُنتَهك وستختبرنا: حين أطاع إبراهيم الصوت الإلهي ورفع السيف فوق عنق ولده إسحق، أرسل الله ملاكاً ليصد الضربة في اللحظة الحرجة". لكن الكهنة اليسوعيين رفضوا أن يضحوا بالهنود، وعبثاً هدّد كبير أساقفة بوينس آيرس بأن يحرم كنسياً كلا من الهنود والكهنة. عبثاً تأمر الهيئة الكهنوتية للكنيسة بحرق البارود وتدمير البنادق والرماح التي أوقفت بها الإرساليات ألف مرة الهجمات البرتغالية ضد الحدود الإسبانية.

كانت حرب القرى السبع ضد الناجين طويلة. سقط في معركة كايباته ألف وخمسمائة هندياً، أبيدت الإرساليات لكن ملك البرتغال لم يستطع أن يتمتع بالهدية.

لم يغفر الملكان للإساءة أبداً، فبعد ثلاثة أعوام من معركة كايباته طرد ملك البرتغال اليسوعيين من جميع أراضيه وتبعه في ذلك ملك إسبانيا.

1767: الإرساليات التبشيرية

طرد اليسوعيين

وصلت التعليمات من مدريد في ظروف مختومة بالشمع ونفّذها نوّاب الملوك والمحافظون في كل أنحاء أميركا. قبضوا على اليسوعيين ليلا معتمدين على عنصر المفاجأة ورحّلوهم فورا إلى إيطاليا البعيدة. نُفي أكثر من ألفي كاهن.

عاقب ملك إسبانيا أبناء ليولا الذين أصبحوا أبناء أميركا بتهمة العصيان المتكرر والتخطيط لبناء مملكة هندية مستقلة.

لم يبك أحد من أجلهم سوى الجوارانيين. أعلنت الإرساليات اليسوعية الكثيرة في منطقة الجوارانيين أرض الميعاد التي تخلو من الشر والموت وسمّى الهنودُ الكهنة كاراي، وهو اسم خاص بأنبيائهم.

أرسل الهنود من حطام إرسالية سان لويس غونزاكا، رسالة إلى محافظ بوينس آيرس: "لسنا عبيداً، لا نحب عادتكم في أن يكون الرجل أنانياً بدل أن يساعد الآخرين".

حالاً حُطِّم كل شيء اختفتْ المشاعية ونظام الإنتاج الجماعي والحياة الجماعية. بيعت أفضل ممتلكات الإرسالية للذي دفع ثمناً أعلى. تداعت المدارس والكنائس والمصانع وغزت النباتات الطفيلية المراعي وحقول الحنطة. مُزِّقت الأوراق من الكتب من أجل صناعة الخرطوش للبارود. فرَّ الهنود إلى الغابة أو بقوا ليصبحوا مشردين، عاهرات وسكارى.

أن تولد هندياً، هو مرة أخرى، إهانة أو جريمة.

1767: الإرساليات التبشيرية

لن يجعلوا لغاتهم تموت

نشرت مطابع إرساليات الباراغواي بعض أفضل كتب أميركا الكولونيالية وهي كتب دينية في اللغة الجوارانية، ونشرت نقوشاً حفرها الهنود على الخشب.

كانت الجوارانية لغة الإرساليات المنطوقة والمكتوبة، وبعد أن طُرِد اليسوعيون فُرِضت القشتالية كلغة وحيدة وإلزامية.

لا أحد يسلم نفسه للصمم أو لفقدان الذاكرة، لا أحد يكترث.

1769: لندن

أول رواية كتبت في أميركا

منذ عشرة أعوام أنهكت أجراس لندن نفسها وهي تحتفل بانتصارات الإمبراطورية البريطانية. سقطت مدينة كيبك، بعد قصف عنيف وفقدت فرنسا أراضيها في كندا. أعلن الجنرال الشاب جيمس وولف الذي قاد الجيش البريطاني أنه سيسحق الطاعون الكندي لكنه مات قبل أن يشهد الحدث. كان وولف، كما أفادت الثرثرة، يقيس نفسه حين يستيقظ ويرى طوله يزداد كل يوم إلى أن قاطعت رصاصة نموّه.

نشرت فرانسيس بروك رواية في لندن عنوانها **تاريخ إميلي مونتاغ**، ترصد ضباط وولف وهم يغزون القلوب في الأراضي التي غزتها مدافعهم. كانت المؤلفة امرأة إنكليزية ممتلئة وظريفة تعيش وتكتب في كندا. نقلت في شكل مئتين وثماني وعشرين رسالة انطباعاتها وتجاربها في المستعمرة البريطانية الجديدة، ونسجت بعض العلاقات الغرامية بين شبان إنكليز أنيقين يرتدون بزات عسكرية والسيِّدات الشابات اللاهثات لمجتمع كيبك. كانت عواطفهن المثقفة جيداً تقود إلى الزواج عن طريق بيت الأزياء، قاعة الرقص والنزهات إلى الجزيرة وقدّمت الشلالات الرائعة والبحيرات النبيلة ستارة مسرح خلفية مناسبة.

الهنود والأحلام في رواية

فرانسيس بروك

يحتفظ الهنود بمعظم خرافاتهم القديمة وخاصة إيمانهم بالأحلام، ولا يمكن أن تشفيهم حتى الخيبات المتكررة من حماقة كهذه. وحدث

مرة أن ابتسمتُ لسماع رواية متوحش لحلم نبوي، أكّد لنا من خلاله موت ضابط إنكليزي عرفتُ أنه على قيد الحياة. قال: أنتم الأوروبيين أكثر البشر لا معقولية في العالم، تسخرون من إيماننا بالأحلام ومع ذلك تريدوننا أن نؤمن بأشياء غير قابلة للتصديق ألف مرة.

1769: ليما

نائب الملك «أمات»

في الوقت الذي تركع فيه العائلات لتصلي التاسوعية وصلوات للأموات، يُسمع صوت عربة نائب الملك وهي تتجه إلى المسرح. تدوي غمغمة فضيحة عبر الستائر الفينيسية، تتوقف الصلوات قليلاً، تنطلق الثرثرة: "لقد فقد نائب ملك ليما الفظ والنذل والتافه والوغد رأسه من أجل ممثلة كوميدية تافهة".

كان الدون مانويل دي أماتي جُنْينت يحضر كل ليلة أية أوبرا هزلية أو مسرحية ساخرة أو تمثيلية دينية أو ملهاة تهز فيها ميكايلا فيليكاس، ردفيها وترقص بكعبيها على خشبة المسرح. لا يأبه بالحبكة. حين تبدأ ميكايلا، تلك القرفة الرائعة النقية، القرفة المزهرة، غناءها التملقي، يطير الشعر المستعار لنائب الملك العجوز. يصفق بجنون ويحدث ثقوباً في الأرض بعكازه. تجيبه وهي تطوف بعينيها، مبتسمة تحت الشامة الأساسية مقدمة ثدييها في انحناءات مغطاة بالنثار المعدني.

كان نائب الملك رجل ثكنات، لا رجل حفلات ورقص، كان أعزب عبوساً تظهر عليه خمسة ندوب كبيرة ربحها في حروب شمال أفريقيا. جاء إلى ليما لينظف طرقاتها من لصوص المواشي والخيول وليطرد العاطلين عن العمل والمشردين. تحت هذه السماء الرصاصية والتي هي سقف أكثر من كونها سماء، أراد أن ينتحر لكنه تغلب على الإغراء من خلال شنق البشر.

تعلم نائب الملك بعد ثماني سنوات من وصوله أن يسرق، أن يأكل صلصة الفلفل والخنزير المتبّل، وأن يدرس تقويرات الفساتين بمنظار الأوبرا. كانت على ظهر السفينة التي أحضرته من فلباريسو امرأة عارية كتمثال في مقدم السفينة.

1769: ليما

لا بيريكولي

تعرض ميكايلا فيليكاس صدرها مثل جميع نساء ليما لكنها تخفي قدميها، تحميهما بحذاء صغير من الساتان الأبيض، وتستمتع كالأخريات بارتداء الياقوت الأزرق والأحجار الكريمة على بطنها، حتى لو كانت مصنوعة من المعجون.

ميكايلا، ابنة هجين فقير من الإقليم، دارت حوانيت هذه المدينة لتحظى بمتعة المشاهدة أو الإحساسٍ بحرير ليون وصوف فلاندرز،وعضّت شفتيها حين شاهدت عقداً من الذهب والألماس حول عنق قطة سيدة كريمة النسب.

دخلت ميكايلا المسرح وتحولت إلى ملكة وحورية وصحن موضة أو إلهةٍ طالما يستمر العرض. هي الآن المحظية الأولى طوال النهار والليل أيضاً. تحيط بها غيمة من العبيد السود، لا يُشك بمجوهراتها ويقبل الكونتات يديها.

تنتقم سيدات لِيما منها بتسميتها بيريكولي. وهكذا عمدها نائب الملك نفسه محاولاً أن يقول بيرا كولا أو «آلعاهرة الهجينة» بفمه الأدرد. قالوا إنه شتمها هكذا كنوع من الرقية وهو يحملها على الدرج إلى فراشه المهيب لأنها أثارت فيه سِعاراً خطيراً واحتراقات وإحساسات رطبة وجافة أرجعته، مرتجفاً، إلى سنوات شبابه.

ساعة الوجبة الخفيفة

يبدأ نشاط ليما في الساعة السابعة مع بائعة الحليب. خلفها في عطر من الطهارة يجيء بائع شاي الأعشاب.

في الثامنة يعبر بائع خثارة اللبن.

في التاسعة يقدِّمُ صوتٌ حلوى من القرفة.

في العاشرة يبحث الطامال[1] عن أفواه ليمتعها

الحادية عشرة هي ساعة البطيخ وحلوى جوز الهند والذرة المشوية.

ظهراً الموز وفاكهة الحب، الأناناس، الشيريموياز الحليبية ذات المخمل الأخضر، الأفوكاته التي تعد بنواة ناعمة تتنزه عبر الشوارع.

في الواحدة تأتي كعكات العسل الساخنة.

في الثانية يقدم مدرب صقور كِعكاً محلّى يسبب الاختناق، وخلفها تأتي كعكات الذرة السكرية المغطسة بالقرفة بحيث لا يستطيع لسان أن ينساها.

في الثالثة يظهر بائع «الأنتيكوشوس»، القلوب المحطمة المشوية، يتبعه بائعو العسل والسكر.

في الرابعة يبيع بائع الفلفل البهارات والنار.

السمك النيء المغطّس بالكلس، يحددّ الساعة الخامسة.

في السادسة، البندق.

في السابعة فطائر المازامورا المخبوزة على شكل حرف تي على سطوح قرميدية مفتوحة.

---

[1] طعام مكسيكي معد من دقيق الذرة ومن لحم مفروم مع الفلفل الأحمر.

في الثامنة بوظة بنكهات وألوان مختلفة، هبات ريح منعشة تفتح أبواب الليل على مصاريعها.

1771: مدريد

قمة ملكية

وصلت إلى القصر أقفاص كبيرة شُحِنَتْ من صحارى بيرو البرّاقة. قرأ الملك الإسباني تقرير المسؤول الذي أرسلها: إنها المدفن الكامل لزعيم من الموتشيكا الذين هم أكثر قدماً من الآنكيين المنحدرين من الموشيكاس والتشيموس الذين يعيشون الآن في فقر مدقع وثمة قلة منهم في أوديتهم التي يسيطر عليها بعض الإسبان الجشعين.

فُتِحت الصناديق وظهر ملك عِمره ألف وسبعمائة عاماً عند قدمي تشارلز الثالث. كانٍ يمتلك أسناناً وأظافر وشعراً ما يزال سليماً ولحماً من البرشمان ملصقاً على عظامه وتتوهج ملابسه الملكية ذهباً وريشاً. كان يرافق الزائر القادم من بعيد صولجانه، إله الذرة المكلل بالنباتات وأيضا قامت بالرحلة إلى مدريد الأصص التي دفنت معه.

تأمل ملك إسبانيا مصعوقاً السيراميك الذي يحيط بزميله الميت. كان ملك الموتشيكا سيستلقي وسط المتع. كان السيراميك يجسّد زوجين من العشاق يتعانقان ويدخلان بعضهما بألف طريقة غافلين عن الخطيئة الأصلية، مستمتعين، من دون أن يعرفا أنه بسبب فعل العصيان هذا حُكِم علينا أن نعيش على الأرض.

1771: باريس

عصر التنوير

تفسخت الجدران المهيبة للكاتدرائيات والقصور في أوروبا، هجمت البورجوازية مسلحة بالآلات البخارية ومجلدات الموسوعة وبدعامات الثورة الصناعية المقتحمة التي لا يمكن إيقافها.

تبرعمت في باريس الأفكار المتحدية، التي بطيرانها فوق رؤوس العامة وضعت ختمها على القرن. رفع عصر التنوير – عصر غضب التعلم وحمى الذكاء – من قيمة العقل البشري، عقل الأقلية التي تفكر، ضد عقائد الكنيسة القطعية وامتيازات النبلاء. وحفزت الأحكام والاضطهاد والمنفى أولئك الأبناء المتعلمين للفلاسفة الإنكليز ولديكارت المبدع الذي بدأ من الشك في كل شيء.

ليس ثمة موضوع خارج البحث بالنسبة لفلاسفة التنوير من قانون الجاذبية إلى التبتل الكهنوتي. استحقت مؤسسة الاسترقاق هجومهم المتواصل. العبودية تناقض الطبيعة كما قال دونيس ديدرو (Denis Diderot) مدير الموسوعة (القاموس الموثّق للعلوم والفنون والمهن): "لا يمكن أن يكون الإنسان ملكا لسيده للسبب نفسه الذي يمنع أن يكون الطفل ملك والده أو المرأة ملك زوجها أو الخادم ملك سيده أو الرعية ملك الملك وأي شخص يفكر بشكل يتعارض مع ذلك يخلط بين الأشخاص والأشياء". وقال هلفيتيوس[1] (Helvitus): "لم يصل إلى أوروبا برميل سكرٍ ليس مصطبغاً بالدم. وقابل كانديد، شخصية فولتير، في سورينام عبدا التهمت يده مطحنة سكر وقطعت رجله لأنه حاول الهرب.

«بهذا الثمن تأكلون السكر في أوروبا».

---

[1] فيلسوف فرنسي.

إذا اعترفنا أن السود كائنات بشرية فإننا نعترف في الوقت نفسه كم هو قليل ديننا المسيحي كما قال مونتسكيو. وقال الأب رينال: "إن أي دين يبجّل العبودية يستحق المنع"، أما جانٍ جاك روسو فقد قال: "إن العبودية تجعله يشعر بالعار من كونه إنساناً".

1771: باريس

الفزيوقراطيون

قال الفزيوقراطيون[2] إن العبودية هي أكثر من جريمة، إنها خطأ اقتصادي. في العدد الأخير من صحيفة سيتزن افيميريدس قال ديوبانت دي نيمور[3] إن العبودية تديم أساليب الزراعة عتيقة الطراز وتبطئ تطور مستعمرات فرنسا في جزر الأنتيل وفي بر أمريكا. ورغم الاستبدال المستمر لقوة العمل المصروفة، فإن العبودية تعني ضياع وانخفاض رأس المال المستثمر. اقترح ديوبانت دي نيمور أن تضع الحسابات في ذهنها الخسارات الناجمة عن الموت المبكر للعبيد، وعن النيران التي يضرمها الهاربون وكلفة الحرب المتواصلة ضدهم، والتحضير السيء المرعب للمحاصيل والأدوات التي يحطمها الجهل أو الإرادة السيئة. قال إن الإرادة السيئة والكسل هما السلاحان اللذان يستخدمهما العبد ليعيد جزءاً من شخصيته التي سرقها السيد، وافتقاره للبراعة ناجم عن فقدانه المطلق لحافز تطوير ذكائه. إنها العبودية، لا الطبيعة، هي التي تصنع العبد.

إن قوة العمل الحرة هي التي تبرهن على أنها منتجة بشكل فعّال كما يقول فلاسفة المدرسة الفيزيوقراطية الاقتصاديون. ويعتقدون أن

---

[2] أتباع المذهب الفزيوقراطي، في الاقتصاد السياسي، وهو مذهب نشأ في فرنسا في القرن 18 وقال أصحابه بحرية الصناعة والتجارة وبأن الأرض هي مصدر الثروة كلها..

[3] رجل دولة فرنسي.

الملكية مقدسة لكنها فقط في إطار الحرية، تستطيع أن تنجز إنتاج القيمة بشكل كامل.

1771: باريس

يشرح وزير المستعمرات لماذا يجب ألا يُحرر الخلاسيون من حالتهم الإذلالية الفطرية

اعتقد جلالته أن فضلاً كهذا سيقضي على الاختلافات التي زرعتها الطبيعة بين البيض والسود، وأن الرأي السياسي المسبق كان حريصاً على صِيانة فجوة كهذه لن يقدر الملونون والمنحدرون منهم على ردمها، وأخيراً من مصلحة النظام الجيد ألا يضعف حالة الذِل الفطرية في النوع في أية درجة استمرت، وهو رأي مسبق مفيد جداً كون حالة الذل في قلب العبيد وتسهم بطريقة رئيسة في السلام الناتج للمستعمرات.

1772: كاب فرانسي

مستعمرة فرنسا الأغنى

أنكر الرهبان الشعائر الأخيرة لمغنية «الكاب كوميدي» السيدة مورانج التي ندبت هاييتي فقدانها في ستةِ مسارح وأكثر من ست غرف نوم. لا تستحق أية فنانة ميتة أن يُصلى من أجلها لأن المسرح مهنة سيئة مشجوبة إلى الأبد، لكن أحد الممثلين يحمل جرساً بيد وصليباً على الصدر، ويرتدي رداء أسود وشعره قصير لامع، يتقدم مغنيا المزامير باللاتينية على رأس حاشية الفنانة.

قبل أن تصل الحاشية إلى المقبرة طهّرت الشرطة الجهير الأول وشركاءه الذين تلاشوا في لحظة، لكن البشر حموهم وأخبؤوهم. من لا يشعر بالعطف على أشخاص العرض أولئك الذين يهوّون كسل هاييتي الذي لا يطاق بنسائم الجنون الثقافي؟

على مسارح هذه المستعمرة الفرنسية الأغنى، يُصفَّق لمسرحيات افتتحت لتوها في باريس، والمسارح هي مثل مسرح باريس أو على الأقل ترغب بأن تكون كذلك.

هنا يجلس الجمهور وفق لون الجلد: العاجي في الوسط والنحاسي في اليمين والأبنوسي وبعض العبيد الأحرار في اليسار.

يبحر الأغنياء في المسارح تحت رفيف المراوح، بينما الحرارة تطلق طوفانات تحت شعرهم المستعار المبودر. تشبه كلٍ امرأةٍ غنية مخزن مجوهرات؛ يصنع الذهب واللآلئ والألماس إطارا مذهلاً للأثداء الرطبة التي تقفز خارج الحرير طالبة الطاعة والرغبة.

يعيش أقوى مستعمري هاييتي محروسين من الشمس وقرني الديّوث، لا يغادرون المنزل إلا بعد الغروب حين تقلُّ قسوة الحرارة، وعندئذ يتجرؤون على إظهار أنفسهم على محفات أو عربات تجرها أحصنة عديدة، والسيدات مشهورات لأنهن ينغمسن في كثير من الحب أو كثير من الترمّل.

1772: ليوغان

زابيث

منذ أن تعلّمت السير بقيت هاربة. قيّدوا كعبيها بأغلال ثقيلة ونمت مغلولة، لكنها قفزت ألف مرة من فوق السياج وألف مرة قبضت عليها الكلاب في جبال هاييتي.

وشموا خدها بشعار ملوك فرنسا مستخدمين الحديد الحامي، وكبّلوها بياقة وأغلال حديدية وسجنوها في مطحنة السكر، حيث وضعت

أصابعها في الطاحنة، وفيما بعد قطعت الضماد بأسنانها. ولكي تموت من الحديد قيدوها ثانية وهي الآن تحتضر وتنشد اللعنات.

زابيث، هذه المرأة الحديدية، هي ملك المدام غالبو دو فور، التي تعيش في نانت.

1773: سان ماتيو هويتزيلو بوشوكو

قوة الأشياء

إن كنيسةً هذه القرية حطام يدعو إلى الأسف. قرّر الكاهن الذي وصل حديثاً من إسبانيا أن اللّه لا يستطيع أن يواصِل الحياة في منزل بائس ومحطم كهذاٍ وبدأ العمل. لكي يشيد جدراناً صلبة أمر الهنود أن يحضروا أحجاراً من الآثار القريبة التي تعود إلى زمن الأوثان.

لم يجبرهم التهديد أو العقاب على طاعة الأمر. رفض الهنود أن يحركوا الأحجار التي ما تزال تستلقي حيث عبد أجداد أجدادهم الآلهة. لم تكن تلك الأحجار تعد بأي شيء لكنها منعت النسيان.

1774: سان أندريس إتزابان

ليكن الإله معكم

أجبر الهنود على البصاق في كل مرة يذكرون فيها آلهتهم، وأن يرقصوا رقصات جديدة؛ رقصة الغزو ورقصة المغاربة والمسيحيين، التي تحتفل بغزو أميركا وإذلال الكفار.

أجبروا على تغطية أجسادهم لأن الصراع ضد الأوثانٍ هو أيضاً صراع ضد العري، العري الخطير الذي يسبب - استنادا إلى كبير

أساقفة غواتيمالا – ضرراً كبيراً في دماغ كل من يشاهده. أجبروا أن يتلوا غيباً صلاة التسبيح والسلام المريمي والصلاة الربانية.

هل أصبح هنود غواتيمالا مسيحيين؟

ليس كاهن كنيسة سان أندريس إتزابان متأكداً جداً؟ قال إنه شرح سر الثالوث المقدس من خلال طي قماشة وعرضها أمام الهنود: انظروا، إنها قماشة واحدة مطوية ثلاث طيات، بهذه الطريقة الله هو واحد في ثلاثة. قال إن هذا أقنع الهنود أن الله مصنوع من القماش.

استعرض الهنود العذراء على منصات مريّشة، كانوا يسمّونها جدة الضوء ويطلبون منها كل ليلة أن يُحْضِر الغَدُ الشمس. لكنهم يبجّلون بإخلاص أكبر الثعبان الذي تسحقه تحت قدمها. يقدمون البخور للثعبان، الإله القديم الذي يقدم محصول ذرة وافرا وصيد أيّل جيدا ويساعدهم في قتل الأعداء. ويعبدون التنين أكثر من القديس جورج ويغطونه بالأزهار. أما الأزهار الموضوعة على قدمي الفارس سانتياغو فتبجّل الحصان لا الحواريّ. يتعرفون على أنفسهم في المسيح، الذي حكم عليه بلا دليل مثلهم، لكنهم يعبدون الصليب لا كرمز لتضحيته، بل لأنه يمتلك شكل اللقاء المثمر بين المطر والتربة.

1775: سيتي غواتيمالا

أسرار مقدسة

كان الهنود لا يؤدون شعائر الفصح إلا إذا تزامنت مع أيام المطر والحصاد أو الزراعة. أصدر كبير أساقفة غواتيمالا بدور كورتيز لاراز مرسوماً جديدا يؤكد بأن النسيان يعرّض خلاص الروح للخطر.

لم يكن الهنود يجيئون إلى القداس، ولم يستجيبوا للاستدعاءات أو للجرس. كان الذين يبحثون عنهم يمتطون الأحصنة في القرى والحقول ويجرونهم بالقوة. كان يعاقب على الغياب بثماني جلدات، لكن القداس

كان يسيء إلى آلهة المايا وكان هذا يخيف أكثر من السوط. كان القداس يقاطع خمسين مرة في العام العمل في الحقول، الاحتفال اليومي بالصداقة مع الأرض. وكان الهنود يعتقدون أن مرافقة دورة موت وانبعاث الذرة خطوة خطوة طريقة للصلاة وأن الأرض، المعبد الشاسع، هي شهادتهم اليومية عن معجزة الحياة التي تعاود الولادة. بالنسبة لهم إن الأرض كلها كنيسة، وجميع الغابات معبد.

كان بعض الهنود يجيئون إلى كرسي الاعتراف ليتجنبوا عقوبة المشهّرة حيث يتعلمون الخطيئة، ويركعون أمام المذبح، ويأكلون إله الذرة عن طريق العشاء الرباني. لكنهم كانوا يحضرون أولادهم إلى نافورة بركة التعميد بعد أن يقدموهم عميقاً في الغابة للآلهة القديمة. كانوا يحتفلون أمامهم بمتع الانبعاث وكل ما يولد يولد ثانية.

1775: هويهويتينانغو

الأشجار التي تعرف وتنزف وتتحدث

دخل الراهب هويهويتينانغو وسط ضباب من البخور. ظن أن الكفار يقدمون الولاء بهذه الطريقة للإله الحقيقي، لكن الأمهات غطين أطفالهن الجدد بالملابس كي لا يمرضهم الراهب حين ينظر إليهم. ليست سحب البخور من أجل الامتنان أو الترحيب، بل من أجل الرقية. أُحرق الراتينج الصمغي والتف الدخان مرتفعاً ومتضرعاً لآلهة المايا القديمة كي توقف الطواعين التي أحضرها المسيحيون.

إن شجرة الراتينج (الكوبال) التي تنزف بخوراً هي شجرة مقدسة، مقدسة أيضا شجرة السيبة التي تصبح امرأة في الليل، ومقدسة شجرة الأرز وجميع الأشجار التي تعرف كيف تصغي لآلام البشر.

1775: كادو سابي

بوني

فتحت زخة من الرصاص الطريق للجنود الثمانمائة القادمين من هولندة. طقطقت كادو سابي، قرية العبيد الهاربين وسقطت. خلف ستار من الدخان والنار اختفت آثار الدماء عند حافة الغابة.

قرر العقيد السويسري فورجو، متطوع الحروب الأوربية، أن يخيم بين الأنقاض. صدرت بعد الغروب أصوات من الدغل وأرغم صفير الطلقات الجنود على الانبطاح.

أمضى الجنود الليل محاطين بالطلقات واللعنات وأناشيد التحدي والنصر. كان العبيد الهاربون اللامرئيون ينفجرون ضحكاً حين يعد العقيد فورجو وهو منبطح، بالحرية والطعام مقابل الاستسلام.

صرخ ألف صوت من بين الأوراق: أيها الكلب الجائع! أيها الفزّاعة!

كانت الأصوات تدعو الجنود الهولنديين العبيد البيض، وتعلن أن الزعيم بوني سيصبح حالاً سيد أرض سورينام كلها.

حين فك الغجر الحصار، اكتشف العقيد فورجو أن رجاله لم يُجرحوا بالرصاص، بل بالأحجار الصغيرة والأزرار والقطع النقدية وأن العبيد الهاربين أمضوا الليل وهم ينقلون في العربات أكياس الأرز والمنيهوت والبطاطا إلى الغابة، بينما منع وابل القذائف والكلمات الهولنديين من الحركة.

كان بوني مسؤولاً عن المناورة. لم يكن بوني، قائد العبيد الهاربين، موشوماً. هربت أمه العبدة من سرير السيد ومنحته ولادة حرة في الغابة.

1776: قلعة ساحل كاب

خيميائيو تجارة الرقيق الأفريقية

أمضى القبطان بيكليك كلارك وقتاً طويلاً وهو يقايض على ساحل أفريقيا حتى أنتنت السفينة. أمر بحارته أن يخرجوا العبيد الذين اشتراهم إلى سطح السفينة كي يستحموا، لكن لم تكد تُزال أغلالهم حتى قفزوا في البحر وسبحوا باتجاه أرضهم ليلتهمهم التيار.

طعن فقدان البضاعة شرف القبطان كلارك، الراعي القديم لهذه القطعان، وهيبة تجار الرقيق في جزيرة رود.

تباهت المسافن الأميركية الشمالية ببناء أكثر السفن أماناً من أجل تجارة غينيا، بُنيت سجونها العائمة بشكل فعال حيث حصل تمرد واحد للعبيد في أربع سنوات ونصف، وهو معدّل أصغر بأربع مرات من المعدل الفرنسي، ويصل إلى نصف ما يمكن أن تتباهى به مشاريع إنكلترة المتخصصة.

امتلكت المستعمرات الثلاث عشرة، التي ستصبح الولايات المتحدة، كثيراً من الأشياء التي تشكر عليها تجار رقيقها. لقد تحول شراب الروم، الدواء الجيد للروح والجسد، إلى عبيد على الساحل الأفريقي، ثم أصبح أولئك السود دبس سكر في جزيرتي جامايكا وباربادوس الأنتيليتين. من هناك يتجه دبس السكر شمالاً لتحوّله آلات التقطير في ماسّاتشوسيتس إلى روم، وبعد ذلك يعبر الروم المحيط ثانية إلى أفريقيا. كانت كل رحلة تتوّج بمبيعات التبغ والأدوات الحديدية وألواح الخشب والطحين واللحم المقدد وبشراء البهارات في الجزر. تذهب بقايا السود إلى مستعمرات ساوث كارولاينا وجورجيا وفيرجينيا.

هكذا تدر تجارة الرقيق الأرباح للبحارة والتجار والمرابين ومالكي المسافن وآلات التقطير والمناشر ومصانع تقديد اللحوم ومطاحن الطحين والمستعمرات وشركات التأمين.

1776: بنسلفانيا

بين

عنوانه هو الفطرة السليمة. نُشر الكرّاس باكراً هذا العام وانتشر في المستعمرات الأميركية الشمالية كالماء أو الخبز. قال المؤلف الإنكليزي توم بين الذي جاء إلى هذه الأراضي منذ عامين من أجل إعلان الاستقلال دون لغط: "إن حكومة خاصة بنا حق طبيعي لنا، فلماذا نتردد؟"

قال بين: "ثمة شيء سخيف جداً في تأسيس نظام ملكي. رأى بين أن الحكومة هي في أفضل الحالات شر لا بد منه، وهي في أسوأها شر لا يُطاق، أما الملكية فهي أسوأ الحالات. قال إن رجلا واحداً شريفاً هو أكثر قيمة من جميع الوحوش المتوجين الذين سبق أن وجدوا. وسمّى جورج الثالث الوحش الملكي لبريطانيا العظمى.

قال إن الحرية تُصطاد بشكل وحشي في جميع أنحاء العالم. تُعد الحرية في أوروبا أجنبية، وطردتها آسيا وأفريقيا منذ وقت طويل، وحذرها الإنكليز طالبين منها الخروج. حثّ بين المستعمرين الأميركان أن يحوّلوا هذه التربة إلى ملاذ للأحرار: "آهٍ! استقبلوا اللاجئين وجهّزوا مع مرور الوقت ملجأ للبشرية".

1776: فيلادلفيا

الولايات المتحدة

لم تعر إنكلترة أبداً انتباهاً كبيراً إلى مستعمراتها الثلاثٍ عشرة الواقعةٍ على الساحل الأطلسيٍ لأميركا الشمالية. لم تحتو ذهباً، فضةً أو سكراً. ولم تكن أساسية أبداً بالنسبة لها، ولم تمنعها إنكلترة أبداً

من النمو. سارت وحيدة وهكذا كان الأمر منذ ذلك الزمن القديم حين خطا الحجاج لأول مرة على الأراضي الحجرية التي سموها نيوانجلند، وكانت التربة صلبة إلى درجة أنه توجب عليهم أن يزرعوا البذار من خلال إطلاق النار أو هكذا قيل. أما الآن يجب على المستعمرات الإنكليزية الثلاث عشرة التي تطورت جيداً أن تهرب.

الولايات الثلاث عشرة جائعة للغرب. حلم كثير من الرواد بالانطلاق إلى الجبال ببندقية وفأس وحفنة من الذرة لكن، التاج البريطاني رسم الحدود على قمم جبال أبلاش وحفظ الأرض التي وراءها للهنود. لكن المستعمرات الثلاث عشرة جائعة للعالم. كانت سفنها تجوب جميع المحيطات لكن التاج البريطاني أجبرها على شراء ما يريدها أن تشتريه، وأن تبيع حين يأمرها أن تبيع.

حطمت المستعمرات القيود بهزّة واحدة ورفضت أن تواصل دفْع الطاعة والنقود إلى ملك جزيرة بعيدة. رفعت علمها الخاص، وقررت أن تسمي نفسها الولايات المتحدة الأميركية، وأن ترفض الشاي وتعلن أن الروم، المنتج القومي، مشروب وطني.

قال إعلان الاستقلال: "خُلِقَ جميع البشر مُتَسَاوين، لٍكن العبيد السود الذين يبلغ عددهم نصف مليون لم يسمعوا بهذا أبداً".

1776: مونتيسيلو

جيفرسون

كان كاتب إعلان الاستقلال، وثيقة ولادة الولايات المتحدة، رجلاً يمتلك ألف موهبة واهتمام.

كان قارئ مقاييس درجة الحرارة ومقاييس الضغط الجوي والكتب الذي لا يكلّ، يبحث ويجد، كان يطارد وٍحي الطبيعة ويكتب ليعانق أبعاد الفكر البشري. جمع مكتبة خرافية وكونا من الأحجار والمستحاثات والنباتات،

وعرف كل ما يمكن أن يعرف عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ونحْو اللاتينية وقواعد اللغة اليونانية وتنظيم المجتمع طوال التاريخ. عرف كل شيء عن أرضه فيرجينيا، ابنَ وجَدَّ كل عائلة، كل ورقة عشب، واطلع على جميع الإبداعات التقنية في العالم. استمتع في تجريب الآلات البخارية وأنماط المحاريث الجديدة وأساليب أصيلة لإنتاج الزبدة والجبنة. تخيَّل منزله في مونتيسيلو وصممه وبناه من دون أي خطأ.

كان البيوريتان (التطهريون) يحصون السكان بـ«الأرواح»، لكن جيفرسون أحصاهم بـ«أفراد النوع البشري». إن السود متساوون تقريبا داخل النوع، يمتلكون ذاكرات جيدة يفتقرون للخيال ولا يستطيع ذكاؤهم الفقير أن يفهم إقليدس أبداً. بشّر أرستقراطي فيرجينيا، جيفرسون، بالديمقراطية، ديمقراطية المالكين، وحرية الفكر والدين لكنه دافع عن تراتبية الجنس واللون. لم تدخل في خططه التربوية النساء أو الهنود أو السود. شجب جيفرسون الرق وكان وبقيَ مالكاً للعبيد. كانت النساء الخلاسيات تجذبنه أكثر من النساء البيض، لكن فقدان النقاء العرقي كان يرعبه واعتقد أن تمازج الدماء هو أسوأ الإغراءات التي تزعج المستعمرين البيض.

1777: باريس

فرانكلين

وصل أشهر الأميركيين الشماليين إلى فرنسا في مهمة يائسة. جاء بنجامين فرانكلين يطلب المساعدة ضد القوات الإنكليزية المستعمرة التي احتلت فيلادلفيا ومعاقل وطنية أخرى. مستخدما كل ثقل هيبته الشخصية، اقترح السفير أن يضرم نار المجد وينتقم بصدور فرنسية.

ما من ملك أو إنسان عادي لم يسمع بفرانكلين منذ أن أطلق طائرة ورقية في الهواء واكتشف أن البروق السماوية والرعود لا تعبّر عن غضب الله بل عن الكهرباء في الجو. انبثقت اكتشافاته العلمية من الحياة

اليومية. إنِ الأكثر تعقيداً يكمن في الأكثر بساطة؛ الفجر ونماذجه التي لا تتكرر أبدا، الزيت الذي يُصَبُّ على الماء ويهدئ أمواجه، الذبابة التي إذا أغرقت في الخمرة تعاود الحياة في ضوء الشمس. وبعد أن لاحظ أن الجسد يبقى طرياً في أيام الحرارة الخانقة، تصوّر فرانكلين نظاماً لإنتاج البرد من خلال التبّخر. اخترع أيضاً وصنع مدافئ وساعات وآلات موسيقية مثل الهارمونيكا الزجاجية التي ألهمت موزارت. وبما أن الاستبدال المستمر للنظارة، من أجل القراءة، أضجره مثل الرؤية البعيدة، قطع عدسات وأطرها مبتكرا النظارة ثنائية البؤرة.

لكن فرانكلين أصبح أكثر شهرة حين لاحظ أن الكهرباء تنشد نقاطاً حادة، وهزم الصاعقة واضعا قضيبا حديدياً مدبباً على قمة برج. ولأن فرانكلين كان ناطقاً باسم المتمردين الأميركيين أصدر ملك بريطانيا مرسوماً يفيد أن القضبان الإنكليزية المانعة للصواعق يجب أن تمتلك رؤوسا مدوّرة.

لو أنه وُلد امرأة

من بين أشقاء وشقيقات بنجامين فرانكلين الستة عشر، كانت جين تشبهه أكثر في الموهبة وقوة الإرادة.

ولكن في السن التي غادر فيها بنجامين المنزل ليشق طريقه الخاص، تزوجت جين سرّاجا فقيرا قبلها من دون مَهْر وأنجبت بعد عشرة أشهر ولدها الأول. منذ ذلك الوقت فصاعدا وطوال ربع قرن، كانت جين تنجب طفلاً كل عامين. توفيّ بعض الأطفال وكانت كل وفاة تحدث جرحاً في صدرها. الذين عاشوا احتاجوا الغذاء والمأوى، التعليم والعزاء. أمضت جين ليالي بأكملها تهدهد أولئك الأطفال الذين كانوا يبكون وتغسل أكواما من الصحون وتدرس الأبجدية وتقوم بالأعمال الروتينية وتكدح إلى جانب زوجها في شغله وتخدم ضيوفا يساعد الأجر الذي يدفعونه على ملء إناء الحساء. كانت جين زوجة

مخلصة وأرملة نموذجية، وحين كبر الأطفال تولت مسؤولية الاعتناء بوالديها المريضين وببناتها غير المتزوجات وبأحفادها الميتّمين.

لم تعرف جين أبداً متعة السباحة في بحيرة، مندفعة فوق السطح ممسكة بخيط طائرةٍ ورقية، كما كان بنجامين يفعل رغم تقدمه في السن. لم تمتلك جين أبدا وقتا للتفكير ولم تسمح لنفسها بالشك. ظل بنجامين عاشقاً متلهفا لكن جين لم تعرف أن الجنس ينتج أي شيء غير الأولاد.

إن بنجامين الذي أسس أمة من المخترعين، عظيم في جميع العصور، أما جين فهي امرأةٍ عصرها مثل معظم نساء جميع العصور. قامت بواجبها على هذه الأرض وكفرت عن حصتها من اللوم في اللعنةٍ الإنجيلية. فعلت ما بوسعها لتحمي نفسها من الجنون ونشدت عبثاً، قليلا من الصمت.

لن توقظ حالتها أي اهتمام لدى المؤرخين.

1778: فيلادلفيا

واشنطن

كان الأول بين الجنود هو أيضاً الأكثر هيبة بين المزارعين وأسرع الخياليين وأبرع الرماة بين الصيادين. لم يساعد أحدا ولم يسمح لأحد أن ينظر في عينيه ولم يُسَمِّه أحد جورج. لم تخرج من فمه مرثيات أو شكاوى، وكان دائما مثال رباطة الجأش والجسارة رغم معاناته من القروح وآلام الأسنان والحمّى.

انتزع جيش جورج واشنطن مدينة فيلادلفيا من البريطانيين بمساعدة رجال وأسلحة من فرنسا. أصبحت الحرب من أجل استقلال الولايات المتحدة بين المعاطف السود والمعاطف الحمر طويلة ومؤلمة.

1780: بولونا

كالفيخيرو يدافع عن الأراضي الملعونة

ألف فرانسيسكو خافيير كالفيخيرو، أحد اليسوعيين الذين طردوا من أمريكا، كتابه "التاريخ القديم للمكسيك في إيطاليا". روى الكاهن في أربعة مجلدات حياة الشعب والأبطال، محددا فجر الوعي التاريخي والقومي في السكان الأصليين الذين بدأوا يسمون إسبانيا الجديدة المكسيك، ولفظوا سابقا كلمة مسقط الرأس بكبرياء. أخذ الكتاب على عاتقه الدفاع عن أمريكا التي كانت تتعرض لهجوم باريس وبرلين وأدنبرة كثيرا في تلك السنوات؛ إذا كانت أمريكا لا تمتلك حنطة فإن أوروبا أيضا لا تمتلك ذرة... إذا كانت أمريكا لا تمتلك رمّانا أو ليمونا فإنها تمتلك الآن، لكن أوروبا لم تمتلك أبدا ولا تمتلك ولا تستطيع أن تمتلك الشيريمويا والأفوكاتو والموز والشيكوذابوتيس.

هاجم كالفيخيرو ببراءة وعاطفة معدّي الموسوعات الذين يصفون العالم الجديد بأنه متجر الأشياء المقيتة. قال الكونت بوفون[1] إن السماوات في أميركا شحيحة والأمطار تفسد التربة والأسود صلعاء وصغيرة وجبانة والتابير فيل له جيب صدري والخيول والخنازير والكلاب تصبح هناك مسوخا والهنود الباردون كالأفاعي لا يمتلكون أرواحا ولا حرارة للإناث. تحدّث فولتير أيضا عن أسود وبشر بلا شعر وقال البارون مونتسكيو إن البلدان الدافئة تنتج شعوبا تستحق الازدراء. وقد أهين الأب غيوم رينال لأن سلاسل الجبال في أميركا تمتد من الشمال إلى الجنوب بدل أن تمتد من الشرق إلى الغرب كما يتوجب. وصوّر زميله البروسي كورني دابو الهنود الأميركيين كوحش مترهل وضيع. ورأى دابو أن المناخ هناك يجعل الحيوانات مريضة ودون أذيال والنساء دميمات لا يميزن عن الرجال وليس للسكر طعم ولا نكهة للقهوة.

---

[1] كاتب وعالم طبيعي فرنسي.

1780: سانغارارا

أميركا تشتعل من الجبال إلى البحر

مرّ قرنان منذ أن شقّت شفرة الجلاّد عنق توباك آمارو، آخر ملوك الآنكا، في ساحة مايور في كوزكو. اكتملت الأسطورة التي ولدت من موته وانتشرت النبوءة: يعود الرأس إلى الجسد ويهاجم توباك آمارو الذي ولد من جديد.

دخل خوسيه غابرييل كوندوركانكوي، توباك آمارو الثاني إلى قرية سانغارارا على إيقاع موسيقى أصداف بحرية عملاقة، ليخلص الحكومة السيئة من دبابير كثيرة، من اللصوص الذين يسرقون العسل من أقراصنا. احتشد خلف حصانه الأبيض جيش يائس، وقاتل هؤلاءِ الجنود العراة بالمقاليع والعصي والسكاكين. كان معظمهم هنوداً سفحوا حياتهم في قيء دموي في أعماق بوتوسي أو أحرقوا أنفسهم في المشاغل والمزارع.

وسط رعد الطبول وسُحُب الرايات توّج خمسون ألف رجلاً السلاسل الجبلية: توباك آمارو، محرّر الهنود والسود، السوط المسلط على الذين وضعونا في حالة احتضار يتقدم ويدمر. أذاع رسلٌ مسرعون تمرّد الجماعات من أودية كوزكو إلى سواحل آريكا وحدود توكيومان لأن الذين يسقطون في هذه الحرب متأكدون من الانبعاث فيما بعد.

انضمَّ مُهجنّون كثيرون إلى التمرد وبعض الكريوليّين أيضاً، ذوي الدم الأوروبي الذين ولدوا في أمريكا.

1780: تونغاسوكا

توباك آمارو الثاني

رفع أنطونيو أبلتياس، عبد الحاكم أرياغا حبلاً قوياً، حبْل جلاد، حبْل بغل في ساحة بلدة تونغاسوكا وطول أسبوع هدهدت الريح جسد أرياغا زعيم الهنود، مالك العبيد ومالك أنطونيو.

اليد التي ترسم هي اليد التي شنقت. كان أنطونيو أبليتاس يرسم صورة الرجل الذي أمر بتحرير جميع العبيد في البيرو. ولأنه لا يوجد منصب، أسند اللوح على بعضٍ أكياس الذرة. كانت فرشاة أنطونيو شانق سيده والذي لم يعد عبدا تجيء وتروح على الخشب الخشن خالقة اللون. كان توباك آمارو يأخذ وضعية على حصان في العراء. لم يكن يرتدي سترته المخملية المعتادة أو قبعته ذات الزوايا الثلاث. كان وارث أباطرة الآنكا يرتدي الشارات الملكية لابن الشمس. وكمثل أسلافه توضّعت على رأسه العمرة الريشية والتاج الثلاثي وشرابة متدلية وعلى صدره شمس ذهبية ويحمل بإحدى قبضتيه صولجان السلطة الذي يتألق بالريش. ظهرت حول الفارس الثابت مشاهد النصر الأخير على القوات المستعمرة. قفز من يد أنطونيو جنود صغار وسحب دخان، هنود في حالة حرب وألسنة لهب تلتهم كنيسة سانغارارا وأسرى يهربون من السجن.

ولدت اللوحة بين معركتين في أثناء الهدنة. كان توباك وحصانه يأخذان وضعية لبعض الوقت وكانا ثابتين كالحجر حتى إن أنطونيو تساءل إن كانا يتنفسان. انتشرت ألوان متألقة على اللوح ببطء شديد وانغمس الرسام في لحظة الهدنة الطويلة تلك. وهكذا نجا الفنان وموديله من الزمن، يدرآن، بينما يستمر العمل، الهزيمة والموت.

1780: بوماكانشي

المشغل سفينة ضخمة

أبحرت فوق الأراضي الأميركية سفينة شراعية لم تتوقف أبداً عن التقدم يحركها ليلا ونهارا هنود يجذفون نحو ميناء لن يصلوا إليه أبدا. كان الهنود يجذفون ويجذفون نحو الساحل الذي كان يتراجع وكان السوط يوقظهم حين يغلبهم النعاس.

كان الرجال والنساء، الأطفال والعجائز يغزلون وينسجون ويحضّرون القطن والصوف في المشاغل. وعدت القوانين بالساعات والأجور لكن الهنود المرميين في أحياء أو سجون العبيد الكبيرة تلك، يغادرونها حين تحين ساعة دفنهم.

كان توباك آمارو يخرج في جنوب كوزكو ويحرر العبيد المقيدين إلى الأنوال. حرمت رياح التمرد الكبير نوّاب الملوك في ليما وبوينس آيرس وبوغوتا من النوم.

قصيدة استعمارية

إذا انتصر الهنود

سيجعلوننا نكدح

كما يكدحون الآن.

وكما نسرقهم الآن

سيسرقوننا

سنفقد المزارع والمنازل والامتيازات

ويصبح الجميع لا أحداً

سنصبح ملكاً لهنود أحرار
وسيركبون علينا

1781: بوغوتا

العوام

ارتجف كبير أساقفة بوغوتا من الغضب وأنَّ جلد كرسيه. قبضت يداه الجميلتان المزينتان بالياقوت والزمرد على عباءته الأرجوانية. لعن الدون أنطونيو كاباليروي غونغورا الأكثر تبجيلا وفمه ملآن رغم أنه لم يكن يأكل، ذلك أن لسانه بدين مثله.

جاءت أنباء فظيعة من بلدة سوكورو تفيد أن العوام الذين بلا مرتبة انتفضوا ضد الضرائب الجديدة، وعيّنوا كرييوليين أغنياء كضباط. صفعت الضرائب الأغنياء والفقراء وعاقبت كل شيء من شمعات الشحم الحيواني إلى العسل دون أن تستثني حتى الريح؛ دعيت الضريبة التي فرضت على تجار الترانزيت ضريبة مبيعات الرياح.

ذلك التمرد الذي شاهده نائب الملك في بوغوتا حدث في سوروكو مدينة الصخور. نشب في أحد أيام السوق في الساحة. انتزعت المرأة السوقية مانويلا بيلتران المرسوم عن أبواب قصر المدينة، مزقته وداست عليه وبعد ذلك انقض البشر على المستودعات وأحرقوا السجن، وتقدم آلاف العوام المسلحين بالعصي والمعازق نحو بوغوتا وهم يقرعون الطبول.

انهارت الأسلحة الإسبانية في المعركة الأولى. قرر كبير الأساقفة الذي يتمتع بسلطة أكبر من سلطة نائب الملك أن يخرج، وقابل العصاة. ولكي يخدعهم بالوعود تقدّم على رأس لجنة محكمة مفوّضة، إبان ذلك، حدّق فيه بغله مذعورا.

1781: تامارا

سكان السهول

من السهول الواقعة في شرق الآنديز جاء ألف وخمسمائة هندي ركضاً وهم يهتفون باسم توباك آمارو. كان الهدف انضمام سلسلة الجبال إلى مد العوام المتقدمين إلى بوغوتا. هرب حاكم السهول منقذاً عنقه.

كان أولئك المتمردون هنود سافانا الأنهار التي تصب في نهر أرينوكو. وقد افتتحوا أسواقهم مرة على ضفتي نهر أرينوكو حيث تُودع السلاحف بيوضها. اجتمعوا هناك منذ أزمنة غابرة مع هنود غويانا والأمازون وتبادلوا الملح والذهب وآنية الفخار والسلاسل والشباك والسمك المجفف وزيت السلاحف وسم السهام والصبغة الحمراء التي تحمي الجسد العاري من البعوض. كانت أصداف السلاحف هي النقد المتداول إلى أن وصل الأوربيون متلهفين للعبيد وقدموا الفؤوس والمقصات والمرايا والبراندي مقابل البشر. وعندئذ بدأ الهنود يستعبدون أنفسهم ويبيعون أخوتهم وكان من يصطاد هدفاً للصيد أيضاً ومات كثيرون من الحصباء والجدري.

1781: زيباكيرا

غالان

وقعت معاهدة سلام في قرية زيباكيرا أملاها كبير الأساقفة وأقسم عليها بالأناجيل وكرّسها بقداس مهيب.

بررت الاتفاقية التمردات وحالاً ستتحول قطعة الورق هذه إلى رماد. وكان الضباط الكريبيوليون الأغنياء يعرفونها جيداً لكنهم

يحتاجون أيضاً أن يصدوا بالسرعة الممكنة العاصفة المذهلة، الفوضى التامة للعوام التي تنمو باستمرار وتعتم سماوات بوغوتا وتهدد الأميركيين الأثرياء بقدر ما تهدد التاج الإسباني.

رفض أحد ضباط التمرد أن يقع في المصيدة. واصل خوسيه أنطونيو غالان الذي تلقى معموديته النارية في حصن قرطاجنة الخلاسي، الصراع. تقدم من بلدة إلى أخرى، من مزرعة إلى أخرى محرراً العبيد، ملغيا الجزية وموزعاً الأراضي. أعلنت رايته وحدة المظلومين ضد الظالمين. سماه الأصدقاء والأعداء: توباك آمارو الآن وهنا.

أنشودة شعبية للعوام

ليتوقف قرع الطبول.

وأنتم أصغوا إلي

لأن هذه هي الأنشودة الحقيقية

وصوت الإنسان العادي:

سُحِبَتْ العنزة نحو التلال

والتلال نحو السماء

والسماء نحو مكان مجهول

لا أعرفه الآن

الأغنياء يضغطون على الفقراء

والهندي الذي لا يساوي سوى القليل

يشدّه كل من الأغنياء والفقراء

حتى يتمزق من المنتصف تماماً.

1781: كوزكو

مركز الأرض
منزل الآلهة

كوزكو، المدينة المقدسة، تريد أن تكون نفسها ثانية. الأحجار السوداء التي تعود إلى أزمنة قديمة والتي تضم نفسها في عناق عشقي، الأحجار التي انتصرت على عنف الأرض والإنسان، تريد أن تتحرر من الكنائس والقصور التي تسحقها.

حدّقت ميكايلا باستيداس نحو كوزكو وعضّت شفتيها. كانت زوجة توباك آمارو تنظر إلى مركز الأرض، إلى البقعة التي اختارتها الآلهة من قمة هضبة. هناك حيث كان لون الطين والدخان قريباً بحيث يستطيع أن يلمسه المرء، تنتظر عاصمة الآنكيين.

ألحّت ميكايلا ألف مرة عبثاً: لن يهاجم الآنكا الجديد. رفض توباك آمارو، ابن الشمس، أن يقتل الهنود. توباك آمارو، رمز مؤسس الحياة، وعد العصيان الحي، لا يستطيع أن يقتل الهنود الذين يدافعون عن هذا البرج الإسباني بقيادة الزعيم بوماكاهوا.

ألحت ميكايلا ألف مرة لكن توباك بقي صامتاً. كانت تعرف أن مأساة ستحدث في «ساحة الدموع». وكانت تعرف أنها ستتابع إلى النهاية مهما حدث.

1781: كوزكو

الغبار والأسى هما طريقا «البيرو»

مثقبين بالرصاص، بعضهم جلوس والبعض الآخر منبطحون على وجوههم، كانوا ما يزالون يدافعون عن أنفسهم ويقذفوننا بأحجار كثيرة أثارت جنوننا. أصبحت منحدرات الجبال مثلمة القمم محفة جثث، كان المنتصرون يلتقطون بنادق من هنا وهناك بين الموتى والرماح والرايات المحطمة.

لم يدخل توباك آمارو المدينة المقدسة كفاتح يرأس قواته العاصفة. دخل كوزكو على ظهر بغل مثقلاً بالسلاسل التي تتجرجر على أحجار الرصيف. دخل إلى السجن بين صفين من الجنود بينما كانت أجراس الكنيسة ترن بجنون.

هرب توباك آمارو سابحاً عبر نهر كومباباتا وباغته كمين في بلدة لانغوي بعد أن باعه أحد ضباطه فرانسيسكو سانتا كروز الذي كان أيضا صديقه.

لم يبحث الخائن عن حبل ليشنق نفسه بل قبض ألفي بيزوس ولُقِّبَ نبيلاً.

1781: كوزكو

طقس شعائري في غرفة التعذيب

مقيداً إلى المخلعة، استلقى توباك آمارو عارياً ومدمى. غرفة التعذيب في سجن كوزكو كئيبة ومنخفضة السقف. ينحدر شعاع ضوء على الزعيم المتمرد، إنه ضوء عنيف مؤذ. يرتدي خوسيه أنطونيو دي أريتشي شعرا

مستعاراً ملتفاً وبزة عسكرية. أريتشي؛ ممثل ملك إسبانيا، الجنرال القائد للجيش والقاضي الأعلى يجلس إلى جانب ذراع التدوير.

حين يدوّره، تشنّج دورة أخرى للحبل ذراعي وساقي توباك آمارو ويُسمع أنين مكتوم.

أريتشي: آه يا ملك الملوك، أيها الملك الصغير الذي بيعَ بثمن تافه! الدون خوسيه الأول، العميل الذي يقبض من التاج البريطاني نقوداً مرتبطة بالطموح إلى السلطة... من الذي يجب أن تفاجئه الخطبة؟ إن المسألة واضحة؛ أسلحة بريطانية، نقود بريطانية.. لماذا لا تنكر ذلك آه..؟ أيها الشيطان المسكين! (ينهض ويضرب رأس توباك آمارو).. لقد أعماك اللوثريون المهرطقون ووضعوا حجاباً أسود على دماغك.. أيها الشيطان المسكين. خوسيه غابرييل توباك آمارو، السيد المطلق والطبيعي لهذه الأراضي... الدون خوسيه الأول، ملك العالم الجديد! (يفتح ورقة مطوية ويقرأ بصوت مرتفع): «الدون خوسيه الأول بمشيئة الإله، الآنكا، ملك البيرو، سانتا في، كيتو، تشيلي، بوينس آيرس وقارات البحار الجنوبية، دوق من أعلى الدرجات، لورد القياصرة والأمازونيين، صاحب السيادة في بيتيتي العظيمة، مفوض يمتلك رحمة إلهية». (يلتفت فجأة إلى توباك آمارو) انكر ذلك! عثرنا على هذا الإعلان في جيوبك... وعدت أن تمنح الحرية. علمك الهراطقة فنون التهريب الشريرة، مكتسياً براية الحرية سببت أقسى حالات الطغيان. (يسير حول الشكل المقيد إلى المخلعة). قلت: "يعاملوننا كالكلاب". قلت: "يسلخون جلودنا أحياء". لكن هل حدث ودفعت الجزية أنت ورفاقك؟ استمتعت بامتياز استخدام الأسلحة والخروج على صهوة الحصان. عوملت دائماً كمسيحي يتمتع بنسب دمه نقي، منَحْناك حياة رجل أبيض وبشّرت بالحقد العنصري. نحن، إسبانك المكروهين، علمناك أن تنطق، وماذا قلت؟ ثورة! علمناك الكتابة، فماذا كتبت؟ الحرب! (يجلس، يدير ظهره لتوباك آمارو ويضع ساقاً فوق أخرى). لقد دمرت البيرو ارتكبت الجرائم، أحرقتَ المباني، سرقت وانتهكت المقدسات... لقد جئت بالجحيم أنت وزبانيتك الإرهابيون إلى هذه المناطق. أليس كذلك؟ إذن الإسبان يجعلون الهنود يلعقون الأوساخ، أليس كذلك؟ لقد سبق

ومنعت المبيعات بالقوة وفتحت المشاغل ودفعت أجوراً عادلة. قمعت ضريبة العشر والتعريفات... فلماذا واصلت الحرب؟ ما دامت المعاملة الجيدة قد حُققت. لقد سببت آلاف الميتات أيها الإمبراطور المزيف وكثيراً من الآلام على الأراضي المغزوة! (ينهض وينحني فوق توباك آمارو الذي لا يفتح عينيه). إذاً مخطط العمل جريمة ومن كل مائة هندي يذهبون إلى المناجم يعود عشرون؟ لقد أمرت بإنهاء العمل الإجباري، وعلى أية حال، أليس أسلافك هم الذين ابتكروا مخطط العمل المحتقر؟ ملوك الآنكا... لم يعامل أحد الهنود أسوأ من معاملتهم... إنك تجدّف ضد الدم الأوروبي الذي يجري في عروقك يا خوسيه غابرييل كوندوركانكوي نوغيرا. (يتوقف ثم يتحدث وهو يدور حول جسم الضحية)... إن الحكم عليك جاهز؛ أعددته وكتبته ووقعته. (تقطع يده الهواء فوق فم توباك آمارو). سيقذفونك إلى المنصة وسيقطع الجلاد لسانك، سيقيدونك إلى أربعة خيول من يديك وقدميك. ستُقطع (يمرر يده فوق الجذع العاري). سيرمون جذعك في النار في جبل بيكهو وسيذرون رمادك في الجو، (يلمس الوجه). سيعلق رأسك على المشنقة ثلاثة أيام في بلدة تينتا وبعد ذلك سيدق بالمسامير على عمود عند بوابة البلدة بتاج من إحدى عشرة علاقة حديدية لتعبر عن ألقابك الأحد عشر كإمبراطور. (يضرب ذراعي توباك). سنرسل ذراعاً إلى تونغاسوكا وسيُعرض الآخر في عاصمة كارابايا (وساقاه). سترسل ساق إلى بلدة ليفيتاكا، والأخرى إلى سانتا روزادي لامبا. أما المنازل التي عشت فيها فستُمحى. سنرش أراضيك ملحاً، ستطارد السمعة السيئة سلالتك في جميع العصور. (يشعل شمعة ويحملها فوق وجه توباك آمارو). ما تزال تمتلك وقتاً، أخبرني: من يواصل التمرد الذي بدأته؟ من هم شركاؤك؟ (يتملق). ما تزال تملك وقتاً، أعرض عليك المشنقة. تمتلك وقتاً لكي تتجنب الكثير من الإذلال والمعاناة. أعطني أسماء، أخبرني، (يخفض أذنه). أنت جلاد نفسك أيها السفاح الهندي! (يجعل نبرته عذبة مرة أخرى). سنقطع لسان ابنك هيبوليتو، سنقطع لسان ميكايلا، امرأتك ونخنقها بالطوق الحديدي... حسناً! لا تتب، لكن أنقذها، أنقذ زوجتك من موت مهين. (يقترب وينتظر). لا يعلم سوى الله الجرائم التي ستحملها معك. (يدير بعنف ذراع تدوير آلة التعذيب وتصدر صرخة مرعبة).

لن يفيدك الصمت في شيء أمام محكمة صاحب السيادة العليا أيها الهندي المغرور! (بشكل يثير الشفقة). آه! يحزنني أن تختار روحٌ الذهاب هكذا إلى العذاب الأبدي... (غاضباً) للمرة الأخيرة! من هم شركاؤك؟

توباك آمارو: (رافعاً رأسه بجهد هائل، يفتح عينيه ويتحدث أخيرا). "هنا لا شركاء سوى أنا وأنت؛ أنت كظالم، أنا كمحرر، وكلانا يستحق الموت".

1781: كوزكو

أمر أريتشي ضد ملابس الأنكا
الهنود يتحدثون الإسبانية

يمنع الهنود من ارتداء ملابس الطبقة العليا وخاصة ملابس النبلاء، التي تذكرهم بما كان يرتديه الآنكيون القدماء وتستحضر ذكريات تزيد من كراهيتهم للأمة الحاكمة، هذا بغض النظر عن كونها سخيفة ولا تتماشى مع نقاء ديننا بما أنها تبرز في أمكنة مختلفة الشمس التي كانت إلاههم الأول. يُفرضُ هذا الأمر على جميع أقاليم أميركا الجنوبية إلغاءً كلياً لهذه الملابس ولجميع لوحات وصور الآنكيين.

يجب أن يتخلّص هؤلاء الهنود من كراهيتهم للإسبان ويرتدوا ملابس يحددها القانون ويتبنوا عاداتنا الإسبانية ويتحدثوا اللغة القشتالية وستُشَجّع المدارس أكثر من قبل وستُفرض عقوبات قاسية وعادلة على الذين لا يستخدمونها فترة كافية لتنويرهم...

1781: كوزكو

ميكايلا

في هذه الحرب التي جعلت الأرض تئن من آلام الولادة لم تحظ ميكايلا باستيداس بالراحة أو الاستقرار. هذه المرأة التي تملك عنق طائر سافرت باستمرار من إقليم إلى آخر جامعة مزيداً من البشر، مرسلة مقاتلين جدداً إلى الجبهة وبعض البنادق والمنظار الذي طلبه أحدهم وأوراق الكوكا وقرون ذرة ناضجة. عدتْ الخيول دون توقف غدواً ورواحاً عبر الجبال حاملة أوامرها، جوازات المرور، التقارير والرسائل. أرسلت رسائل عديدة إلى توباك آمارو تحثّه أن ينقض بقواته على كوزكو قبل أن يدعّم الإسبان دفاعاتهم ويضعفوا ويبددوا المتمردين. كتبت فيها: تشيبي، تشيبي، عزيزي: تكفي تحذيراتي لك.

مجرورة بذيل حصان، دخلتْ ميكايلا ساحة كوزكو الرئيسة التي سماها الهنود ساحة الدموع داخل كيس جلدي كالذي تُجْلب فيه المتّة من الباراغواي. كانت الأحصنة تجر أيضاً إلى المشنقة توباك آمارو وهيبوليتو ابنهما. وكان ابن آخر يُدعى فرناندو يشاهد.

1781: كوزكو

مطر مقدس

يريد الفتى أن يشيح بصره لكن الجنود يجبرونه على النظر. يشاهد فرناندو كيف يقطع الجلاد لسان شقيقه هيبوليتو ويدفعه على سلم المنصة. يشنق الجلاد اثنين من أعمام فرناندو، ثم العبد أنطونيو أبليتاس الذي رسم صورة توباك آمارو، وبعد ذلك يقطعه بالفأس إلى أشلاء وفرناندو يشاهد. مغلول اليدين والقدمين، بين جنديين يجبرانه

على النظر، يشاهد فرناندو الجلاد يضع المخنق الحديدي حول عنق توماسا كونديميتا زعيمة الآكوس التي وجهت كتيبتها النسائية ضربات موجعة للجيش الإسباني. ثم تصعد ميكايلا باستيداس إلى المنصة ويضعف بصر فرناندو، تغيم عيناه حين يصل الجلاد إلى لسان ميكايلا، وتغطي ستارة من الدموع عيني الفتى حين يجلسون أمه لينهوا التعذيب؛ لا يخنق الطوق الحديدي تماما عنقها الرائعة، وكان من الضروري تثبيت أنشوطات حول عنقها وشدّها من جهات مختلفة وقتلها برفسات على البطن والصدر.

فرناندو، الذي ولدته ميكايلا منذ تسعة أعوام، لا يرى الآن ولا يسمع شيئاً. لا يرى أنهم يحضرون والده توباك آمارو ويقيدونه إلى أحزمة أربعة خيول من قدميه ويديه، بينما وجهه مدار باتجاه السماء. ينخس الخيالة مهاميزهم متجهين في جهات البوصلة الأربع لكن توباك آمارو لا ينشق، رفعوه في الجو وبدا كعنكبوت. المهاميز تمزق بطون الجياد التي تتراجع إلى الخلف لتستجمع قواها لكن توباك آمارو لا ينشق.

إنه فصل جفاف طويل في وادي كوزكو. وبالضبط عند الظهيرة، وبينما كانت الجياد تصارع وتوباك آمارو لا يتمزق، ينهمر مطر عنيف من السماء وتسقط قطرات ثقيلة كالهراوات وكأن الله أو الشمس أو أحداً ما قرّر أن تكون هذه اللحظة لحظة نوع المطر الذي يعمي العالم.

يؤمن الهنود

آمن الهنود أن يسوع ارتدى ملابس بيضاء ليجيء إلى كوزكو. شاهده راع طفل، لعب معه وتبعه. يسوع طفل أيضاً ويركض بين التراب والهواء، يعبر النهر من دون أن تتبلل قدماه وينزلق بنعومة في وادي الآنكيين المقدس، حريصاً ألا يكشط تلك الأيدي التي جرحت حديثاً. من منحدرات قمة أوسانغيت التي يشع نَفَسُها الصقيعي بطاقة الحياة، سار نحو جبل كويلوريتي. في سفح ذلك الجبل، مأوى الآلهة القديمة، يسقط يسوع رداءه الأبيض، يتسلق الصخرة ويتوقف، ثم يدخل الصخرة.

أراد يسوع أن يمنح نفسه للمغزوين، ومن أجلهم تحوّل إلى حجر مثل آلهة الإقليم القديمة، حجر يقول وسيقول: أنا الله، أنا أنتم، أنا الذين سقطوا.

إلى الأبد سيصعد هنود وادي كوزكو في موكب ليحيوه، سيطهرون أنفسهم في مياه التيار وسيرقصون له حاملين المشاعل، سيرقصون ليمتعوا المسيح الحزين جدا، المحطم، الذي في الداخل.

الهنود يرقصون لمجد الفردوس

بعيداً عن كوزكو أصاب حزن يسوع هنود التيبيهوا. منذ أن وصل الإله الجديد إلى المكسيك بدأ هنود التيبيهوا يذهبون إلى الكنيسة مع فرقة موسيقية مقدمين رقصاتهم، وألعابهم التنكرية، وكعكاً شهي المذاق وشراباً جيداً لكن لم يمنحه أي شيء السعادة. واصل يسوع حزنه وضغطت لحيته على صدره واستمر الأمر هكذا حتى ابتكر هنود التيبيهوا «رقصة القدامى».

يرقص تلك الرقصة رجلان مقنّعان؛ أحدهما السيدة العجوز والآخر الرجل العجوز. يجيء العجوزان من البحر مع هدايا من القريدس ويعبران بلدة سان بدرو متكئين على عصوين مريّشتين، وقد أحنى العمر جسديهما. أمام مذابح مرتجلة في الشوارع يتوقفان ويرقصان بينما يغني المرتّل ويقرع موسيقى درع سلحفاة. تهز العجوز غير المحتشمة ردفيها، تقدم نفسها وتتظاهر بالهرب، يلاحقها العجوز ويمسكها من الخلف، يعانقها ويرفعها من كتفيها إلى الأعلى، ترفس بقدميها في الجو ضاحكة بجنون، وتتظاهر أنها تدافع عن نفسها بضربات من عكازها، ممسكة بسعادة جسد الرجل العجوز الذي يتابع الإمساك بها متلعثماً وضاحكاً بينما يصفق الجميع.

حين شاهد يسوع العجوزين يمارسان الجنس رفع رأسه وضحك للمرة الأولى. والآن يضحك كلما أدّى هنود التيبيهوا تلك الرقصة غير المحتشمة.

في الأزمنة الغابرة ولد هنود التيبيهوا، الذين أنقذوا يسوع من الحزن، من كرات قطن هناك على منحدرات جبال فيرا كروز.

وبدلاً من أن يقولوا: "يبزغ الفجر"، يقولون: "إن الله هنا".

1781: شينشيروس

بوماكاهوا

كانت عذراءٍ مونتيسيرات تتوهج في الوسط، وكان ماتيو غارسيا بوماكاهوا راكعاً على ركبتيه يقدم الشكر، وخلفه ظهرت زوجتهٍ ومجموعة من أقربائه في موكب. كان بوماكاهوا يرتدي ثوباً إسبانياً، وصدرية ومعطفاً وحذاء بأبازيم. وراءه خيضت المعركة وظهر جنود صغار بدوا كالألعاب؛ بوماكاهوا السبع يضرب توباك آمارو التنين وكتب في الأعلى: "جئت، ورأيتُ، وغزوت" باللاتينية.

بعد عدة أشهر أنهى فنان مجهول الاسم عمله؛ ظهرت فوق باب كنيسة بلدة شينشيروس الصور التي ستُخلد عظمة وإيمان الزعيم بوماكاهوا في الحرب ضد توباك آمارو.

تلقى بوماكاهوا، سليل الآنكيين أيضاً، وساماً من ملك إسبانيا وغفرانا كلياً من مطران كوزكو.

1781: لاباز

توباك كاتاري

كان يتحدث اللغة الإيمارية، لغة شعبه. أعلن نفسه نائب ملك على هذه الأراضي التي لم تكن قد سُمِّيت بوليفيا بعد، ثم عيّن زوجته نائبة ملك. نصب بلاطه على المرتفعات التي تهيمن على مدينة لاباز، اختبأ في تجويف وفرض عليها الحصار. كان أعرج ويضيء عينيه الغائصتين عميقاً

في وجهه الفتي والمجعّد تألقاً خارقاً للمألوف. كان يرتدي المخمل الأسود ويصدر الأوامر بقصبة ويحارب برمح. قطع رؤوس كهنة اشتُبه بأنهم أقاموا قدّاسات تشهيرية وقطع أذرع الجواسيس والخونة.

كان جوليان آباز قندلفتاً وخبازاً قبل أن يصبح توباك كاتاري.

نظّم هو وزوجته بارتولينا سيسا جيشاً مؤلفاً من أربعين ألف هندياً، واصل مراقبة القوات التي أرسلها نائب الملك من بوينس آيرس.

ورغم الهزائم والمجازر التي عانى منها لم يكن ثمة طريقة للقبض عليه؛ كان يسافر ليلا ليتجنّب أية محاولة تطويق إلى أن قدّم الإسبان حُكم أتشاكاتشي الواقعة على ضفاف بحيرة تيتيكاما إلى أفضل أصدقائه توماس آنكا ليب، المعروف بـ«الجيد».

1782: لاباز

نساء متمردات

كانت مدن العالم الجديد الإسبانية التي ولدت كهدايا لله والملك، تملك قلباً من التراب المتألم. كانت المشنقة ومقعد الحكومة، الكاتدرائية والسجن، المحكمة والسوق في كل ساحة رئيسة. وكان البشر يطوفون حول المشنقة والنافورة غدوا ورواحا في الساحة الرئيسة، الساحة المحصنة، ساحة الحامية، يعبرون الفارس والشحاذ، الخيّال ذا المهماز الفضي والعبد الحافي القدمين، السيدات الورعات وهن يأخذن أرواحهن إلى القداس، والهنود الذين ينقلون شراب الشيكا في أباريق فخارية كبيرة.

ثمة عرض اليوم في ساحة لاباز الرئيسة. سيُضحّى بامرأتين قادتا تمردا محلياً. بزغت بارتولينا سيسا زوجة توباك كاتاري من السجن وثمة حبل يلتف على عنقها ومقيدة إلى ذيل فرس. أما غريغوريا آباز، شقيقة توباك كاتاري فقد أُخرجت على حمار. كانت كلتاهما تحمل باليد اليمنى

صليباً مصنوعاً من العيدان كصولجان ووضع على رأسيهما إكليلان من الشوك، كان السجناء يكنسون أمامهما الأرض بالأغصان. دارت بارتولينا وغريغوريا عدة دورات حول الساحة في معاناة صامتة من أحجار، وضحك أولئك الذين يسخرون منهما كملكتين هنديتين، إلى أن دقت ساعة المشنقة. أعلن الحكم أن رأسيهما وأيديهما سيعرضان في بلدات المنطقة.

كانت الشمس، الشمس المألوفة، تحضر أيضاً الاحتفال.

1782: غوادواس

بعينين زجاجيتين

كان رأس خوسيه أنطونيو غالان يحدق بعينين زجاجيتين من قفص خشبي إلى بلدة شارالا. في شارالا، مسقط رأسه، كانوا يعرضون قدمه اليمنى، وكانت إحدى يديه مثبتة بالمسامير في ساحة سوكورو.

تابت قشدة المجتمع الاستعماري من خطيئة الوقاحة، إنهم أولئك الكرييوليون الأغنياء الذين يفضلون أن يتابعوا دفع الجزية وطاعة الملك الإسباني، كي يتجنبوا الطاعون المعدي الذي جسّده ونشره أيام العنف كل من غالان وتوباك آمارو وتوباك كاتاري. كان غالان القائد الزعيم لتمرد العوام قد خانه رفاقه وأسروه. سقط في كوخ بعد مطاردة طويلة مع رجاله الاثني عشر الأخيرين.

شحذ الدون أنطونيو كاباليروي غونكورا، كبير الأساقفة ذو الأبهة، السيف الذي قطع رأس غالان. وبينما كان يرمي في النار معاهدة السلام الواعدة والخادعة، أضاف الأكثر تبجيلا إساءات ضد العامي المحتقر. لقد قطع غالان ليس لأنه مجرد متمرد بل لأنه أيضاً رجل غامض الولادة وعاشق لابنته.

امتلك كبير الأساقفة عرشين بعد ذلك، فإلى جانب العرش الرسولي ربح عرش نائب ملك بوغوتا.

1782: سيكواني

الاسم المحتقر

وقّع دييغو كريستوبال ابن العم الأول لتوباك آمارو، والذي واصل الحرب، معاهدة سلام. وعدت السلطات الاستعمارية بالصفح والعفو العام.

أقسم دييغو كريستوبال أن يخلص للملك وهو ممدد على الأرض. جاءت حشود من الهنود من الجبال وسلمت أسلحتها. رتّب المارشال وليمة من الأنخاب المرحة وقدم الأسقف قداس شكر. وأمر نائب الملك من ليما أن تضاء المنازل ثلاث ليال.

بعد عام ونصف قطّع الجلاد لحّم ابن عم توباك آمارو في ساحة السعادة في كوزكو بكلابات محمرة من النار قبل أن يشنقه، ثم شنق أمه وقطعها. أصدر القاضي فرانسيسكو دياث دي مدينا حكماً قال فيه: "ليس ملائماً للملك أو للدولة أن تبقى أية بذرة أو سلالة من توباك آمارو أو من ابن عمّه بسبب التذمر والتأثير اللذين أحدثهما هذا الرجل المحتقر في السكان المحليين".

1783: مدينة بنما

حباً بالموت

كانت الأرض التي تصدر بخاراً منذ الفجر تتوسّل شربة ماء. وكان الأحياء يبحثون عن الظل ويستخدمون المراوح. وإذا كانت الحرارة تُجفف الأحياء فما الذي لن تفعله للموتى الذين لا يهوّي لهم أحد؟

كان الموتى المهمون يستلقون في الكنيسة. وكانت العادة تقتضي هذا كثيراً في نجد قشتالة الجاف. وكان هذا يجب أن يحدث أيضاً في

فرن بنما الناري. كان المؤمنون يقفون على أحجار تذكارية أو يركعون عليها والموت يهمس لهم من الأسفل: سأجيء إليكم حالاً. وكانت رائحة تعفن الموتى تسبب البكاء أكثر من هلع الموت أو ذكرى الخسارة التي لا تُعوّض.

كتب سيباستيان لوبيث رويز، الباحث المتفقه في الطبيعة، تقريراً بين فيه أن تلك العادة المجلوبة من هناك هي هنا عدوٌ لعلم وقاية الصحة ومهلكة للصحة العامة، وسيكون من الأفضل صحياً دفن سادة بنما في مقبرة بعيدة. فجاء الجواب: إنه من الجيد أن يبقى الموتى في الكنائس وما كان سارياً لن يتغيّر.

1783: مدريد

حماية اليد البشرية

أعلنت أبواق الرياح الأربع أن ملك إسبانيا قرر أن يعتق اليد البشرية، من الآن فصاعداً لن يفقد السادة الذين يقومون بعمل يدوي نبالتهم. قال الملك: إن الكدح لا يلحق العار بمن يكدح ولا بأسرته، وليس ثمة صنعة غير جديرة بالإسبان.

أراد تشارلز الثالث أن يحدِّث حكمه، وكان وزيره كامبومانيز يحلم بتطوير الصناعة والتربية العامة والإصلاح الزراعي. حصلت إسبانيا من عملها العظيم في أميركا على ألقاب الشرف وحصل ملوك أوروبا على الفوائد. إلى متى ستُدفع فضة المستعمرات ثمناً لبضائع لا تنتجها إسبانيا؟ ما معنى الاحتكار الإسباني إذا كانت المنتجات التي تغادر ميناء قادش هي إنكليزية وفرنسية وهولندية أو ألمانية؟

إن السادة الفرسان الذين يكثرون في إسبانيا مثل الكهنة، يملكون سواعد تخدم إما لتموت من أجل إسبانيا أو لتقتلها. حتى ولو كان هؤلاء السادة مفلسين فإنهم لا يتنازلون لإنتاج أي شيء سوى المجد.

منذ زمن طويل نسيت تلك الأيدي كيف تعمل كما نسيت أجنحة الدجاج كيف تطير.

1785: مكسيكو سيتي

المحامي فيلارويل ضد صالون البلكة

إن كل صالون لشراب البلكة[1] هو مكتب يفقس فيه الزنا والتسرّي والاغتصابات والنشل والسرقات والقتلة والمشاجرات والقتال بالسكاكين وجرائم أخرى.

إنها مسارح يتحول فيها الرجال والنساء إلى أكثر أشكال الجحيم العنيفة مقتاً، وتطلق أفواههم أشنع البذاءات وأقذر الكلمات والأشياء الأكثر فسقاً وسوءاً وتحريضا، التي لا يكاد أكبر المتهتكين يطلقونها إذا لم تقلقهم روائح أقذر المشروبات وأشدها عفونة.... هذه هي نتائج إهمال القضاة الذين لا يرعبهم منظر الرجال والنساء وهم يستلقون في الشوارع كأنهم كلاب معرضة لدهس سائق عربة سكران مثلهم كما يحدث غالبا، وينقلهم بسرعة إلى الأبدية في موقف تعيس كالذي يجدون فيه أنفسهم.

صالون البَلْكة

حين أبعد نائب الملك شراب البلكة من مدينة مكسيكو عثر هذا المنبوذ على مأوى في الضواحي.

شراب النباتات الخضراء... في الحانات التي على الحواف لا

[1] شراب مسكر.

يتوقف الساقي أبداً عن التنقل بين الخوابي الكبيرة والأباريق المتلهفة. إنكم تذهلونني، تقتلونني، تسيّرونني على أربع، بينما يبكي طفل حديث الولادة بشكل يبعث الغمّ في إحدى الزوايا وينام عجوز من التأثيرات في زاوية أخرى.

كانت الأحصنة والحمير وديكة المصارعة المربوطة إلى حلقات معدنية تكبر في السن وهي تنتظر في الخارج. وكانت الخوابي المتألقة اللون في الداخل تحمل أسماءً متحدية: «لا تتمدد»، «المشروب هو للأقوياء»، «للشجعان».

... ليس ثمة قانون أو نهار في الداخل. كان النرد يتدحرج على الأرضية الترابية وأوراق القمار المزهرة ترمى على سطح برميل. وكان أحد المهرجين يغني على إيقاع قيثارة مرحة. وكان آخرون يقفون في أزواج ويرقصون ليثيروا الغبار، ويثرثر كاهن مع جندي والجندي يعده أن يتشدد مع بغّالٍ: "إنني فظ، أنا فظ جداً". وكان الساقي ذو البطن الكبيرة يقاطع قائلاً: "ما رأيكم بكأس آخر؟".

البلكة

ربما يعيد شراب البلكة الآلهة إلى الهنود، ولذلك يقدمونه لها ويرشونه على الأرض أو على النار أو يرفعون كوزا إلى النجوم. من المحتمل أن الآلهة متعطشة دائما لشراب البلكة الذي رضعته من حلمات الأم مايا هويل الأربعمائة، ومن المحتمل أيضا أن الهنود يشربون ليحموا أنفسهم وليطمئنوا، وأكيد أنهم يشربون لينسوا، وليتم نسيانهم.

قال الأساقفة: "يجب أن يُلام شراب البلكة لأنه يسبب الكسل والبؤس ويحضر الأوثان ويثير التمرد". وأضاف أحد ضباط الملك: "إنه رذيلة بربرية لشعب بربري، وأنه تحت تأثير خمرة الصبّار الثقيلة ينكر الابن أباه والتابع سيده".

الصبار

مسلحاً بسيوف خضراء يقاوم الصبار الجفاف والبرد، الليالي الصقيعية والشموس الغاضبة لصحاري المكسيك.

يُصْنع شراب البلكة من الصبّار، الشجرة التي ترضع، ومنه يصنع علف للحيوانات، وألواح وآجر للسقوف، مناصب سياج ووقود للنار. تقدم أوراق الصبار اللحمية الحبال والأكياس والحصر والصابون والورق، ورق المخطوطات القديمة، ويصنع من الأشواك دبابيس وإبر جيدة.

يزِهر الصبار حين يوشك على الموت، يتفتّح ويزهر كأنه يقول: وداعا. تنبثق ساق مهيبة، ربما صارية، ربما قضيب، من قلب الصبار نحو الغيوم في انفجار من الأزهار الصفراء. بعدئذ تسقط الساق الكبيرة ومعها تسقط شجرة الصبار ممزّقة من جذورها.

ليس من المعتاد العثور على صبار مزهر في وادي ميزكويتال القاحل، لا يكاد يزهر حتى يخصيه الهنود ويديرون الجرح إلى الداخل وهكذا يسلم الصبار شراب البلكة الذي يطفئ الظمأ ويغذي ويعزّي.

الكوز

يمتلك الخزّاف المكسيكي تاريخاً طويلاً؛ كانت يداه قَبْل هيرنان كورتيز بثلاثة آلاف عام تحولان الصلصال إلى آنية أو أشكال بشرية تصلبها النار لتحميها من الزمن. بعد ذلك بوقت طويل، قال الآزتيكيون إن الخزّاف الجيد يمنح الكينونة للصلصال ويحيي الأشياء.

ما يزال هذا التقليد العريق مزدهراً في التكاثر اليومي للزجاجات والجرار والآنية، وقبل كل شيء أكواز الشرب: أكواز تونالا العاجية الشكلِ، أكواز ميتيبك الخشنة، أكواز تولوكا المحمّرة التي تذرف دموعا سوداء... ويترأس كوز الصلصال المحمّى الأعياد والمطابخ ويرافق السجين والشحاذ. يستقبل الكوز شراب البلكة الذي تزدريه

الكأس الزجاجية وهو هبة العشاق:

حين أموت أيتها العجوز، خذي صلصالي إن استطعتِ
واصنعي كوزاً مع هذه اللازمة:
إذا كنت متعطشة إليّ، اشربي
وإذا توقف الشراب عند الحافة
فسيكون هذا قبلاً من رجلك العجوز.

1785: مكسيكو سيتي

الخيال في الحقبة الكولونيالية

وقّع نائب ملك مكسيكو سيتي، ماتياس دي غالفز مرسوماً جديداً لصالح العمال الهنود، بموجبه، يتلقى الهنود أجوراً عادلة وغذاء جيداً وعناية طبية، ويحصلون على ساعتي راحة ظهرا ويقدرون على تغيير مستخدميهم متى شاؤوا.

1785: غواناخواتو

تهب الريح حيث تشاء

تفتّحت هاوية ضوئية في الجو الصافي وشعت صحراء بين الجدران السوداء لسلسلة الجبال مثلمة القمم. في الصحراء التي تومض قبابها وأبراجها، ارتفعت بلدات المناجم المكسيكية.

غواناخواتو، التي تكتظ بالسكان كعاصمة نائب الملك، هي الأكثر تميزا؛ يذهب مالكوها إلى القداس على كراسٍ محمولة تتبعهم جموع

من الشحاذين عبر متاهة من الأزقة والمعابر الضيقة، عبر زقاق القُبلة وزقاق الانزلاق وزقاق الرياح الأربع، وبين الأحجار التي صقلتها أقدام الزمن تنمو الأعشاب والأشباح.

ينظّم جرس الكنيسة حياة غواناخواتو وتحكمها المصادفة. يفتُّ الأوراق لاعب غشاش ويقولون إن المرء يدوس على الذهب والفضة أينما خطا، ولكن يعتمد كل شيء على العروق التي تتسلل تحت الأرض وتمنح نفسها أو تمتنع على هواها. احتفل البارحة أحد المحظوظين بضربة حظه وشرب أفضل الخمور نخبا للجميع، ودفع مقابل عزف المزمار والغيتار، واشترى شريطة «كامبري» رائعة، بنطالا مخمليا وسترات حريرية معدنية الخيط وصداري من هولندة، لكن خيط الفضة الذي جعله فارساً يوما واحدا اختفى من دون أن يترك أثرا.

من ناحية أخرى، لا تعتمد حياة الهنود على المصادفة، ذلك أن تنفس الزئبق في مصانع الخلائط المعدنية يسبب لهم الرجفة وفقدان الأسنان إلى الأبد، بينما تنفجر صدورهم من استنشاق غبار قاتل وأبخرة طاعونية في المناجم، أحياناً يمزّقهم انفجار الغبار إلى أشلاء، وطورا ينزلقون في الفراغ حين يهبطون إلى الأسفل حاملين الأحجار، أو حين يصعدون حاملين على ظهورهم مناظري العمال الذين يسمّون الهنود «أحصنتهم الصغيرة».

1785: غواناخواتو

صورة فضية

سيدات يثرثرن في حدائقهن المورقة مستخدمات لغة المراوح المرفرفة. أحدهم يبول على جدار كنيسة، بينما يجلس شحاذان على أحد جانبي الساحة في ضوء الشمس وينتزعان قمل بعضهما. طبيب مهم يرتدي عباءة كبيرة يتحدث عن حقوق الإنسان تحت قوس حجري، وراهب ينحدر في الزقاق وهو يطلق لعنات أبدية ضد

السكارى والعاهرات والمعربدين الذين يعبرون أمامه. وفي مكان غير بعيد عن المدينة كان الصيادون يصطادون الهنود بالرَبْقات.

كانت غواناخواتو قد أطاحت بعرش بوتوسي منذ زمن طويلٍ، وملكة فضة العالم جائعة للعمل، والعمال، الذين لا يقبضون أجورا، لا يشاهدون قطعة نقد طوال حياتهم، لكنهم سجناء للديونٍ. سيرث أبناؤهم الديون والخوف من الألم والسجن والجوع أيضا، وكذلك سيخافون من الآلهة القديمة والجديدة.

1785: لشبونة

العمل الاستعماري

أمر التاج البرتغالي بإقفالٍ مشاغل النسيج البرازيلية التي يجب أن تنتج في المستقبل لباساً بسيطاً للعبيد فحسب. أصدر الوزير ميلوي كاسترو الأوامر باسمٍ الملكة. لاحظ الوزير أن مصانع ومشاغل ثياب متنوعة تنتج ثياباً بنوعيات مختلفة بما فيه الضفائر الفضية والذهبية، قد بنيت وانتشرت بشكل وحشي في معظم إقطاعات البرازيل. قال الوزير: إن هذه تجاوزات مؤذية، إذا استمرت ستجعل مرافق وثروات هذه المستعمرات الأكثر أهمية ميراثاً لسكانها. ولأن البرازيل أرض خصبة ذات ثمار كثيرة سيصبح السكان المذكورون مستقلين بشكل كامل عن مركز الهيمنة، وبالتالي، من الضروري جداً إلغاء المصانع والمشاغل المذكورة.

1785: فرساي

البطاطا تصبح سيدة عظيمة

أحضرها الغزاة الإسبان من البيرو منذ قرنين ونصف، ولأن الهنود كانوا يزكونها، حكمت عليها أوروبا أن تكون طعاماً للخنازير والسجناء والمحتضرين. كان يُسْخر من البطاطا وتُعاقب كلما حاولت الهرب من الزرائب والسجون والمستشفيات. حُظرت في أمكنة عديدة واتهمت في بزانسون بأنها تسبب الجذام.

عرف أنطوان بارمنتييه البطاطا في السجن. كان بارمنتييه في سجن بروسي لم يُقدَّم فيه أي شيء سوى البطاطا، ظنها في البداية منفرة لكنه أحبها فيما بعد واكتشف سحرها وطعمها.

بعد أن أصبح حراً في باريس، أقام بارمنتييه مأدبة حضرها دالامبيير[1] ولافوازييه والسفير الأميركي بنجامين فرانكلين وشخصيات أخرى مشهورة. قدّم لهم بارمنتييه قائمة بطاطا فقط: خبز البطاطا، حساء البطاطا، مسحوق البطاطا، سلطات بطاطا متبّلة من أجل التذوّق، بطاطا مقلية، معجنات وكعك البطاطا، ثم قدّم لهم عُقبة[2] من البطاطا. وكان الشراب الذي قدّم لهم هو براندي البطاطا. ثم ألقى بارمنتييه خطبة دافع فيها عن البطاطا مشيداً بفضائلها الغذائية، معلناً أنها مفيدة للحلْق وللدم وأنها تستطيع أن تقهر الجوع في أوروبا لأنها منيعة على عواصف البرد وتُزرع بسهولة. صفق له الضيوف، المتخمون بالبطاطا، بانفعال وإيمان.

فيما بعد، أقنع بارمنتييه الملك. أمر لويس السادس عشر أن تُزرع البطاطا في مستعمرات «سابلونس» قرب باريس وأن يحرسها الجنود بشكل دائم. وهكذا أثار الفضول والرغبة بالثمرة المحرّمة.

---

(1) فيلسوف وفيزيائي فرنسي.

(2) حلوى يُختم بها الطعام - المغني الأكبر.

حصل التكريس النهائي في فرساي وطبعت ماري أنطوانيت، المزينة كحديقة بأزهار البطاطا، القبلة الملكية على خد أنطوان بارمنتييه وعانقه الملك لويس، الذي لم يكن قد فقد رأسه بعد.

حضر جميع نبلاء فرنسا تأليه البطاطا في هذه المملكة حيث فن الطبخ الجيد هو الدين الوحيد الذي بلا ملحدين.

يقولون في الآنديز:

ولدت البطاطا من الحب والعقاب

قيل إن الآنكا[1] حكم على عاشقين انتهكا القوانين المقدسة وأمر بدفنهما حيين.

كانت المرأة عذراء كُرِّست لإله الشمس، لكنها هربت من المعبد ومنحت نفسها لأحد الأقنان.

قرر الآنكا أن يدفنهما حيين، ودُفنا في حفرة عميقة مقيدين ووجههما إلى الأعلى ولم تُسمع أية شكوى حين غطاهما التراب.

خيَّم الليل وتحركت النجوم في مسارات غير مألوفة، بعد ذلك بوقت قصير اختفى الذهب من قاع الأنهار وأجدبت حقول المملكة متحولة إلى أحجار وغبار. لكن التربة التي غطت العاشقين لم يصبها القحط.

نصح الكهنة الكبار الآنكا أن يأمر بنبش العاشقين وأن يحرقا وينثر رمادهما في الريح، فأمر الآنكا بذلك.

لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليهما، حفروا عرضاً وعمقاً ولم يجدوا سوى جذْر. تكاثر ذلك الجذر ومذّاك صارت البطاطا عماد الشعب الآندي.

---

(1) الملك.

1790: باريس

همبولت

في سن العشرين، اكتشف أليكسندر فون همبولت المحيط والثورة.

أصابه المحيط بالصمم في دانكرك. واغتصب منه القمر الطالع من المحيط صرخة دهشة في كاليس. بعد أن أدهشه المحيط وجاءه وحي الثورة، دخل همبولت بعد عام من 14 تموز في زوبعة الشارع العذبة، مختلطاً بالبشر الذين كانوا يرقصون ويغنون احتفالاً بحريتهم الوليدة.

عاش باحثاً عن الأجوبة لكنه لم يعثر إلا على الأسئلة، ومن دون توقّف استقصى الكتب والسماوات والأرض مطارداً لغز الروح وألغاز الكون وأسرار الخنافس والأحجار، منغمساً في عشق دائم للعالم وللرجال والنساء الذين دوّخوه وأصابوه بالذعر. قال شقيقه ويلهلم، طفل أمه المفضّل: "إن همبولت لن يعرف السعادة أبداً". في سن العشرين أقسم همبولت، المحموم بالحياة وبارتياد الأمكنة، أن يطيع إلى الأبد رايات الثورة الفرنسية، وأن يعبر المحيط مثل بالباو وروبنسون كروزو إلى الأرض التي لا يغيب عنها النهار.

1790: بوتي جواف

السحر المفقود

يستطيع وزن المحفظة أن ينجز أحياناً أكثر مما ينجزه لون الجلد؛ في هاييتي، الخلاسيون الفقراء هم سود، والسود الأحرار الذين جمعوا نقداً كافياً هم خلاسيون. يدفع الخلاسيون الأغنياء ثروات ضخمة كي يصبحوا بيضاً رغم أن قلة تحصل على وثيقة السحر التي تسمح لسليل

السيد والعبد أن يصبح طبيباً ويجعل نفسه سيداً، أن يتمنطق سيفاً أو يلمس سيدة بيضاء من دون أن تُقطع ذراعه.

على المشنقة يتدلى الخلاسي الذي ادّعى امتلاك حق المواطنية الذي أعلن حديثا في باريس، وعلى رمح طويل يطوف في بلدة بوتي جواف يركب رأس خلاسي آخر أراد أن يصبح نائباً.

1791: بوا كيمان

متآمرو هاييتي

غرزت الأَمَةُ العجوز، صديقة الآلهة، منجلها في حنجرة خنزير بري أسود. شربت أرض هاييتي الدم ورقص وغنى قَسَمَ الحرية مئتا عبد أسود تحت حماية آلهة الحرب والنار. في شعيرة ودّونية[1] ممنوعة متوهجة بالصواعق، قرر مئتا عبد أن يحوّلوا أرض العقاب إلى مسقط رأس.

تتحدث هاييتي اللغة الكرييولية التي هي كالطبل لغة مشتركة للذين انتزعوا من أفريقيا في جزر أنتيلية مختلفة. تبرعمت داخل المستعمرات الزراعية حين احتاج المحكومون إلى أن يتعرّفوا على بعضهم ويقاوموا. جاءت من لغات أفريقية مصطحبة نغما أفريقيا واغتنت بأقوال النورمانيين[2] والبريتانيين[3]. التقطت كلمات من الهنود الكاريبيين ومن القراصنة الإنكليز ومن الإسبان الذين استعمروا شرق هاييتي. وبفضل اللغة الكرييولية، يشعر الهاييتيون أنهم يلمسون بعضهم حين يتحدثون.

تجمع اللغة الكرييولية الكلمات، وتجمع الشعيرة الودّونية الآلهة

---

[1] Voodoo: دين زنجي أفريقي الأصل منتشر بين زنوج هاييتي ويستند إلى السحر والعرافة.
[2] أحد أبناء نورماندیا بفرنسا.
[3] أحد أبناء مقاطعة بريتاني في شمال غربي فرنسا.

الذين ليسوا أسياداً، بل هم عشاق مولعون جداً بالرقص ويحولون أي جسد يخترقونه إلى موسيقى وضوء، ضوء محض لحركة متموجة ومقدسة.

أغنية حب هاييتية

كالحطب أحترق

وكقصب السكر ترتجفُ ساقاي

وما من طبقٍ يغوي فمي

ذلك أن أقوى شراب يتحول إلى ماء

حين أفكّر بك.

تطفح عيناي

ويهزم ألمي عقلي

أصحيح يا حسنائي

أنك ستعودين حالاً؟

آهٍ! عودي إليَّ أيتها المخلصة الأبدية!

إن الإيمان أقل عذوبة من الشعور!

لا تتأخري كثيراً

لأن هذا يؤلمني

عودي وحرّري الطائر الجائع

من قفصه.

1792: ريو دي جانيرو

متآمرو البرازيل

كان من المتوقع منذ نصف قرن تماماً أن تستمر مناجم البرازيل طالما يستمر العالم، لكن الذهب والألماس كانا يقلان باطراد وكانت الجزية التي يجب أن تدفع لملكة البرتغال وحاشيتها من المتطفلين تزداد ثقلا.

ومنذ ذلك الوقت أُرْسِلَ كثير من البيروقراطيين الجشعين ولم يُرْسَل تقنيٌ واحد. منعوا محالج القطن من إنتاج أي شيء إلا ملابس العبيد، وحظروا استغلال الحديد الذي يستلقي في مدى ذراع وإنتاج البارود.

من أجل التخلص من أوروبا التي تمتصّنا كإسفنجة تآمرت حفنة من السادة؛ منذ ثلاث سنوات نظم مالكو المناجم والمزارع والكهنة والشعراء والأطباء والمهربون والجنود انتفاضة هدفت إلى تحويل هذه المستعمرة إلى جمهورية مستقلة يتحرر فيها السود والخلاسيون المحليون ويرتدي الجميع ثياباً برازيلية.

قبل أن تدوي طلقة البندقية الأولى ذهب المخبرون إلى عملهم، وسجن الحاكم متآمري أورو بريتو الذين اعترفوا تحت التعذيب متهمين بعضهم بتفاصيل حماسية. التمس باسيليو دي بريتو مالهيرو البراءة شارحا أن أي شخص يُقدَّر عليه أن يولد في البرازيل يقلد العادات السيئة للسود والخلاسيين والهنود والبشر الآخرين السخيفين. كلوديو مانوي داكوستا، الأكثر تميزا بين السجناء، شنق نفسه في زنزانته، أو شُنِق لأنه لم يعترف أو لأنه اعترف كثيراً.

ثمة من بقي صامتاً، إنه الملازم أول جواكيم خوسيه دا سيلفا زافيير المعروف بـ«ساكا ميلاس»، نازع الأسنان، فتح فمه ليقول: "أنا المسؤول الوحيد".

1792: ريو دي جانيرو

نازع الأسنان

بدوا كالجيف في ضوء الشمعة. كان المتهمون المقيدون بسلاسل ضخمة إلى قضبان النوافذ يصغون للقاضي طول ثماني ساعات من دون أن تفوتهم كلمة.

استغرقت صياغة الحكم الذي أصدره القاضي ستة أشهر. بعيداً في الليل، اكتشف الستة أنه حُكم عليهم وسيُشنقون وتقطع رؤوسهم ويُفرَمون.

ثم صمت القاضي بينما تبادل الرجال الذين أرادوا الاستقلال للبرازيل، التوبيخات والاعتذارات، الإهانات والدموع، صيحات التوبة المكتومة أو الاحتجاج.

جاء عفوٍ الملكة في الصباح الباكرِ وأفاد أن خمسة منهم سيحكم علٍيهم بالنفي بدلاً من الموت، لكن واحدا منهِم، الوحيد الذي لم يخن أحداً بل خانه الجميع سيُسيَّر إلى المشنقة فجرا. ستقرعٍ الطبول من أجله وسيصدح الصوت التأبيني لمنادي البلدة في الشوارع معلناً الأضحية.

ليسٍ نازع الأسنان أبيض، لقد انضم إلى الجيش ملازماً أول، وبقي دائماً في هذه الرتبة ينتزع الأسنان ليدعم راتبه. أراد أن يكون البرازيليون برازيليين والطيٍور التي تختفي وراء الجبال حين تشرق الشمس، تعرف ذلك جيدا.

1794: باريس

علاج الإنسان هو الإنسان

علاج الإنسان هو الإنسان، هذا ما قاله الفقهاء السود وعرفته الآلهة دائماً. لم يعد عبيد هاييتي عبيداً.

أدارت الثورة الفرنسية أذناً صماء طوال خمس سنوات، واحتج مارا وروبسبير عبثاً. استمرت العبودية في المستعمرات، ورغم إعلان حقوق الإنسان فإن الرجال الذين كانوا ملكية رجالٍ آخرين في مستعمرات جزر الأنتيل الزراعية البعيدة لم يولدوا أحراراً أو يتمتعوا بالمساواة. كانت المتاجرة بالسود الذين من غينيا المشروع الرئيس لتجارة الثوريين في نانت وبوردو ومرسيليا وعاشت معامل التكرير الفرنسية على السكر الأنتيلي.

لكن حكومة باريس ألغت العبودية أخيراً وذلك بسبب مضايقة العصيان الأسود الذي قاده توسّا لوفيرتير.

1794: جبال هاييتي

توسّا

ظهر في المشهد منذ عامين. كانوا يدعونه في باريس سبارتاكوس الأسود.

امتلك توسا لوفيرتير جسم شرغوف وشفتين احتلتا تقريباً كل وجهه. كان سائق عربة في مستعمرة زراعية وعلمه عجوز أسود أن يقرأ ويكتب ويعالج الأحصنة المريضة ويتحدث مع البشر، لكنه تعلم

بطريقته الخاصة ألا ينظر بعينيه فحسب، وكان يعرف كيف يشاهد الطيران في كل طائر ينام.

1795: سانتو دومينغو

أحرقت الجزيرة

خائفاً من تحرير العبيد في هاييتي، تخلّى ملك إسبانيا عن سانتو دومينغو لفرنسا. مسحتْ شخطة قلم الحد الذي قطع الجزيرة إلى نصفين فاصلاً أفقر المستعمرات الإسبانية عن أغنى المستعمرات الفرنسية. قال الدون مانويل كودوي، الضوء الرئيس في بلاط مدريد: إن التمرد في هاييتي حوّل الجزيرة إلى أرض ملعونة بالنسبة للبيض.

كانت هذه المستعمرة الأولى لإسبانيا في أميركا حيث امتلكت الإمبراطورية محكمتها الأولى وكاتدرائيتها وجامعتها الأولى. ومن هنا أبحرت الحشود الغازية إلى كوبا وبويرتو ريكو. بشّرت ولادة كهذه بقدر عظيم لكن الحاكم أنطونيو دي أوزاريو حوّل تلك المستعمرة إلى دخان منذ قرنين.

عمل أوزاريو ليلاً ونهاراً في شيٍّ الأرض المذنبة متجهاً من نخلة إلى أخرى حارقاً المنازل والحصون والزوارق والطواحين والزرائب والحظائر، رشَ الحقول بالملح بعد أن أحرقها، خنق بيديه أولئك الذين قاوموا وفي فرقعة اللهب صدحت أبواق القيامة.

بعد عام ونصف من الإحراق المتواصل، وقف الحارق على الجزيرة التي دمرها، وتلقى من ملك إسبانيا ألفي دوقية مقابل عمله التطهيري.

لقد طهر الحاكم أوزاريو، متطوع حرب فلاندرز، هذه الأرض مبتدئاً بحرق المدن الشمالية لأنها كانت تقع على السواحل التي نزل عليها الهولنديون والإنكليز جالبين معهم أناجيل طائفة لوثر وناشرين عادة أكل اللحم الهرطوقية يوم الجمعة الحزينة. لقد بدأ من الشمال ومذّاك لم يعد بوسعه التوقف.

1795: كيتو

اسبيخو

مرَّ في التاريخ مؤلفاً ومبدعاً.

كتب أكثر الكلمات حدة ضد النظام الاستعماري وأساليبه التربوية، والتي هي تربية للعبيد ونزع أحشاء أسلوب خطباء كيتو الطنان. ثبَّت بالمسامير خطبه اللاذعة على أبواب الكنائس وفي زوايا الشارع المزدحمة لكي تنتقل من فم إلى آخر، لأن الكتابة من دون اسم يمكن أن تنزع قناع الحكماء المزيفين وتظهرهم في جهلهم الحقيقي والطبيعي.

أراد أن يحكم أميركا من وُلد فيها وألح على أن تطن صرخة الاستقلال بشكل متزامن في جميع الأصقاع التي يحكمها نواب الملوك، وفي جميع المحاكم، وأن تتحد المستعمرات لتصبح أوطاناً في ظل حكومات جمهورية ديموقراطية.

كان ابن هندي وسُمّي عند الولادة شوسيك ويعني بومة الهري. ولكي يصبح طبيباً قرّر أن يسمّي نفسه فرانسيسكو خافيير دي سانتا كروزي إسبيخو، وهو اسم يوحي بنسب عريق وهكذا فقط يستطيع أن يمارس وينشر اكتشافاته ضد الجدري وطواعين أخرى.

أسَّس وحرر وكتب من الغلاف إلى الغلاف مجلة كيتو الأولى؛ ثمار الثقافة الأولى، وكان مديراً للمكتبة العامة ولم يدفعوا له راتبه أبداً.

متهماً بارتكاب جرائم ضد الملك والله، سجنَ إسبيخو في زنزانة قذرة ومات فيها بسبب الحجز بعد أن طلب وهو في نَفَسِه الأخير الصفح من دائنيه.

لم تسجل مدينة كيتو في سجل مواطنيها الرئيسين موت نذير الاستقلال الأميركي الهسباني الذي كان الأكثر تألقاً بين أبنائها.

إسبيخو يسخر من خطابة هذه الأزمنة

أودِّع نسائم الإلهام المتفجرة، أضيِّع تذبذبات الحياة النابضة حين أسمع تلك المعميات المومضة للمفاهيم الخطابية. أية قناعة لذيذة في سماع طيور تمّ الخطابة اللحنية وهي تردد بجهورية ترنيمات مسقسقة في مقاطعها العذبة! أية فواصل لذيذة المذاق من الاطمئنان العظيم تدركه الروح في الأصداء المتناغمة لوصفها النبوئي.

1795: خليج مونتيغو

أدوات الحرب

استحقت الكلاب الكوبية هيبتها جيداً، ذلك لأن الفرنسيين اصطادوا بها كثيراً من العبيد الفارين في جبال هاييتي، وكانت بعض الكلاب الكوبية كافية لإلحاق الهزيمة بهنود الميسكيتو الذين محوا ثلاثة أفواج إسبانية على سواحل نيكاراغوا.

أرسل مالكو الأراضي الإنكليز في جامايكا العقيد ويليم دوز كواريل إلى كوبا لإحضار الكلاب، لأن أمن الجزيرة وحيوات السكان يتطلبان ذلك كما قال المجلس. إن الكلاب أدوات حرب. ألم يستخدم الآسيويون الفِيلة في حروبهم؟ وقال المزارعون الإنكليز إن أكثر أمم أوروبا تحضرا ورقيّاً تطارد مشاة الأعداء على الأحصنة، فلماذا لا تُستخدم الكلاب لرصد مخابئ العبيد الفارين، بما أن السود، على أية حال، أكثر توحشاً من الكلاب؟

حصل العقيد كواريل على ما يريده في كوبا بفضل المكاتب الجيدة لـ «دونا ماريا إغناسيا دي كونتريراس ي جستيس»، مركيزة سان فيليبي وسانتياغو، كونتة قشتالة، ومالكة وسيدة الـبيجكال. صعد الرجال والكلاب إلى سفينة ميركوري.

كان ضباب الغسق منتشراً حين وصلت الكلاب إلى جامايكا، وفي ومضةٍ فرغتِ الشوارع وأغلقت الأبواب بإحكام. اصطف أربعون حارساً كوبياً في ضوء المشاعل. وكان كل منهم يقود ثلاثة كلاب ضخمة مربوطة إلى حزامه بأغلال محكمة.

1795: هافانا

هل تخيّل متمرد «الجليل»

هل تخيل متمرد الجليل أنه سيصبح ناظراً أكبر للعبيد

لا يعاني العبيد من الإهمال في مستعمرات زراعة السكر في كوبا. كان المالك يعالجهم بالعمل ويختصر إقامتهم في وادي الدموع ذاك، وكان الكهنة ينقذونهم من الجحيم. كانت الكنيسة تحصل على 5٪ من إنتاج السكر مقابل تعليم العبيد أن الله جعلهم عبيداً، وأن الجسد يُسْتَعْبد لكن الروح حرّة، وأن الروح النقية تُنظف من الصبغة في المطهر كالسكر الأبيض، وأن يسوع المسيح هو الناظر الأكبر الذي يراقب ويكافئ ويعاقب ويجازي.

أحياناً لا يكون المسيح ناظراً فحسب بل يتجسد في سيد. كان الكونت كاسا بايونا يغسل أقدام اثني عشر عبداً في ليلة خميس الصعود، ويجلسهم إلى مائدته ويشاركهم في عشائه. وكان العبيد يعبرون عن امتنانهم بإحراق مطحنة السكر التي يملكها وينتهي اثنا عشر رأساً في صف من الرماح قرب حقول القصب.

1796: أورو بريتو

إل أليخادنهو

كان إل أليخادنهو المشلول الصغير، خالق الثروات، ينحت بعقبهٍ. كان نحات الجماليات الأرفع في إقليم المناجم البرازيلي قبيحاً جداً. حاول عبد اشتراه أن ينتحر لينجو من خدمة سيد رهيب مثله. كان مرضه، الجذام أو السفلس، أو لعنة غامضة ما، يلتهمه لقمة لقمة. وكان يمنح العالم مقابل كل قطعة لحم تتمزّق منه أعاجيب جديدة من الخشب والحجر.

كانوا ينتظرونه في كونغونهاس دو كامبو. أيستطيع أن يفعلها؟ هل سيمتلك قوة كافية لينحت الأنبياء الاثني عشر ويرفعهم إزاء السماء الغامقة الزرقة؟ هل سيرقص أولئك الذين تنبؤوا بحب وغضب الإله رقصتهم المعذبة، رقصة الحيوانات الجريحة؟

لم يعتقد أحد أنه يمتلك حياة كافية من أجل هذا العمل الكثير. كان العبيد يحملونه في شوارع أورو بريتو مختبئين تحت وشاحه، ويربطون المعزق إلى ما تبقى من يده. كانوا يشاهدون خراب وجهه وجسمه ويقتربون من هذه الوحشية فحسب. تمزّق «أنطونيو فرانسيسكو ليزبو»، إل أليخادنهو، إلى أشلاء ولم يحلم أي قنفذ أن يقذفه بكرةٍ ممضوغة.

1796: ماريانا

أتيدي

رصّع مانويل جا كوستو أتيدي الأشكال الخشبية التي نحتها أليخادنهو بالذهب وزيّنها بالألوان. إنه فنان مشهور. بطريقته

الخاصة ابتكر أتيدي في الكنائس فردوساً على الأرض، ومستخدماً صبغات الأزهار والنباتات رسم العذراء بوجه ماريا دو كرمو، المرأة التي ولدت هنا، المادونا السمراء التي تنبع منها الشمس والنجوم. ورسم ملائكة صغارا موسيقيين ومغنين بشفاه وحواجب غليظة وشعر أزغب وأعين مندهشة أو لعوب. كان الملائكة الخلاسيون أولاده والعذراء أمهم.

كانت الملامح الأفريقية مضفاة على القديس الأسيزي الراعي الذي حوّل الذئاب إلى حملان في كنيسة سان فرانسيسكو في ماريانا، وكان إلى جانبه قديسون بيض بشعر حقيقي ووجوه نساء مجنونات.

1796: ساو سلفادور دي باهيا

الليل والثلج

كانت العاشقة الخلاسية تقدم النشاط الجنسي والمرأة البيضاء المكانة الاجتماعية. وكان على الخلاسي أن يبيِّض نفسه ليحظى بزوجة بيضاء. أما إذا كان يمتلك كثيراً من النقود فإنه يشتري وثيقة تمحو وصمة الجدة الأَمَة وتسمح له أن يتمنطق سيفاً ويعتمر قبعة ويرتدي جزمة نصفية ويحمل مظلة حريرية. كان يحصل أيضاً على صورة مرسومة يستطيع أحفاده أن يعرضوها في غرفة الجلوس دون أن يحمرّوا.

وصل إلى البرازيل فنانون يعرفون كيف يضفون مظهراً أوروبياً على أي موديل إستوائي. كانت الإطارات الذهبية البيضوية الشكل تحيط برأس البطرق ذي الجلد القاني والشعر المستقيم والتعبير المراقِب والجدي.

1796: كاراكاس

جلد أبيض للبيع

لم يعد التاج البريطاني يعتبرِ النسب الهندي رذيلة، لكن الدم الأسود، من ناحية أخرى، يسوِّد الولادات لأجيال كثيرة. كان بوسع الخلاسيين الأغنياء أن يشتروا شهادات البياض مقابل خمسمائة قطعة نقدية فضية.

لكي يزيل اللطخة التي تؤلمه كثيراً أعلن الملك أن دييغو ميخياس بيخارون، خلاسيٍ كاراكاس أبيض بحيث لا تكون حالته المحزنة والمتدنية عائقاً أمام استخدامه، معاملته وبدائله ونمط ثيابه إزاء مواضيع أخرى. كان بوسع البيض فقط في كاراكاس أن يحضروا القداس أو يركعوا على السجاد في أية كنيسة. وكانت السلالة السيدة تعرف باسم ذوي الثياب الفضفاضة لأن الثوب الفضفاض امتيازٍ للسيدات البيض، وليس بمقدور أي خلاسي أن يصبح كاهناً أو طبيباً.

دفع ميخياس بيخارون خمسمائة قطعة نقدية لكن السلطات المحلية رفضت أن تطيع. أعلن عم سيمون بوليفار وذوو الثياب الفضفاضة الآخرون في مجلس البلدة أن المذكرة الملكية تخيف ساكني وكريبوليي أميركا. سأل مجلس البلدة الملك: كيف يمكن أن يسمح السكان المحليون البيض في هذه المنطقة أن يكون إلى جانبهم خلاسي منحدر من عبيدهم أو من عبيد آبائهم؟

1796: سان ماتيو

سيمون رودريغز

أذنا فأر، أنف بوربوني، فم كصندوق البريد. تتدلى شرّابة حمراء من القبعة التي تغطي صلعته المبكرة. النظارة مرفوعة فوق الحاجبين ونادراً ما تساعد العينين الزرقاوين الحادّتين والثاقبتين. كان سيمون كارينو الذي اختار اسم رودريغز يتجول مبشرا بمذاهب غريبة.

ادّعى قارئ روسّو هذا أن المدارس يجب أن تُفْتَح للشعب ولذوي الدم المختلط، وأن الفتيات والفتيان يجب أن يجلسوا في غرف الصفوف نفسها، وسيكون أكثر فائدة للبلاد إعداد البنّائين والحدادين والنجارين بدلاً من إعداد السادة والرهبان.

سيمون المدرس وسيمون التلميذ، سيمون رودريغز الذي يبلغ الخامسة والعشرين من العمر وسيمون بوليفار أغنى يتيم في فنزويلا، وارث المنازل والمزارع، مالك ألف عبد ويناهز الثالثة عشرة.

بعيداً عن كاراكاس يطلع المدرِّس الفتى على أسرار الكون ويحدثه عن الحرية والمساواة والإخاء، ويكشف له الحياة القاسية للعبيد الذين يعملون له ويقول له، إن نبات أذن الفأرة يمتلك اسماً آخر. أراه كيف يولد المهر من بطن الفرس ويُكمل الكاكاو والبن دورتهما. أصبح بوليفار سبّاحا، متسلقا وخيالا، تعلم أن يبذر، أن يصنع كرسياً وأن يسمي النجوم في سماء أرغوا. عبر الأستاذ والتلميذ فنزويلا وخيّما حيث استطاعا وعرفا معاً الأرض التي صنعتهما. في ضوء قنديل قرآ وناقشا «روبنسون كروزو» و«حيوات»بلوتارك[1].

[1] كاتب سير يوناني. أشهر آثاره كتاب «حيوات متوازية».

1797: لاغوايرا

البوصلة والمربع

قطع تربية بوليفار هرب معلّمه. غيّر سيمون رودريغز الذي اشتبه بأنه يتآمر ضد الملك، اسمه إلى سيمون روبنسون، وأبحر من ميناء لاغوايرا إلى جامايكا وإلى المنفى.

أراد المتآمرون أميركا مستقلة وجمهورية من دون جزية محلية أو رقيق أسود، حرة من الملك والبابا وحيث تكون جميع السلالات أشقاء وشقيقات على مستوى العقل وعلى مستوى الإيمان بيسوع المسيح.

ترأس الحركة الماسونيون الكرييوليون الذين ينتمون إلى المحفل الذي أسسه فرانسيسكو دي ميراندا في لندن. اتُهم أيضاً ثلاثة ماسونيين إسبان منفيين إلى كركاس. قيل إن رجالاً فرنسيين متمرسين في الثورات والمقاصل انخرطوا في المؤامرة أيضا، وكشفت الغارات كتباً محظورة أكثر من الأسلحة الخطيرة.

رسمت إسبانيا وقُطّعت في ساحة كاراكاس الرئيسة، وكان خوسيه ماريا دي إسبانا رئيس المؤامرة.

1799: لندن

ميراندا

مرَّ ثلاثون عاماً على مغادرة فرانسيسكو دي ميراندا لفنزويلا. كان محارباً منتصراً في إسبانيا، وأصبح ماسونيا في قادش، وذهب في جولة إلى أوروبا ناشداً السلاح والمال من أجل استقلال أميركا. انتقل من بلاط إلى آخر على بساط سحري من دون متاع سوى مزمار ولقب

كونت مزوّر ورسائل تعريف كثيرة. سمّاه شعب باريس بطلاً لكن روبسبير حكم عليه كخائن، وكي ينقذ ميراندا رأسه عبر القناة إلى لندن بجواز سفر مزور وشعر مستعار ونظارة شمسية.

استقبله رئيس الوزراء البريطاني ويليام بيت في مكتبه، وأرسل في طلب الجنرال أبرجرومبي وتحدث الثلاثة وهم يزحفون على أيديهم وركبهم على الخرائط المنشورة على الأرض.

ميراندا (بالإنكليزية): "يجب أن يكون واضحاً أن كل هذا يجب أن يُفعلٍ من أجل استقلال وحرية تلك المناطق، التي بدونها... (محدقاً بالسقف، انتقل إلى الإسبانية) سيحل العار".

أبرجرومبي (هازاً رأسه): "الاستقلال والحرية".

ميراندا: "أحتاج إلى أربعة آلاف رجل وست سفن حربية. (يشير بإصبع إلى الخريطة) يجب أن نبدأ بمهاجمة كاراكاس و..."

بيت: "لا تتذمر، لأنني سأتحدث معك بصراحة، أفضّل حكومة إسبانيا الظالمة على نظام فرنسا المقيت".

ميراندا (يغمض عينيه ويهمس بالإسبانية): "إن عدو عدوّي هو صديقي، إن عدو عدوي صديقي. إن عدو..."

بيت: "لا أريد أن أدفع الأميركيين إلى مصائب ثورة كهذه".

ميراندا: "أفهم وأشاركك قلقك يا صاحب السعادة، إنني أطلب التحالف من أجل هذا بالضبط وسنستطيع أن نقاتل ضد المبادئ الوحشية للحرية الفرنسية (يعود إلى الخريطة) ستسقط كاراكاس بسهولة..."

أبرجرومبي: "ولكن ماذا إذا تسلَح الملونون؟ وماذا إذا سيطروا كما حدث في هاييتي؟"

ميراندا: "إن راية الحرية في بلادي هي في يد مواطنين لامعين يتمتعون بعادات متحضرة مثل الذين أرادهم أفلاطون لجمهوريته". (تنزلق يده إلى منطقة سانتا في ويثبت الثلاثة أعينهم على ميناء كارتاجينا).

أبرجرومبي: "يبدو الأمر صعباً".

ميراندا: "يبدو منيعاً لكنني أعرف نقطة دفاعها ضعيفة جداً، في الخاصرة اليمنى للمتراس..."

ميراندا يحلم بكاثرين روسيا

أحياناً وفي وقت متأخر من الليل يعود ميراندا إلى سان بطرسبرغ ويستحضر كاثرين العظيمة في غرف قصرها الشتوي الحميمة. كان القطار اللانهائي لرداء الإمبراطورة الذي تحمله في الجو آلاف الوصيفات نفقاً من الحرير المطرّز اندفع فيه ميراندا إلى أن غاص في بحرٍ من المخرمات. باحثاً عن الجسد الذي يحترق وينتظر، فك ميراندا أزراراً ذهبية وحبال لآلئ وشق طريقه بين مواد تصدر حفيفاً. خلف الانتفاخ الواسع للجزء السفلي للثوب خدشته أسلاك القرينول لكنه نجح في اختراق الدرع ووصل إلى التنورة التحتانية الأولى ومزّقها بشدة واحدة. وجد تحتها تنورة أخرى وأخرى وتنورات أخرى عديدة ناعمة الملمس كاللؤلؤ وقشور بصل كانت أصابعه تقشرها بمعنويات تقل باطراد، وحين تغلغل بعد جهد كبير خلال التنورة الأخيرة ظهر المشد كحصن منيع يحميه جيش من الأحزمة والعلاقات والشرائط الصغيرة والأزرار بينما كانت السيدة المهيبة، ذات الجسد الذي لا يتعب أبدا تئن وتتضرع.

1799: كومانا

حكيمان يمتطيان بغلاً

كان العالم الجديد كبيراً جداً على عيني الأوروبيَين اللذين وصلا لتوّهما إلى كومانا. كان المرفأ يتلألأ فوق النهر متوهجاً من الشمس

وتوضعت منازل من الألواح الخشبية البيضاء أو الخيزران إلى جانب الحصن الحجري ووراء ذلك، كان البحر الأخضر والأرض الخضراء والخليج المتألق. كان كل شيء جديداً لم يُستخدم أو يشاهد أبداً؛ ريش طيور الفلامنكو، مناقير البجع، أشجار جوز الهند التي يبلغ ارتفاعها ستين قدماً والأزهار المخملية الضخمة وجذوع الأشجار المغطاة بالنبات المتسلق والأوراق، القيلولة الأبدية للتماسيح، السرطانات السماوية والصفراء والحمراء... كان هناك هنود ينامون عراة على الرمل الدافئ وخلاسيات يرتدين ثياباً من الموصلين المطرز تداعب أقدامهن العارية الأمكنة التي يسرن عليها. هنا ليس ثمة شجرة لا تقدم فاكهة محرمة من مركز الجنة الضائعة.

استأجر أليكسندر فون همبولت وإيمي بونبلان منزلاً يطل على الساحة الرئيسة يحتوي على منبسط جيد لتركيب المنظار، حين نظرا إلى الأعلى من ذلك السطح شاهدا كسوف الشمس وزخّة شهب والسماء الغاضبة تنفث ناراً طوال ليلة كاملة. وحين نظرا إلى الأسفل شاهدا كيف يفتح مشترو العبيد أفواه السود الذين وصلوا حديثاً إلى سوق كومانا. جرّبا في هذا المنزل الزلزال الأول في حياتهما وهذا جعلهما يخرجان لاستكشاف المنطقة؛ صنّفا السرخس والطيور النادرة وبحثا عن فرانسيسكو لويانا الذي أرضع ولده خمسة أشهر وامتلك حلمتين وحليباً نقياً عذباً بينما كان زوجته مريضة.

فيما بعد انطلق همبولت وبونبلان إلى المرتفعات الجنوبية حاملين معهما آلة السدس والبوصلة والمقياس الحراري ومقياس الرطوبة ومقياس المغنطيسية. أحضرا أيضاً ورقاً للأزهار الجافة، مشارط لتشريح الطيور والأسماك والسرطانات وحبراً وقلماً لرسم جميع العجائب. انطلق على ظهر بغل مثقل بالعتاد كلٌّ من الألماني ذي القبعة السوداء والعينين الزرقاوين والفرنسي ذي النظارة المكبّرة النهمة.

مرتبكةً، انفتحت غابات وجبال أميركا لهذين المعتوهين.

1799: مونتيفيديو

أب الفقراء

بنى فرانسيسكو أنطونيو ماسييل أول مصنع للحم المقدد على ضفة الريفر بلاتا. وكان يملك أيضاً مصنع الصابون والشمع. وكان مشعل المصابيح الذي يدور في شوارع مونتيفيديو حين يخيم الليل حاملا مشعلا في يده وسلما على كتفه هو الذي يشعل شموع ماسييل.

حين لا يكون ماسييل متجولاً في حقوله فإنه يتواجد في مصنع اللحم المقدد ليفحص الشرائح التي سيبيعها لكوبا أو البرازيل، أو يكون في المرفأ ليتفحص الجلود التي سيصدّرها. غالباً، ما كان يرافق مراكبه الشراعية التي تحمل أسماء القديسين إلى ما وراء الخليج. سمّاه المونتيفيديون أب الفقراء لأنه كان يمتلك دائما الوقت ليسعف المرضى المتروكين لرعاية الله، رغم أن ذلك كان يبدو معجزة. كان ماسييل التقي يمدّ صحنا في أي وقت وأي مكان طالبا الصدقات للمستشفى الخيري الذي أسسه، ولا ينسى أن يزور السود الذين يمضون أسبوع الفصح في الثكنات في البراكات الواقعة عند فم نهر ميجيليت. كان يحدد شخصيا السعر الأدنى لكل عبد تحضره سفنه من ريو دي جانيرو أو هافانا، كان يسعّر الذين يمتلكون أسنانا كاملة بمئتي بيزو والذين يعرفون فنون البناء والنجارة بأربعمائة.

إن ماسييل هو الأهم بين رجال أعمال مونتيفيديو المختصين بالمتاجرة باللحم البشري.

1799: غوانا خواتو

حياة وهوى وعمل الطبقة الحاكمة

كان مالكو المناجم في غوانا خواتو وزاكتيكاس يشترون ألقاب النبالة العليا طوال القرن الذي كان يُحتضر. أصبح عشرة من مالكي المناجم كونتات وأصبح ستة مركيزات، وبينما كانوا يزرعون أشجار أنساب ويجربون اللمات المستعارة، كانت شيفرة عمل جديدة تحوّل عمالهم إلى عبيد ديون. ضاعفت غوانا خواتو في القرن الثامن عشر إنتاج الفضة والذهب ثماني مرات.

في غضون ذلك لمس الصولجان السحري للمال سبعة تجار من مكسيكو سيتي ومزارعين من جبال إسبانيا الشمالية وحولهم إلى مركيزات وكونتات.

اشترى بعض مالكي المناجم والتجار المتلهفين للمكانة الأرستقراطية الأراضي بالإضافة إلى الألقاب. تقدّمت في مكسيكو عدة مزارع ملتهمة الأراضي التقليدية للجماعات الهندية.

فضّل آخرون أن يذهبوا من أجل الربا. على سبيل المثال، جازف المرابي خوسيه أنطونيو ديل مازو بالقليل وربح الكثير. كتب فرانسيسكو آلونزو تيران: "إن الصديق مازو هو أحد الذين يقومون بمعظم العمل في غوانا خواتو، وإذا منحه الله حياة طويلة سيضع المدينة كلها في بطنه".

1799 : مدينةشيباس الملكية

التاميميز

خطط الدون أوغسطين دي لاس كوينتاس زاياس، حاكم شيباس، طريقاً يمتد من نهر توليخا إلى كوميتان، على الطريق إلى غواتيمالا، واقتضتْ الخطة أن ينقل (1200) من الـ التاميميز المواد الضرورية.

إن التاميميز، البغال التي تسير على ساقين، هم هنود قادرون على حمل مائة وخمسين رطلاً. كانوا يحملون صرات كبيرة على ظهورهم بحبال مربوطة حول جباههم، وحملوا أيضاً بشراً جالسين على كراس وهكذا اجتازوا جبالاً عالية ونجوا بأعجوبة من الجروف بقدمٍ في الحَياة وأخرى في الفراغ.

1799: مدريد

فرناندو توباك آمارو

كان أحدٌ ما في الشارع ينتزع الآلام من الغيتار، وكان فرناندو توباكٍ آمارو في الداخل يرتجف من الحمى ويحتضر حالماً أنه يريل ثلجاً.

لم يصل ابن زعيم البيرو العظيم إلى سنّه الثلاثين. فقيراً كجرذ أنهى في مدريد حياة السجن والمنفى القصيرة.

منذ عشرين عاماً، مسح مطر عنيف ساحة كوزكو الرئيسة، ومذّاك لم يتوقف المطر في العالم.

قال الطبيب إن فرناندو مات من الكآبة.

1800: نهر آبيور

إلى نهر أرينوكو

كانت أميركا تلتهب وتدور وقد أحرقتها شموسها وسبّبت لها الدوار. كانتِ أشجار عملاقة تتعانق فوق الأنهار وكان قارب العالمين يتوهّج في ظلّها.

تقدّم القارب تطارده العصافير وجحافل بعوض جائعة. كان همبولت وبونبلان يصفعان باستمرار ليدافعا عن أنفسهما من الرمّاحين الذين يخترقون الثياب والجلد ويصلون إلى العظام، بينما يدرس الألماني تشريح خروف البحر، السمكة السمينة ذات اليدين أو كهرباء الأنقليس أو أسنان السمك الضارِي (البيرانا)، ويجمع الفرنسي النباتات ويصنّفها أو يقيس تمساحا ويحسب عمره. كانا يرسمان الخرائط معا ويسجلان حرارة المياه وضغط الجو، يحللان الميكا في الرمل وأصداف الحلازين ومرور حزام أوريونفي الجو. أرادا أن تخبرهما أمريكا كلَّ ما تعرفه وهنا لا توجد ورقة أو حصاة خرساء.

خيَّما في تجويف صغير وأنزلا الحمولة المزعجة، أشعلا ناراً ليطردا البعوض وليطبخا. فجأة نبح الكلب كأنه يحذر من يَغْوَر يقترب وركض ليختبئ تحت ساقي بونبلان. نقر طائر الطوقان - الذي يحمله همبولت على كتفه - قبّعته القشية بعصبيّة. أصدر النبات المتسلق صوتاً وظهر من بين الأشجار رجل عارٍ ذو جلد نحاسي اللون ووجه هندي وشعر أفريقي.

"أهلاً بكم في أرضي أيها السيدان".

ثم انحنى قائلاً: "الدون إغناسيو، بخدمتكم".

نظِر الدون إغناسيو إلى النار المشتعلة؛ كان الفقيهان يشويان جرذاً مائياً، فقال بازدراء: "هذا طعام هندي". دعاهما إلى العشاء في منزله ليتناولوا لحم غزال طازج.

كان منـزل الـدون إغناسـيو يتـألف مـن ثـلاث شـباك مربوطـة إلى أشجار قريبة من النهر، وهناك عرّفهما علـى زوجتـه الـدونا إيـزابيلا وابنتـه الـدونا مـانويلا اللـتين لم تكونـا عـاريتين مثلـه. قـدّم سـجائر للمسافرين. وبينما كان لحم الغزال ينضج ثقبهما بالأسئلة. كان الـدون إغناسيو جائعا لمعرفـة أنبـاء بـلاطٍ مدريـد والأنبـاء الأخـيرة عـن تلـك الحروب التي تجرح أوروبا كثيرا.

1800: إيزميرالدا دِل أرينوكو

سيد السم

أبحرا منحدرين في النهر.

في سفح جبـل صـخري وفي إرسـالية إيزميرالـدا المسـيحية البعيـدة قابلا سيد السم. كان مختبره أنظـف وأرتـب كـوخ في القريـة. سـكبٍ الهندي العجوز المحاط بالمراجل المدخنة والأبـاريق الفخاريـة عصـيرا أصفر في أوعية مخروطية مصنوعة من ورق الموز وفي أقمـاع مـن سـعف النخل. سقط الكوراري المرعب قطرة قطرة ورغا. إن السهم الذي يُدهن بهذا الكوراري سيدخل ويقتل بشكل أفضـل مـن نـاب الأفعـى. قـال العجوز وهو يمضغ بعض النباتات ولحاء الشجر ليحولها إلى معجون: "هذا أفضل من أي شيء تصنعونه".

فكّـر همبولـت: "إنـه يمتلـك اللهجـة المتحذلقـة والأسـلوب الرسمي مثل صيادلتنا".

تابع العجوز وهو يسكب ببطء وبيد موسوسة المـاء علـى المعجـون: أنتم اخترعتم البارود الأسود.

ثم قال بعد توقّف: "أعرفه! إن ذلك البارود لا يساوي شـيئاً، ولا يمكن الاعتماد عليه، لا يستطيع البارود أن يقتل بهدوء، ويقتل حتى حين تُخطئ هدفك".

أجّج النار تحت الأباريق والآنية وسأل من داخل الدخان: "أتعرفون كيف تصنعون الصابون؟"

قال بونبلان: "إنه يعرف".

نظر العجوز إلى همبولت باحترام قائلاً: "إن الصابون هو الشيء الكبير بعد الكورير".

كوراري

نجح غوام، الإله الطفل لهنود التوكان في الوصول إلى مملكة السم. أمسك هناك ابنة كوراري ومارس الحب معها. كان هناك عناكب وعقارب وأفاع مختبئة بين ساقيها، وكان غوام يموت في كل مرة يدخل فيها جسدها، وحين كان ينبعث كان يشاهد ألواناً ليست من هذا العالم.

أخذته إلى منزل والدها. لعق العجوز كوراري الذي كان يأكل البشر نَفْسَه لكن غوام تحوّل إلى برغوث، وبهذه الطريقة دخل فم العجوز وزحف إلى كبده وأخذ لقمة. غطى كوراري فمه وأنفه وأذنيه وعينيه وسرته ومؤخرته وقضيبه كي لا يهرب البرغوث، لكن غوام كركره من الداخل وخرج مع العطاس.

هرب عائداً إلى بلاده حاملاً في منقاره قطعة صغيرة من كبد كوراري.

وهكذا حصل هنود التوكان على السم كما روى رجال الزمن الكثير، حرّاس الذاكرة.

1800: أروانا

أرض إلى الأبد

قبالة جزيرة أروانا قابل همبولت الهنود الذين يأكلون التراب.

كان نهر أرينوكو، أب الأنهار، يرتفع كل عام ويغمر ضفتيه شهرين أو ثلاثة. وبينما يستمرِ الطوفان، يأكل هنود الأوتوماكوس الطين الناعم المجفف قليلا بالنار ويعيشون عليه هكذا. أكد همبولت أنه تراب محض غير مخلوط بطحين الذرة أو زيت السلاحف أو دهن التماسيح.

هكذا يسافر هؤلاء الهنود المتجولون عبر الحياة إلى الموت طيناً يتجوّل نحو طين، طينا منتصبا يأكل التراب الذي سيأكلهم.

1801: بحيرة كواتافيتا

الإلهة التي في قاع المياه

كانت الدورادو ماتزال تشغل جزءاً جيداً من غويانا على خرائط أميركا. كانت بحيرة الذهب تهرب حين يقترب صيادوها وكانت تلعنهم وتقتلهم، لكنها على الخرائط بقعة زرقاء هادئة مضمومة إلى نهر أرينوكو الأعلى.

حلّ همبولت وبونبلان لغز البحيرة المخادعة؛ اكتشفا في الحجر المعدني المتلألئ في جبل يسميه الهنود الجبل الذهبي جزءا من الهلوسة، واكتشفا الجزء الآخر في بحيرة صغيرة تغزو

في الفصل الممطر السهل الواسع الذي يجاور نبع نهر أرينوكو، ثم تختفي حين تتوقف الأمطار.

تستلقي البحيرة الشبحية، أكثر هذيانات أميركا إغراءً، في غويانا. بعيداً، على هضبة بوغوتا، تقع الدورادو الحقيقية. اكتشفها همبولت وبونبلان بعد أن اجتازا فراسخ عديدة في القارب وعلى البغل في بحيرة كواتافيتا المقدسة. كانت مرآة المياه تعكس أصغر ورقة في الغابات التي تحيط بها وكان كنز هنود المويسكا يستلقي في قاعها.

جاء إلى هذا الملاذ أمراء تتوهج أجسادهم العارية بغبار الذهب، ورموا في وسط البحيرة أروع أعمال حداديهم ثم غاصوا. إذا خرجوا من دون لطخة ذهب واحدة على الجلد فهذا يعني أن الإلهة فوراتينا قبلت تقدماتهم. كانت الإلهة فوراتينا، الإلهة الأفعى، تحكم العالم في تلك الأزمان من الأعماق.

1801: بوغوتا

ميوتيس

كان الراهب العجوز يتحدث وهو يقشر البرتقال. وكان شلال لا ينتهي من لفافات الذهب يهبط إلى مقلاة بين قدميه.

انعطف همبولت وبونبلان عن طريقهما المتجه جنوباً وسارا صعوداً مع النهر أربعين يوما كي يجتمعا به ويصغيا إليه. كان خوسيه سلستينو ميوتيس، أب علماء النبات في أميركا ينام بتأثير الخطابات لكنه يستمتع بالثرثرات الحميمة كأي شخص.

تبادل العلماء الثلاثة الذين أدهشهم دائماً جمال وسر الكون، النباتات والأفكار والشكوك والاكتشافات. أثار ميوتيس الحديث عن بحيرة كواتافيت» ومناجم زيبا كويرا وشلال تيكيندااما. مدح خريطةً نهر ماجدلينا التي رسمها همبولت واقترح بعض التغييرات معتمدا

على حكمة شخص سافر كثيراً وعرف كثيراً وكان يعرف في داخل نفسه أن شيئاً منه سيبقى في العالم.

كان يشرح ويقول كل شيء، ويتحدث وهو يأكل ويقدم البرتقال عن الحروف التي كتبها له ليناوس، وكم علمته وعن مشاكله مع محاكم التفتيش. تذكر وقدم اكتشافاته عن القوى العلاجية للحاء الكينين، وعن تأثير القمر في مقياس الضغط الجوي، وعن دورات الأزهار التي تنام مثلنا وتتمدّد وتستيقظ شيئاً فشيئاً ناشرة تويجاتها.

1802: بحر الكاريبي

نابليون يستعيد العبودية

رافقت الجيش الفرنسي أسراب من البط البري وطارت الأسماك. وعبر بحر تركوازي، يعجّ بالمرجان، اتجهت السفن إلى جبال هاييتي الزرقاء، وحالاً لاحت في الأفق أرض العبيد المنتصرين. كان الجنرال لوكليرك يقود الأسطول وكان ظله أول من شق الأمواج كتمثال في مقدم سفينة. اختفت جزر أخرى كالحة، قلاعُ صخور، روائع الأخضر الأعمق، حرّاس العالم الجديد الذين عثر عليهم منذ ثلاثة قرون شعب لم يكن يبحث عنهم.

"أي نظام كان أكثر ازدهاراً في المستعمرات؟"

"السابق".

أجاب نابليون: "حسناً أعيدوه".

قال توسّا لوفيرتير: إن أي إنسان ولد أحمر أو أسود أو أبيض لا يمكن أن يكون ملكاً لجاره، لكن الإسطول الفرنسي أعاد العبودية إلى البحر الكاريبي وقامت خمسون سفينة تحمل أكثر من عشرين ألف جندي بإعادة الماضي بمدفعيتها.

في كابينة بارجة الأميرال، كانت عبدة تهوّي بولين بونابرت وكانت أخرى تحك رأسها بلطف.

1802: بوانت آبيتر

كانوا مستائين

أصبح العبيد الأحرار في جزيرة غوادالوبّه وجميع المستعمرات الفرنسية عبيداً مرة أخرى؛ عاود المواطنون السود الظهور في بيانات مالكيهم ووصاياهم كسلع قابلة للبيع وشكلوا مرة أخرى جزءاً من سجلات أدوات المزارع وعتاد السفن وترسانة الجيش. استدعت الحكومة الاستعمارية البيض الذين غادروا الجزيرة، وضمنت لهم عودة الملكية وبيْع السود الذين لم يطالب بهم مالكوهم إلى الخزينة العامة.

تحوّل الاصطياد إلى مذبحة ودفعتِ سلطات غوادالوبّه 44 فرنكاً مقابل رأس كل متمرد، وتواصل تعفن المشنوقين على قمة هضبة كونستانتين. لم تنطفئ أبداً النار التي أُشعلت لحرق السود في بليس فيكتوريا في بوانت آبيتر وارتفعت ألسنة اللهب فوق المنازل.

احتج ثلاثة بيض فحُكم عليهم من أجل كرامتهم واستيائهم؛ حُكم على الضابط الفرنسي ميليه دو لاجيرار دبير الذي مُنح أوسمة عدة مرات بالإعدام في قفص حديدي أمام الجمهور وهو جالس على أوراق شوكية عارياً، أما الاثنان الآخران باريس وباربي فقد حُطمت عظامهما قبل أن يُحرقا حيين.

1802: بركان شيمبورازو

على أسقف العالم

تسلقا فوق الغيوم وسط مهاوي الثلج متمسكين بجرم شيمبورازو الفظ ومزّقا أيديهما على الصخر العاري، تركا البغلين في منتصف الطريق وحمل همبولت على كتفه حقيبة مليئة بالأحجار التي تتحدث عن أصل سلسلة الجبال الآندية التي ولدت من تقيؤ غير عادي لبطن الأرض الساطع. اصطاد بونبلان فراشة على ارتفاع سبعة عشر ألف قدم وذبابة لا يصدق أنها موجودة على ارتفاع أعلى، ثم تابع الاثنان التسلق رغم البرد القارس والدوار والانزلاقات والدم الذي نزف من أعينهما ولثتيهما وشفتيهما المزقتين. غلفهما الضباب وهما يتسلقان إلى البركان بعمى إلى أن سطع شعاع ضوئي وكشف القمة، ذلك البرج الأبيض، أمام المسافرين المنذهلين. أيعقل أن هذا حقيقي! لم يحدث أبداً أن تسلق إنسان إلى مكان قريب من السماء وقيل إن أحصنة تطير إلى الغيوم ونجوماً ملوّنة في النهار تظهر على سطوح العالم. أهي هَلوَسة كاتدرائية الثلج هذه التي ترتفع بين السماوات الشمالية والجنوبية؟ ألا تخدعهما أعينهما المكدودة؟.

شعر همبولت بغنىً ضوئي أكثر توتراً من أي هذيان: "نحن مصنوعون من الضوء، هذا ما شعر به همبولت. نحن أنفسنا مصنوعون من الضوء والأرض والزمن أيضاً". وشعر برغبة هائلة في أن يقول هذا حالاً للأخ غوته الذي كان يسكن هناك في منزله في فايمر.

1803: حصن دوفن

احترقت الجزيرة ثانية

مات توسّا لوفيرتر زعيم السود الأحرار سجيناً في قلعة بفرنسا. حين فتح السجّان وأنزل الرتاج فجرا وجد توسّا متجمدا على كرسي.

لكن الحياة في هاييتي استمرت ومن دون توسّا وجّه الجيش الأسود ضربات لنابليون بونابرت وذُبحَ عشرون ألف جندي فرنسي أو ماتوا من الحمّى. استحال الجنرال لوكليرك دما أسود متخثرا وتحولت الأرض التي أراد أن يستعبدها إلى كفن له.

فقدت هاييتي نصف سكانها، واستمرت أصوات الطلقات ومطارق التوابيت وطبول الجنازات في كومة الرماد الواسعة المفروشة بجثث تعبث بها العقبان. هذه الأرض التي أحرقها منذ قرنين ملاك مبيد التهمتها من جديد نار رجال متحاربين.

فوق الأرض التي ينبعث منها الدخان أعلن الذين كانوا عبيداً الاستقلال. لن تغفر فرنسا أبداً لتلك الإهانة.

على الساحل، شكلت أشجار النخيل التي أحنتها الريح، صفوفا من الرماح.

1804: مكسيكو سيتي

مستعمرة إسبانيا الأغنى

كان بروفسورات اللاهوت ما يزالون يكسبون أكثر بخمس مرات من زملائهم المختصين بالجراحة أو الفلك، لكن همبولت

وجد في مكسيكو سيتي مجموعة من العلماء الشبان وكان هذا إرث بعض الكهنة اليسوعيين أصدقاء الفيزياء التجريبية والكيمياء الحديثة وبعض نظريات ديكارتٍ الذي علم وأفسد هنا رغم محكمة التفتيش، ونتج هذا أيضاً من عمل نائب الملك ريفيلا غيغيدو، ذلك الرجل المنفتح على رياح الزمن ومتحدي المذاهب القطعية والذي حكم منذ بضع سنوات هذه الأراضي بقلق مخيف حيال فقدان الآلات والمختبرات والكتب الحديثة.

اكتشف همبولت ومدح «مدرسة التعدين» وبروفسوراتها العارفين، بينما كانت المكسيك تنتج فضة أكثر من بقية العالم، ويتدفق نهر الفضة إلى أوروبا من خلال ميناء فيراكروز. حذّر همبولت في الوقت نفسه أن الأرض المحروثة قليلة ومشغولة بشكل سيء وأن الاحتكار الاستعماري للتجارة وبؤس الشعب يعيقان تطور الصناعة.

قال: "المكسيك هي أرض اللامساواة؛ إن اللامساواة الوحشية في الحقوق والثروات تصفع المرء على وجهه".

كان الكونتات والمركيزات يرسمون شعارات نبالة اشتريتْ حديثاً على عرباتهم والشعب يعيش في بؤس هو عدو للصناعة. عانى الهنود من فقر وحشي، وكما في كل أميركا، هنا أيضاً جلد أبيض أكثر أو أقل يقرر أية طبقة يشغل الإنسان في المجتمع.

1804: مدريد

النائب العام لمجلس جزائر الهند الغربية

ينصح ضد الإفراط في بيع وثائق البياض كي لا يعمّم الملونون هذه الفضائل معتقدين أنها تجعلهم مساوين للبيض من دون فرق سوى مصادفة اللون، وكي لا يظنوا أنفسهم قادرين على أن يحصّلوا جميع الأقدار والوظائف وأن يشكلوا روابط مع أية عائلة شرعية حرة من

الخلائط.. وهذه عواقب من المناسب تجنبها في الملكية حيث يـدعّم الفرز الطبقي النظام الأفضل والأمن والحكومة الجيدة...

إن الأشـخاص الملـونين أو السمر المنحـدرين مـن خلائـط مريضـة يشكلون نوعاً أدنى، والذي نظراً لطبيعتـه الفاسـدة وجهلـه وميلـه إلى الحرية، كان قليل الارتباط بحكومتنا وأمتنا...

1804: كاتاماركا

خطيئة أمبروزيو

مقيداً إلى عمود في ساحة كاتاماركا الرئيسة، تلقّى أمبروزيو ميليكي خمساً وعشرين جلدة.

أُديـنَ الخلاسـي أمبروزيـو - الـذي كـان يمتلكـه القائـد نييفـاي كاستيللو - أمام السلطات لأنه ارتكـب جـرم تعلـم القـراءة والكتابـة؛ شقوا ظهره بالسوط ليلقنـوا حـاملي القلـم الهنـود والخلاسـيين الـذين يرغبون أن يحاكوا الإسبان درساً.

كان أمبروزيو يئن ويهذي ويحلم بالانتقام منبطحاً علـى الأحجـار. توسّل في حلمه قائلا: "اعذروني وطعن نفسه بالمدية".

1804: باريس

نابليون

استحضرت أوتار الأرغن المقدسة الملوك الستين الذين حكموا فرنسا وربما الملائكة أيضاً، بينما كان البابا يقدم التاج إلى نابليون بونابرت.

كلل نابليون جبينه بغار القياصرة وهبط ببطء، ملكياً، في فرو الفاقوم واللون الأرجواني وألبس جوزفين التاج الذي كرسها كأول إمبراطورة في تاريخ فرنسا. وصلا في عربة ذهبية وكريستالية إلى عرش تلك الأمة، ذلك الأجنبي الصغير والمحارب العظيم الذي جاء من جبال كورسيكا القاسية وزوجته جوزفين المولودة في المارتينيك، الأنتيلية التي يحرقك عناقها إلى درجة الهشاشة كما يقولون. نابليون، الملازم أول في المدفعية، الذي كان يكره الفرنسيين، أصبح نابليون الأول.

تدرّب مؤسس السلالة التي تدشّن اليوم على حفل التتويج هذا ألف مرة. ارتدى كل شخص في الحاشية وكل ممثل الثياب التي حددها، وضع نفسه حيث أراد، وتحرك وفق أوامره.

آهٍ يا خوسيه لو كان بوسع والدنا أن يشاهدنا...

قام الأقرباء الجشعون، أميرات وأمراء طبقة النبلاء الجديدة في فرنسا، بواجبهم. صحيح أن الأم لايتيسيا رفضت أن تأتي وهي موجودة في القصر وتطلق الشكاوى، لكن نابليون أمر ديفيد، الفنان الرسمي، أن يمنح لايتيسيا مكاناً بارزاً في اللوحة التي ستخبر الأجيال القادمة عن هذه الطقوس.

اكتظّت كاتدرائية نوتردام بالضيوف، وكان بينهم فنزويلي شاب يمدّ عنقه كي لا يفقد أي تفصيل. مهلوساً، حضر سيمون بوليفار في سن العشرين ولادة الملكية النابليونية: لست أكثر من ماسة على مقبض سيف بونابرت...

في أثناء تلك الأيام قابل بوليفار أليكسندر فونٍ همبولت في صالون مموه بالذهب وقال له العالم المغامر الواصل حديثاً من أميركا: "أعتقد أن بلادك ناضجة للاستقلال لكنني لا أرى الرجل الذي يستطيع فعل ذلك".

1804: إشبيلية

فراي سرفاندو

لأنه أراد استقلال المكسيك ولأنه آمن أن الإله الوثني كويتزالكوتل كان الرسول القديس توماس شخصيا، حكم على سرفاندو بالنفي إلى إسبانيا.

من سجن إلى آخر ومن هرب إلى آخر حل المهرطق المكسيكي ضيفاً على أكثر الزنزانات الإسبانية تنوعاً. نجح فنان الأداة الفولاذية والنفق والقفزة العالية في السفر بعيداً في القارة العجوز.

لكن فراي سرفاندو الجوّاب ومراسل الكوكب، الطائر ذا الجناحين الرشيقين والمنقار الفولاذي دافع عن نفسه ضد سحر أوروبا بلعن كل ما كان يشاهده. كرر عند كل خطوة: أنا مكسيكي وأعتقد أن النساء الفرنسيات يمتلكن وجوهاً كوجوه الضفادع ذات الأنف الأفطس والفم الكبير، وأن الرجال في فرنسا كالنساء والنساء كالأطفال، وأن اللغة الإيطالية صنعت من أجل الكذب وأن إيطاليا هي موطن التصنّع والكذب، رغم أنها تمتلك مدينة واحدة قيمة هي فلورنسا، لأنها تشبه مدينة مكسيكية. قرأ الراهب الوقح صلاة مسبحة كاملة من اللعنات ضد إسبانيا. قال: "إن الإسبان يقلدون الفرنسيين كالقردة وإن البلاط بيت دعارة وليست الإسكوريال إلا كومة من الأحجار، وإن الباسكيين يثبتون المسامير بجباههم، والأراغونيين يفعلون مثلهم إلا أنهم يديرون رأس المسمار إلى الأعلى". قال: إن الكاتالانيين لا يتحركون خطوة من دون مصباح ولا يدخلون إلى بيوتهم أي قريب لا يحضر طعاماً، وإن الماريلينوس صانعو خيوط مسابح ممسوخون وورثو سجون حكم عليهم بمناخ يتألف من ثمانية أشهر من المطر وأربعة أشهر من الجحيم.

الآن، في زنزانة إشبيلية، ينزع فراي سرفاندو القمل من صدره بقبضته بينما يتموّج في بطانيته جيش من بق الفراش. البق يسخر من صفعاته والجرذان تسخر من اندفاعاته بعصا. كلها تريد أن تتعشى

فراي سرفاندو الذي توسل طالباً هدنة لأنه يحتاج إلى لحظة سلام ليرتب تفاصيل هربه التالي الذي كان قد أكمله تقريبا.

1806: جزيرة ترينيداد

مغامرات، مصائب

بعد أعوام كثيرة من انتظارٍ بلا طائلٍ غادر فرانسيسكو دي ميراندا لندن. دفع له الإنكليز مرتّباً جيداً جداً، قدّموا له بعض الوعود والابتسامات الكريمة لكنهم لم يقدموا له رصاصة واحدة من أجل بعثته التحريرية. هربٍ ميراندا من لوح شطرنج الدبلوماسية البريطانية وحاول أن يجرّب حظه في الولايات المتحدة.

حصل على سفينة في نيويورك ورافقه مئتا متطوعٍ، نزل على سواحل خليج كورو في فنزويلا بعد ستة وثلاثين عاماً من المنفى. وعد متطوعيه بترحيب مجيد، بالأزهار والموسيقى والتشريفات والكنوز لكنه لم يقابل سوى الصمت. لم يستجب أحد للتصريحات التي أعلنت الحرية. احتل ميراندا بلدتين وغطاهما بالرايات والسيوف وغادر فنزويلا قبل أن يهزمه خمسة آلاف جندي من كاراكاس.

تلقى أنباء رهيبة في جزيرة ترينيداد تفيد أن الإنكليز احتلوا ميناء بوينس آيرس ويخططون لغزو مونتيفيديو وفلباريزو وفيراكروز. أصدر وزير الحربية من لندن تعليمات واضحة: إن الشيء الوحيد الذي يجب أن يحدث هو بسط هيمنة صاحب جلالته البريطاني مكان هيمنة الملك الإسباني.

سيعود ميراندا إلى لندن، إلى منزله في شارع غرافتون، ويحتج بصخب. هناك يرفعون معاشه الحكومي من ثلاثمائة إلى سبعمائة جنيه إسترليني.

1808: ريو دي جانيرو

حظر حرق يهوذا

أمر الأمير البرتغالي، الذي وصل إلى البرازيل مؤخراً، بحظر الحرق التقليدي ليهوذا في أثناء أسبوع الآلام في المستعمرة. لكي ينتقموا للمسيح ولأنفسهم رمى البشر في النار، في إحدى ليالي العام، المارشال وكبير الأساقفة والتاجر الغني ومالك الأراضي الكبير ورئيس الشرطة، استمتع العراة برؤية الدمى الرثة المزينة بترف والمحشوة بالمفرقعات النارية، وهي تتلوى من الألم وتنفجر في اللهب.

من الآن فصاعداً لن يعاني رجال السلطة حتى في أسبوع الآلام، إذ إن العائلة الملكية التي وصلت لتوها من لشبونة طلبت الصمت والاحترام. كانت سفينة إنكليزية قد أنقذت الأمير البرتغالي وحاشيته ومجوهراته وأحضرته إلى هذه الأراضي البعيدة.

أنقذت تلك المناورة الفعالة السلالة البرتغالية من هجوم نابليون بونابرت الخطر الذي غزا إسبانيا والبرتغال وقدمت لإنكلترا مركز عملياتٍ مهما في أميركا. تلقى الإنكليز ضربات هائلة في الريفر بلاتا، وبعد أن طُردوا من بوينس آيرس ومونتفيديو بدؤوا تغلغلهم التالي من خلال ريو دي جانيرو عبر حلفائهم الذين كانوا من الضعف بحيث إنهم لم يضعوا شرطاً واحداً.

1809: تشوكيساكا

الصرخة

دوّت صرخة أميركا في تشوكيساكا وبينما كانت إسبانيا مضطربة وغارقة إلى عنقها في الحرب ضد فرنسا تمرّدت أميركا. تبرأ

الكرييوليون من العرش الذي كان يشغله في مدريد جوزيف بونابرت شقيق نابليون. كانت تشوكيساكا هي المبتدئة وأعلن التمرد الأميركي في سلمنكا أن سيطرة إسبانيا على جزائر الهند الغربية ستنتهي.

تشوكيساكا، والتي هي سابقاً لابلانا وشاركاس والتي ستصبح سَكَر، تقع في سفح جبلين عاشقين. ينبعث من أقنيتها وحدائقها عطر براعم الليمون، ويمر في شوارعها سادة فرسان أكثر مما يمر بشرٍ عاديون. وكانت الأردية والشعرِ الإكليركي الحليق أكثر الأشياء توفرا هنا. وكان الأطباء «محليّين» جدا ومتصلبين كعكاكيزهم المموهة بالذهب مثل الرهبان الذين كانوا يتجولون ويرشّون المنازل بالزوفا.

بدا العالم هنا آمناً وعصياً على التغيير وكان من المدهش أن صرخة الحرية صدرت عن ذلك الفم المعتاد على اللاتينية ذات النبرة العالية وسترددها «لاباز» وبوينس آيرس حالاً، وستدوّي في الشمال في المكسيك...

1810: أتوتونيلكو

العذراء غوادالوبّه
ضد العذراء ريميدوس

عبر الحشد بلدة أتوتونيلكو شاقاً طريقه عبر ستائر الغبار: تعيش أميركا، تسقط الحكومة السيئة!

نزع الأب ميغيل هيدالجو صورة العذراء غوادالوبّه، من الكنيسة وربطها إلى رمح وتوهجت الراية فوق الحشد.

تحيا سيدتنا غوادالوبّه، تسقط الكلاب الإسبانية!

توحدت حرارة الثورة مع العاطفة الدينية، قرعت أجراس كنيسة دولوريس ودعا الكاهن هيدالجو إلى الصراع وأعلنت العذراء المكسيكية

غوادالوبّه الحرب على العذراء ريميديوس الإسبانية. تحدّت العذراء الهندية العذراء البيضاء، هذه التي اختارت هنديا فقيرا على هضبة تيبيياك تتقدم ضد التي أنقذت هيرنان كورتيز في أثناء هربه من تينوشتيتلان. سترتدي سيدتنا العذراء ريميديوس لباس جنرال وبأمر من نائب الملك ستثقب فرقة الإعدام بالرصاص راية العذراء غوادالوبّه.

كان الآزتيكيون يسمّون العذراء غوادالوبّه، أم وملكة وإلهة المكسيكيين تونانتزن قبل أن يرسم جبريل كبير الملائكة صورتها في ملاذ تيبيياك. وكان الناس يتدفقون عاما بعد آخر إلى تيبيياك في موكب، ويرددون: سلاما لك يا عذراء ويا حبلى، سلاما لك أيتها العذراء الحامل! ثم يزحفون على ركبهم إلى الصخرة حيث ظهرت، إلى الشق الذي تبرعمت منه الورود: "سلاما لك يا من مسّها الله، سلاما لك يا حبيبة الله!"، ويشربون الماء من ينابيعها مردّدين: "سلاماً لك يا من تصنع عشاً لله!"، ويتوسلون من أجل المعجزات والحماية والنصيحة قائلين: "سلاماً لك يا مريم، سلاما لك يا حواء!".

الآن تتقدم العذراء غوادالوبّه وتقتل من أجل استقلال المكسيك.

1810: غواناخواتو

إل بيبيلا

تدفقت قوات هيدالجو من أدغال الجبل وانقضّت على غواناخواتو برشقات من الأحجار. انضمت بلدة المناجم إلى الحادور الثائر. ورغم الذعر الذي سببته نيران الملك تجمّع الحشد في الشوارع وتحوّل إلى سيل جرفَ الجنود وهاجم معقل القوة الإسبانية ومخزن الذرة، الذي يستلقي تحت الأسقف المقنطرة لصالاته الثلاثين ثمانية آلاف مكيال ذرة وثروة لا تُحصى من الفضة وسبائك الذهب والمجوهرات، ذلك أن سادة المستعمرة الذين ذهب الخوف بعقولهم أغلقوا على أنفسهم الأبواب مع كل كنزهم.

عبثاً توسّل المسرفون من أجل الرحمة، بعد الذبح والسلبِ بدأت سكرة كبيرة وعرّى الهنود الموتى ليروا إذا كانوا يملكون أذيالا.

كانٍ إل بيبيلا عامل المنجم، بطل اليوم. قالوا إنه رفع لوحاً حجريا ضخما على ظهره وسار كسلحفاة عبر مطر الرصاص وأشعل مخزن الذرة بمشعل وكثير من القارِ. قالوا إن اسم إل بيبيلا هو خوان خوسيه مارتينيز وإنه يمتلك أيضاً أسماء أخرى، جميع أسماء الهنود الموجودين أو الذين كانوا في مناجم غواناخواتو.

1810: غوادلجارا

هيدالجو

عرف الجميع في بلدة دولوريس أن الكاهن هيدالجو كان يمتلك عادة القراءة السيئة وهو يسير في الشوارع، وأن جناحي قبعته الكبيرين يظللان الصفحات، وربما بسبب معجزة لم تدهسه الأحصنة أو محكمة التفتيش، ذلك لأن ما كان أخطر من القراءة هو ما كان يقرأه. كان الكاهن يسير بخطواتٍ بطيئة في سحابة الغبار في شوارع دولوريس ويغطي وجهه دائما كتاب فرنسي ما، كتاب يتحدث عن العقد الاجتماعي وحقوق الإنسان وحريات المواطنين. وكان سبب عدم إلقائه للتحية على البشر تعطشه للمعرفة لا للوقاحة.

تمرّد الكاهن هيدالجو مع الهنود العشرين الذينٍ كانوا يصنعون الآنية والقدور، وبعد أسبوع أصبح العدد خمسين ألفا. عندئذ ذهبت محكمة التفتيش إليه.

أعلنت محكمة التفتيشٍ في المكسيك أنه هرطوق ومرتد عن الدين وناكر لعذرية مريم ومادي وفاجر ومدافع عن الزنا ومحرض على الفتنة، منشق ومتشيّع للحرية الفرنسية.

غزت العذراء غوادالوبّه غوادلجارا على رأس جيش متمـرد، وأزال ميغيل هيدالجو صورة الملك فرديناند عـن الجـدران وردّ علـى محكمـة التفتـيش بمرسـوم ألغـى العبوديـة وصـادر بضـائع الأوروبـيين وألغـى الجزية التي يدفعها الهنود واستعاد المزارع من الذين اغتصبوها.

1810: باي دولا كويستا

موريلوس

كان كاهناً ريفياً مثل هيدالجو ومثله ولد في بلاد تاراسكان في جبال ميشوكان، حيث أسَّسَ الأسقف فاسكو دي غيروكا منذ قرنين ونصف يوتوبياه الشيوعية، أراضي الخلاص التي دمرتها الطواعين والأشغال الشاقة التي فرضت على الهنود الذين جرّوا إلى مناجم غواناخواتو.

«بعنف أذهب إلى أراضي الجنوب الحارة».

خوسيه ماريا موريلوس، الراعي والبغال، كاهنٍ أبرشية كاراكيورا انضم إلى الثورة. انطلق مع خمسة وعشرين رمّاحاً وبعض البواريد. وكانت القوات تزداد خلف المنديل الحريري الأبيض الذي يعصب رأسه.

بحثاً عن هنود الأتوياك المختبئين في غياض النخيل، عبر موريلوس بلدة باي دو لا كويستا الصغيرة.

«من يذهب إلى هناك؟»

أجاب الهنود: الإله المقدس.

تحدث موريلوس معهم، ومن الآن فصاعداً حين يُصرخ: من يذهب إلى هناك؟ سيجيب الشعب: أميركا.

1811: بوينس آيرس

مورينو

اعتقد ماريانو مورينو أن ثروات عظيمة في أيد قليلة هي مياه آسنة لا تغسل الأرض. وهكذا كي لا يتم التخلص من الطغاة دون تدمير الطغيان، يجب أن تنتزع ملكية رأس المال الطفيلي المكدّس في المشاريع الاستعمارية. لماذا ننشد مالاً في أوروبا بسعر فائدة ابتزازية بينما هو أكثر توفراً في الوطن؟ يجب أن نحضر من الخارج الآلات والبذار بدلاً من بيانوهات «ستودارد» والأصص الصينية. فكر مارينو أن الدولة يجب أن تصبح رجل أعمال كبيراً لأمة جديدة مستقلة، ورأى أن الثورة يجب أن تكون رهيبة وماكرة و قاسية مع الأعداء ومتيقظة تجاه المتفرجين.

استلم السلطة بشكل خاطف أو هكذا ظنّ.

تنفس تجار بوينس آيرس قائلين: شكراً لله. مات ماريانو مورينو، شيطان الجحيم في أعالي البحار، ونفي صديقاه فرينش وبيروتي وحكم على كاستيللي بالسجن.

أمر كونيليو سافيدرا أن تجمع نسخ كتاب جان جاك روسو العقد الاجتماعي التي نشرها مورينو ووزّعها، وحذر قائلا: "ليس هناك مكان لأي روبسبير في الريفر بلاتا".

1811: بوينس آيرس

كاستيللي

كان هناك اثنان منهم: قلم وصوت. كان هناك روبسبير كتب، هو ماريانو مورينو، وآخر نطق. قال قائد إسباني: "جميعهم ضالون،

لكن كاستيللي ومورينو ضالان جداً". لقد سجن الخطيب العظيم خوان خوسيه كاستيللي في بوينس آيرس.

بعد أن اغتصبها المحافظون ضحت الثورة بالثوار. تجمعت التهم: كاستيللي غاو للنساء، سكير ويغش في لعب الورق ومجدف على الكنائس. لم يستطع السجين أن يدافع عن نفسه، ذلك المحرض للهنود، الباحث عن العدالة للفقراء، الناطق باسم القضية الأميركية. هاجم السرطان فمه وكان يجب أن يُقطع لسانه.

خرست الثورة في بوينس آيرس.

1811: بوغوتا

نارينو

كتب أنطونيو نارينو في كولومبيا: "لقد استبدلنا الأسياد". جردت صحيفة «لاباغاتيلا» التي أسسها وأدارها وحررها من الغلاف إلى الغلاف، الدمى من الرؤوس ورجال السلطة من المناصب. أعلن نارينو أن الانتفاضة الوطنية للكولومبيين تتحولٍ إلى لعبة مقنّعة، ونادى بوجوب إعلان الاستقلال فورا. طالب أيضا ذلك الصوت الصارخ في البرية، أن يُعترف بحق الفقراء في التصويت، وأكد أن إرادة العامي العاري تساوي إرادة السيد الغارق في المخمل.

كتب: "لقد استبدلنا الأسياد". منذ بضعة شهور اقتحم الشعب حي بوغوتا الرئيس وسجن نائب الملك وسجنت النساء نائبة الملك في سجن العاهرات، وترأس شبح خوسيه أنطونيو غالان، قائد العامة، الحشد الغاضب وعندئذ ذُعر الأطباء والأساقفة والتجار ومالكو الأراضي والعبيد. مقسمين أن يتجنبوا بأي ثمنٍ أخطاء متحللي فرنسا، ساعدوا نائب ونائبة الملك على الهرب سرا.

لقدٍ استبدلنا الأسياد. حكم كولومبيا سادة يرتدون قمصاناً منشّاة جداً وأثواباً سوداء كثيرة الأزرار. وعظ شماس الكنيسة: حتى في السماء ثمة

مراتب وحتى أصابع اليد غير متساوية. رسمت السيدات إشارة الصليب خافضات أجمة من الخصل والأزهار والشرائط تحت المانتيلا السوداء. أصدرت طغمة الوجهاء مراسيمها الأولى. بين الإجراءات الوطنية الأخرى قررت أن تسلب المسلوبين الهنود كل ما تبقى لديهم. بحجة تحريرهم من الجزية، استولت الطغمة على أراضي الهنود لتجبرهم على العمل في المزارع الكبيرة التي تنصب مُشَهِّرة وسط كل فناء.

العالم مقلوباً 1811

أغانٍ لغيتار يصحبه مغني

حين ترسم العالم مقلوباً
تراه في جميع أخطائه
يهرب الكلب مذعوراً من الثعلب
يطارد اللص القاضي مرتدياً عباءته
تتكبّر القدمان على الرأس
يتجرجر الفم في الوحل
ويُطفأ الماء بالنار
يعلّم العميان الأبجدية
ويجرّ السائق العربة
التي يركبها الثوران
يجلس نهرٌ على ضفة إنسان
يشحذ حصانه في الظل
ويسقي حدّه المفلم

1811: شيلابا

الأكرش

سحق النظام العسكري الشعبي في المكسيك وأعدم هيدالجو في شيهواهوا. قيل إنه أنكر أفكاره بعد أربعة أشهر من الأغلال والتعذيب ولم يعد الاستقلال يعتمد إلا على القوات التي تتبع موريلوس.

أرسل إغناسيو لوبيز رايون رسالة تحذير مستعجلة إلى موريلوس: عرفتُ من مصادر موثوقة أن نائب الملك دفع لقاتل كي يقتلك. ليس بوسعي أن أخبرك أي شيء عن هذا الرجل سوى أنه أكرش...

فجراً، في وثبة فرس، وصل الرسول إلى المعسكر في شيلابا. ظهراً، جاء القاتل ليقدم خدماته للقضية القومية. شابكاً ذراعيه، سمع موريلوس عرضاً من الخطابات الوطنية. من دون أن يتفوّه بكلمة أجلس القاتل على يمينه ودعاه أن يأكل معه، راقب القاتل وهو يأكل بينما هو يحدق بالصحن.

مساءً يتناولان العشاء معاً؛ كان القاتل يأكل ويتحدث ويختنق. كان موريلوس، المضيف التمثال، يستهدف عينيه.

"أمتلك شعوراً داخلياً سيئاً"، قال ذلك فجأة وانتظر أن تتوتّر العينان، أن يطقطق الكرسي، ثم قدّم الراحة: "إنه الروماتيزم ثانية. مطر".

اختصر تعبيره الجاد ضحكة.

أشعل سيجاراً و تأمّل الدخان.

لم يتجرأ القاتل على النهوض، يتلعثم شاكراً. واجهه موريلوس عن قرب قائلاً: "سأكون فضولياً".

لاحظ أن القاتل تحرك وأحصى قطرات التعرّق على جبينه. سحب السؤال: "هل أنت نعسان؟"

ومن دون أن يتوقف: "هل تشرفني وتنام إلى جانبي؟"

تمددا وكانت بينهما شمعة ترتعش من آلام انطفائها الوشيك من دون أن تقرر إن كانت ستنطفئ أم لا. أدار موريلوس ظهره، تنفس بعمق وربما شخر. قبل الفجر سمع وقع حوافر حصان يتلاشى في المسافة.

في الصباح طلب من مساعده ورقة وقلماً ثم أرسل رسالة إلى إغناسيو لوبيز رايون: شكراً للبخشيش، ليس ثمة أحد في هذا المعسكر يمتلك كرشا أكبر من كرشي.

1811: سلاسل الضفة الشرقية

لا أحد أهم من أحد

لا أحد أهم من أحد، هذا ما قاله رعاة البقر الراكبون. لا يمكن أن يمتلك الأرض أحد لأنه لا مالك للهواء. لم يعرفوا سقفاً أفضل من النجوم ولا أي مجد يقارن بحرية التجول بلا هدف عبر البراري التي تتموج كالبحر.

إن سوق القطعان في البلاد المنفتحة يعني امتلاك كل شيء. كان رعاة البقر الأميركيون الجنوبيون يأكلون اللحم فقط لأن الاخضرار هو عشب والأعشاب هي للأبقار. كان الشواء يُتوّج بالتبغ والروم وبغيتارات تغني عن الأحداث والمعجزات.

انضم رعاة البقر الأميركيون الجنوبيون، الرجال الأحرار الذين تستخدمهم المزارع وتنبذهم، إلى قوات خوسيه أرتيغاس ومذاك اشتعلت السلاسل الجبلية الواقعة في شرق نهر الأرغواي.

1811: ضفاف نهر الأرغواي

سفر الخروج

عقدت بوينس آيرس صفقة مع نائب الملك وسحبت القوات التي كانت تحاصر مونتيفيديو. رفض خوسيه أرتيغاس أن يتقيد بالهدنة التي تعيد أرضه إلى الإسبان وأقسم أن يواصل الحرب حتى ولو بالأسنان والأظافر.

هاجر القائد نحو الشمال لينظّم جيشاً للاستقلال. اتحد شعب متناثر وولد في مساراته ذلك الجيش الجوال الذي جمع رعاة البقر المتوحشين مع عبيد وعمال وطنيين من مزارع الماشية. إلى الشمال اتجهت نساء يشفين الجراح أو يحملن الرماح ورهبان يعمدون طوال الطريق الجنود حديثي الولادة. اختار الذين منحوا المأوى الجيد، قسوة برد الحياة في الخارج، والذين عاشوا بهدوء اختاروا الخطر. تقدم نحو الشمال أسياد الحروف والسكاكين، أطباء مهذارون وقطاع طرق مطلوبون لموت ما، بالإضافة إلى نازعي أسنان ومجترحي معجزات وهاربين من السفن والحصون وعبيد فارين. كان الجميع يتقدمون. وأحرق الهنود أكواخهم وانضموا إلى المسير حاملين معهم السهام ووهق الكرات فحسب..

اتجهت إلى الشمال قافلة طويلة من العربات والأحصنة والراجلين، وبينما كانوا يسيرون خلت الأرض التي ستُدعى الأرغواي من أولئك الذين أرادوا وطناً. حتى الأرض نفسها ذهبت مع أولادها داخلة فيهم ولم يبق شيء في الخلف، لا رماد ولا صمت.

1812: كوشابامبا

نساء

هرب رجال كثيرون من كوشابامبا لكن لم تهرب امرأة واحدة. كان ثمة صخب كبير في سفح الهضبة؛ كانت نساء كوشابامبا العاميات المستاءات يقاتلن في مركز دائرة النار.

محاصرات بخمسة آلاف جندي إسباني قاومن بمدافع صفيحية مكسّرة وبعض البواريد، قاتلن إلى آخر صرخة، صرخة ستتردّد أصداؤها طوال الحرب الطويلة من أجل الاستقلال. وكلما ضعف جيشه كانٍ الجنرال مانويل بيلغرانو يصيح تلك الكلمات التي لن تفشل أبداً في استعادة الشجاعة وزيادة الغضب. كان الجنرال يسأل جنوده المترددين: «هل نساء كوشابامبا هنا؟».

1812: كاراكاس

بوليفار

دمَّر زلزالٍ كاراكاس ولاغوايرا وسان فيليبي، باركويزيميتو ومريدا. كانت مدناً فنزويلية أعلنت الاستقلال. في كاراكاس، مركز التمرد، مات عشرة آلاف شخص تحت الأنقاض، ولم يُسمع شيء سوى التضرعات واللعنات بينما كان البشر يبحثون عن الجثث بين الأنقاض.

أيمكن أن يكون الله إسبانياً؟ لقد ابتلع الزلزال المشانق التي نصبها الوطنيون ودمّر جميع الكنائس التي غنّت صلاة الشكر والحمد على شرف الجمهورية التي في طور النشوءٍ. كان العمود الذي يحمل شعار النسب الإسباني ما يزال منتصباً في كنيسة مرسيدس المهدمة. أما

كورو ومراكيبو وبلنسية وأنغستورا، المدن التي كانت موالية للملك، لم تعان من خدش واحد.

احترق الجو في كاراكاس وصعد من الأنقاض غبارٍ كثيف لا تستطيع العين اختراقه. خطب راهب ليحرّض الناس قائلاً إن الله لن يسمح بوقاحة كهذه بعد الآن.

«الانتقام!»

تجمّع البشر حوله في ما كان دير سان جاسينتو. جالساً على أنقاض المذبح طلب الراهب معاقبة الذين سبّبوا غضب الله.

«الانتقام!» زأر سوط يسوع وأشارت إصبعه المتهمة إلى ضابط وطني كان يتأمل المشهد وذراعاه مشبوكتان. أثير الحشد ضد الضابط القصير، النحيل الذي يرتدي بزة متألقة وتقدم ليسحقه.

لم يتوسل سيمون بوليفار ولم ينسحب؛ هاجم مشهراً سيفه، غاص في الهياج، صعد المذبح وبضربة واحدة قتل راهب القيامة.

تفرّق البشر صامتين.

1813: شيلبانثينكو

الاستقلال ثورة أو كذبة

بعد ثلاث حملات عسكرية سيطر موريلوس على جزء جيد من المكسيك. كان كونغرس جمهورية المستقبل المتجول، يسافر وراء قائده. وكان النواب ينامون على الأرض ويأكلون طعام الجنود.

في ضوء شمعة كبيرة وضع موريلوس مبادئ الدستور الوطني. اقترح أميركا كاثوليكية حرة ومستقلة وألغى جزية الهنود وفرض ضريبة دخلٍ ورفع أجور الفقراء وصادر بضائع الأعداء، أسس حرية التجارة واضعاً حواجز تعرفة، قمع العبودية والتعذيب وألغى النظام الطبقي

الذي يبني الفروق الاجتماعية على لون الجلد بحيث إن الرذيلة والفضيلة فحسب تميزان أي أميركي عن الآخر.

تلقّى الكريبيوليون الأغنياء صدمة بعد أخرى بينما كانت قوات موريلوس تتقدم منتزعة الثروات وموزعة المزارع. أهي حرب ضد إسبانيا أم انتفاضة أقنان؟ لم يكن هذا نوع الاستقلال الذي تاقوا إليه. سيصنعون استقلالاً آخر.

1814: سان ماتيو

بوفز

كانت كلمة الاستقلال في فنزويلا لا تعني أكثر من حرية التجارة بالنسبة للأغنياء الكريبيوليين.

كان السود والسمر ينظرون إلى زعيم الإسبان، الهرقل ذي اللحية الحمراء والعينين الخضراوين، كزعيم لهم. هرب العبيد ليعثروا على خوسيه توماس رودريغز بوفز، بابا بوفز. أشعل عشرة آلاف خيّال النار في المزارع وذبحوا السادة باسم الإله والملك. كانت راية بوفز الجمجمة التي على أرض سوداء، تعد بالنهب والانتقام والحرب حتى الموت ضد أوليغاركية الكاكاو التي رغبت بالاستقلال عن الإسبان. في سهول سان ماتيو، امتطى بوفز خيوله إلى منزل عائلة بوليفار ونحت اسمه بمدية على باب الدهليز الرئيس.

لم يتب الرمح ولم تتب الرصاصة. قبل أن يقتل بالرصاص كان بوفز يطلق طلقات متتالية من البارود ويستمتع برؤية تعابير وجوه ضحاياه. كان يوزّع فتيات أفضل العائلات على أشجع جنودِهِ ويستمتع بمصارعة وطنيين رشيقين بعد أن يثبت في أعناقهم سهاماً، وكان يقطع الرؤوس كأن الأمر مزحة.

بعد وقت قصير سيخترقه رمح وسيدفن بقدمين مقيدتين.

1815: سان كريستوبال إيكاتيبك

جاءت البحيرة من أجله

قبض الإسبان على خوسيه ماريا موريلوس على الحافة الخطرة لتزيمالاكا. بعد أخطاء وهزائم كثيرة اصطادوه في العليق ممزّق الثياب من دون سلاح أو مهاميز.

قيدوه وشتموه وسأله المقدم يوجينيو فيلاسانا: "ماذا ستفعل لو كنت الرابح وأنا المهزوم؟".

أجابه الكاهن موريلوس: "سأمنحك ساعتين لتعترف ثم سأطلق عليك النار".

ساقوه إلى الزنزانات السرية لمحاكم التفتيش.

أذلوه وهو راكع على ركبتيه وأطلقوا عليه النار في ظهره. قال نائب الملك إن المتمرد مات تائبا. وقال الشعب المكسيكي إن البحيرة سمعت صوت رصاص فرقة الإعدام وطافت كي تحمل جسده.

1815: باريس

بحّارة البحار والمكتبات

روى الكاتب والرحالة جوليان ميليه مغامراته في أميركا الجنوبية للجمهور الأوروبي. وصف، بين أشياء أخرى، رقصة حية وداعرة جدا تمارس كثيراً في كيلوتا في تشيلي وأحضرها السود من غينيا، متظاهرا بالنظر إلى جهة أخرى. نسخ ميليه رقصة يقوم بها السود في مونتيفيديو كما روى الرحالة أنطوني هيلمز قبل ثماني سنوات في

لندن. سرق هيلمز نصه سطراً سطراً من الكتاب الذي نشره دوم برنيتي في باريس عام 1770. من ناحيته، صوّر برنيتي في البداية رقصة عبيد مونتيفيديو بكلمات تتشابه بشكل مدهش مع الكلمات التي خصصها الأب جان بابتيست لابات لسود هاييتي في كتاب نشر منذ نصف قرن في لاهاي.

سافرت نصوص الأب لإبات أكثر من مؤلفها من الكاريبي إلى مدينة كيلوتا التشيلية مرورا بمونتيفيديو، ومن لاهاي إلى باريس مرورا بلندن من دون جواز سفر أو قناع.

1815: مريدا، يوكاتان

فرديناند السابع

عبر سادة يوكاتان المتمسكون بالرسميات ساحة دي أرماس في مريدا مبيضين من الغبار والشمس، ودخلوا الكاتدرائية في موكب وقور جدا. لم يفهم بائعو الطعام والعقود الهنود الذين يجلسون في رواق المعبد لماذا ترن الأجراس بمرح، ولا يعرفون من هو الرأس المتوج الذي يحمله السادة على راية.

كانت الأرستقراطية الاستعمارية تحتفل بأنباء قادمة من مدريد. عرف بعد فوات الأوان أن فرنسا طردت واستلم فرديناند السابع الحكم في إسبانيا. أفاد الرسل أن الصرخة التي سمعت حول الملك هي: تعيش الأغلال! وبينما كان مهرجو البلاط يرنون أجراسهم الصغيرة، أمر الملك فرديناند بسجن وقتل العصابات التي أحضرته إلى العرش، أحيا محاكم التفتيش واستعاد امتيازات الإكليروس وطبقة النبلاء.

1815: كوروثو كواتيا

الجلود تدور في «الريفر بلاتا»

بضربة رمح، يصل الهلال ذو الحافة الحادة إلى ساقي الحيوان الهارب. ضربة أخرى فقط، يضرب الخيّال متأكدا من الإصابة فيعرج العجل ويشهق ويسقط. يترجل الخيال، يقطع الحنجرة ويبدأ عملية سلخ الجلد.

لا يتم القتل دائماً بهذه الطريقة، من الأسهل سوق القطيع البري بصرخات إلى الحظائر وذبحه هناك، كانت تجمع آلاف مؤلفة من الماشية البرية أو الأحصنة وتُقاد إلى الموت. وكان هذا أسهل من مفاجأة الحيوانات في التلال ليلا وهي نائمة.

ينزع راعي البقر الجلد وينشره في الشمس وما لا يريده الفم مما تبقى يُترك للغربان.

كان الشقيقان روبرتسون، جون وليم التاجران الإسكتلنديان يتجولان في هذه الأراضي بأكياس بدت كالسجق محشوة بالذهب. أرسلا من مزرعة ماشية في كوروثوكواتيا عشرة آلاف جلد إلى بلدة غويا في ستين عربة.

كانت العجلات الخشبية الضخمة تصر وهي تنعطف بينما تحث المناخس الثيران على السير. تتغلغل العربات في الريف، تتسلق التلال، تعبر المستنقعات والأنهار الطامية. حين يخيم الليل تصف العربات في دائرة مشكلة موقدا. حين يدخن رعاة البقر ويشربون المتة يعبق الجو برائحة اللحوم التي تُشوى على الجمر، وبعد تناول اللحم المشوي تُروى الحكايات وتُسمع الغيتارات.

تسافر الجلود من مدينة غويا إلى ميناء بوينس آيرس وتعبر المحيط إلى مصانع ليفربول. حين تعود الجلود إلى الريفر بلاتا متحولة إلى أبواط وأحذية وسياط بريطانية الصنع، تتضاعف الأسعار مرات عديدة.

1815: بوينس آيرس

يبحث النبلاء عن ملك في أوروبا

كتب قلم ريشة الإوزة، خوسيه أريتغاس خائن لبلاده. قدموا له الذهب والفضة عبثاً. حسب البقالون الخبراء في قياسات اليارده والموازين الدقيقة بالإضافة إلى أرستقراطيي بوينس آيرس سعر أرتيغاس حياً أو ميتاً. كانوا جاهزين لدفع ستة آلاف دولار إسباني مقابل رأس قائد معسكرات التمرد.

لكي يخلص هذه الأراضي من راعي البقر، قدمها كارلوس دي ألفير للإنكليز. كتب ألفير إلى اللورد كاسلرلي قائلا: تريد هذه المناطق أن تنتمي إلى بريطانيا العظمى من دون أية شروط. وتوسل إلى اللورد سترانغفورد قائلا: لا يمكن أن تترك الأمة البريطانية سكان الريفر بلاتا لقدرهم وهم يرمون أنفسهم بين ذراعيها الكريمتين...

سافر مانويل دي ساراتي إلى لندن بحثاً عن ملك يتوّجه في بوينس آيرس. كان الداخل الجمهوري والفيدرالي يهدد امتيازات المرفأ والذعر ينتشر عند أي قسم بالولاء. في مدريد، قدم مانويل بيلغرانو وبرناردينو ريفادافيا، اللذان كانا جمهوريين متحمسين، العرش للرضيع فرانسيسكو دي بولا، شقيق فرديناند السابع. وعد مبعوثو ميناء المدينة بسلطة وراثية تشمل منطقة الريفر بلاتا كلها وتشيلي وحتى البيرو. ستحصل المملكة المستقلة على راية سماوية وبيضاء وستكون الحرية والملكية مقدستين، وسيتشكل البلاط من كرييوليين مميزين مرفعين إلى دوقات وكونتات ومركيزات.

لم يقبل أحد.

1815: معسكر التطهير

أرتيغاس

هنا كان يحكم الجنرال أرتيغاس على نجد أرجواني محاط بالتجاويف والأودية، حيث يجن النهر ويغلي في دوامات وزوابع. إن هذه المساكن الألف، أكواخ الطين والقش ذات النوافذ الجلدية التي يعيش فيها الكريبيوليون الفقراء هي عاصمة كونفدرالية شعوب الداخل في الريفر بلاتا. كانت الأحصنة تنتظر أمام كوخ الحاكم الرسل الذين يأتون ويذهبون محضرين النصيحة وآخذين المراسيم. ولم تكن ثمة شذابات أو أوسمة تزين بزة قائد الجنوب.

كان أرتيغاس، ابن السهول، مهرباً وصياداً للمهربين. كان يعرف تعرجات جميع الأنهار، أسرار الهضاب ورائحة أعشاب جميع الحقول. وكان يعرف بشكل أكثر عمقاً الأرواح المحتشمة لرعاة البقر الذين يملكون أرواحهم فحسب، وكانوا يضحون بها في زوبعة مهلوسة من الرماح.

كانت رايات أرتيغاس ترفرف فوق الإقليم الذي يرويه نهرا الأرغواي والبارانا والذي يمتد إلى سلسلة جبال كوردوبا، وكانت تقتسم ذلك المكان الفسيح المناطق التي رفضت أن تكون مستعمرة لـ«بوينس آيرس» بعد أن تحررت من إسبانيا.

كان ميناء بوينس آيرس يعيش مديرا ظهره للأرض التي يحتقرها ويحبها. وكان التجار يلتصقون بالنوافذ المترصدة منتظرين السفن التي تحضر الجديد من الملابس والأفكار والكلام، لكنها لا تحمل ملكاً.

أراد أرتيغاس أن يبني حواجز ليصدّ حادور البضائع الأوروبية، ليدافع عن فنوننا ومعاملنا مانحا حرية المرور فقط للآلات والكتب والأدوية. وحوّل إلى ميناء مونتيفيديو التجارة الإقليمية التي احتكرتها بوينس آيرس طويلا. لم ترد العصبة الفيدرالية الآرتيغية ملكا، بل مجالس وهيئات من المواطنين، ولكي يكمل أرتيغاس الفضيحة طبّق الإصلاح الزراعي.

1816: سلاسل الضفة الشرقية

الإصلاح الزراعي

كانوا يصيحون في بوينس آيرس: جريمة دموية! وكان أرتيغاس ينتزع ملكية الأراضي، شرق نهر الأرغواي، من عائلتي بيلغرانو وميتر ومن عائلة حمي سان مارتن ومن برناردينو ريفادافيا وآزكويناغا ألماغرو ودياث فيليث. اعتبروا الإصلاح الزراعي في مونتيفيديو مشروعاً إجرامياً. سجن أرتيغاس لوكاس أوبيس وخوان ماريا بيريز وفنانين آخرين مختصين بالرقصة البطيئة والشعوذة.

كان راعي البقر ملقماً للمدافع أو قناً في مزرعة كبيرة للمواشي بالنسبة لمالكي الأرض، للتهمي فدادين الأرض التي تؤكل بمباركة من الملك أو بالاحتيال والسلب. وكل من يرفض ذلك يوضع في آلة التعذيب الخشبية أو يصلب على الحائط.

أراد أرتيغاس أن يمتلك كل راعي بقر قطعة أرض. غزا الفقراء مزارع المواشي الكبيرة وبدأت الأكواخ وقطع الأرض المحروثة تظهر في السلاسل الشرقية التي دمرتها الحرب. بدأ الفلاحون المداسون يدوسون، ورفض الرجال الذين وضعوا حياتهم في خط المواجهة في حرب الاستقلال قبول ظلم آخر. اعتبر مجلس بلدة مونتيفيديو أن إنكارناسيون بينيتيث، جندي أرتيغاس الذي كان ينطلق على حصانه موزعاً الأرض والماشية على رأس قوات من الأوغاد، خارجاً عن القانون، منحرفاً، متسكعاً، ومحرضاً. وجد الفقراء ملاذاً في ظل رمحه لكن هذا الرجل الأسمر، الأمي، الشجاع وربما المتوحش، لن يكون أبداً تمثالاً ولن تحمل اسمه أية جادة أو شارع أو طريق جانبي.

1816: هضبة شيكوتي

فن الحرب

حاصر المشاة الملكيون حفنة من وطنيي البيرو العليا على هضبة شيكوتي.

صرخ الجندي بدرو لوايزا: "لن أستسلم للعدو"، ورمى نفسه من فوق الجرف.

أعلن الآمر إيوسبيو ليرا وهو يركض أيضاً إلى الجرف: "سنموت من أجل الوطن"

أجاب رائد الطبل خوسيه سانتوس فارغاس على نحو مفاجئ وهو يمنعه: "سنموت إذا كنا معتوهين".

لنحرق العشب الجاف. هذا ما اقترحه الرقيب جوليان ريناغا.

التهب العشب الطويل ووجهت الريح ألسنة اللهب نحو صفوف الأعداء. اندفعت النار متموجة إلى الأمام. هرب المحاصِرون مرتبكين ومرعوبين وهم يرمون بنادقهم وذخيرتهم ويتوسلون الإله من أجل الرحمة.

1816: تارابوكو

خوانا أثوردوي

إنها متبحرة في علوم الدين وولدت لتصبح راهبة في دير تشوكيساكا، لكنها الآن تحمل رتبة مقدم في جيوش عصابات

الاستقلال. تبقى من أولادها الأربعة ذاك الذي ولد في وطيس المعركة وسط رعد الخيول والمدافع، وعُلق رأس زوجها على رمح إسباني.

تمتطي خوانا حصانها في الجبال أمام رجالها وشالها يرفرف في الريح، إحدى قبضتيها تمسك الأعنة والأخرى تقطع الرقاب بالسيف.

كان كل شيء تأكله يتحول إلى شجاعة ولم يسمّها الهنود خوانا بل باتشاماما، الأرض الأم.

1816: بور أو برانس

بيتيون

كانت هاييتي تستلقي في الأنقاض، يحاصرها الفرنسيون ويعزلها الجميع. لم تعترف أية دولة باستقلال العبيد الذين هزموا نابليون. قسمت الجزيرة إلى جزيرتين.

أعلن هنري كريستوف نفسه إمبراطوراً في الشمال. وفي حصن سانس سوسي كانت طبقة النبلاء السود الجديدة ترقص الرقصة البطيئة ـ دوق المارملاد، كونت الليموناضة ـ بينما كان الخدم السود الذين يرتدون لمات شعر بيضاء مستعارة ينحنون ويمسحون الأرض، وكان الخيالة السود يعرضون قبعاتهم المريّشة في حدائق نُسِخت عن حدائق فرساي.

في الجنوب ترأس أليكسندر بيتيون الجمهورية. وكان يهدف من خلال توزيع الأراضي على العبيد السابقين إلى خلق أمة من الفلاحين، فقيرة جداً لكنها حرة ومسلحة، على رماد المزارع التي دمزتها الحرب.

هبط سيمون بوليفار على ساحل هاييتي الجنوبي بحثاً عن الملاذ والمساعدة. جاء من جامايكا حيث باع كل شيء حتى ساعته اليدوية. لم يؤمن أحد بقضيته ولم تكن حملاته العسكرية المتألقة أكثر من سراب. كان فرانسيسكو ميراندا يموت راسفاً في أغلاله في مستودع

قادش. وغزا الإسبان من جديد فنزويلا وكولومبيا اللتين تفضلان الماضي ولا تؤمنان بالمستقبل الذي يعد به الوطنيون.

استقبل بيتيون سيمون بوليفار فورِ وصوله يوم رأسٍ السنة. قدم لـهٍ سبع سفن ومِئتين ٍوخمسين رجلا وبنادق وِبارودا ومؤونة ونقودا واشترط شرطا واحدا: بيتيون الذي ولد عبدا من أم سوداء ورجل فرنسي، طلب من بوليفار أن يحرر العبيد في الأراضي التي يحررها.

صافحه بوليفار. ستغير الحرب مسارها، وربما أمريكا أيضاً.

1816: مكسيكو سيتي

إل بيريكيللو سارنينتو

ولدت الرواية الأميركية اللاتينية الأولى في مطبعة في شارع ثليتا. روى خوسيه جواكين فيرنانديز دي ليزاردي مصائب إل بيريكيلليو سارنينتو في ثلاثة أجزاء فالتهمها القراء واحتفوا بها. منع نائب الملك الجزء الرابع حين كان على وشك الظهور لكن لم تكن ثمة طريقة لسجن الشخصية.

ربح إل بيريكيلليو، سليل الصعلكة الإسبانية، شوارع المكسيك. كان يتجول في كل مكان معرّياً العادات والتقاليد ويقفز عن طاولة القمار إلى مكتب الموثّق العام ومن كرسي الحلاق إلى أرضية السجن. ثمة كثيرون لم يستمتعوا بمغامراته وأغرقه الكاهن بمواعظه الأخلاقية، لكن ليزاردي، الأخلاقي المتنور، كان يحول كل لعبة إلى شيء له مغزى.

1817: سانتياغو دي تشيلي

الشيطان يعمل

كان شباب أنيقون يدخنون السجائر في مشارب ذهبية كي لا يلوّثوا أصابعهم لكن سانتياغو دي تشيلي كانت محاصرة من جهاتها الأربع بالقمامة. كانت المنازل تطل من ناحية الشمال على مزبلة نهر مابوتشو، وفي الجنوب كانت القمامة تتكوّم في الوادي. كانت الشمس تشرق علي جبال القمامة المتكوّمة على هضبة سانتا لوسيا وتضيء أشعتها الأخيرة المزابل في ضواحي سان ميغيل وسان بابلو.

من إحدى هذه المزابل خرج الزائر الذي عبر المدينة البارحة كرشقة من الكبريت جعلت شمعات الشحم الحيواني ترتعش في مصابيح الشارع، ودار بفضول أو تهديد حول معبد كومبانيا إلى أن أعلن صوت الحارس الساعة الحادية عشرة.

سلام لك يا مريم الشريفة!

هرب الشيطان بسرعة قصوى.

تجول الحذاء الذي فقده في سانتياغو من منزل إلى آخر. كان يحمله كاهن على صينية فضية ويغطيه برداء. وكانت السيدات الورعات يرسمن إشارة الصليب فوقه.

1817: سانتياغو دي تشيلي

مانويل رودريغز

كان كل من يتحدث عن تحرير أميركا يوقّع أمر موته وكل من يتلقى رسالة من مندوزا يُسيّر إلى المشنقة أو إلى فرقة الإعدام. وكانت محكمة الاحتراس تطلق يد المخبرين في سانتياغو دي تشيلي.

كان الوطنيون يعيدون تنظيم الجيش الذي سحق الإسبان بين مندوزا وسانتياغو. كانت رياح المقاومة تهب وتهدأ عابرة روعة ثلج سلسلة الجبال من دون أن تترك أثرا.

مرّر الرسول أمراً في أثناء مصارعة الديكة في سانتياغو وآخر في حفلة ساهرة، والتقط في الوقت نفسه تقريرا بين سباقين للخيول في الضواحي. يعلن الرسول عن نفسه بثلاث نقرات على باب منزل كبير في الضواحي، وفي الوقت نفسه يبزغ في الجبال على ظهر بغل ويعدو في السهول على حصان. كان رجل حرب العصابات يهاجم في مليبيلا ويترجّل في بومير ليشرب كأسا من الخمر.

سعّر الحاكم الإسباني رأس مانويل رودريغز، الرسول، رجل حرب العصابات، لكن رأسه كان يسافر مختبئا تحت قبّعة كاهن وصمبريرة بغال، سلة بائع جوال أو الغطاء البلشي الرائع لسيد. لم يستطع أحد أن يقبض عليه لأنه يطير من دون أن يتحرك ويخرج داخلا ويدخل خارجا.

1817: مونتيفيديو

صور لملحمة

جاء جيش عرمرم من ريو دي جانيرو براً وبحراً لكي يقضي على خوسيه أرتيغاس وليمحو حتى ظل ذاكرة مثاله المعدي. غزا البرازيليون بالنار والسيف معلنين أنهم سينظفون السهول من هذه العصابات. وعد الجنرال ليكور أن يعيد حقوق الملكية والوراثة التي تضررّت.

دخل ليكور إلى مونتيفيديو تحت ظُلّةٍ، وقدّم الأب لاراناغا وفرانسيسكو خافيير دي فيانا مفاتيح المدينة إلى مخلصي المستعمرات الزراعية الكبيرة. رمت السيدات زهورا وأقواسا زرقاء صغيرة في طريق العرض الفائق للعادة المؤلف من أشرطة الزينة والزخارف والريش. قُرِعَتْ أجراس الكاتدرائية الضجرة من رنينها للجنازات وتأرجحت المَباخر جيئة وذهاباً، وهكذا فعل رجال الأعمال الذين لا تنتهي انحناءاتهم ومسحهم للأرض أبداً.

1817: كيتو

مانويلا ساينث

ولدت كيتو بين البراكين، مرتفعة وبعيدة عن البحر، وبين الكاتدرائية والقصر، في الساحة الرئيسة، ولدت مانويلا. وصلت إلى كيتو على سرير من الساتان أغطيته من بروكسل، ابنة لعلاقة حب سرية عاشها الدون سيمون ساينث قاتل الكريبوليين الذين تمردوا هنا.

في سن الخامسة عشرة ارتدت مانويلا ثياب الرجال ودخنت وروضت الخيول. لم تركب على السرج الجانبي كالسيدات بل بساقين منفرجتين وبطقم ساخر. كانت صديقتها المفضّلة عبدتها السوداء جوناتاس التي كانت تموء كالقطة وتغني كطائر وتتموج كأفعى حين تسير. كانت مانويلا في السادسة عشرة حين سجنوها في أحد الأديرة الكثيرة لهذه المدينة المؤمنة والمذنبة، حيث يساعد الكهنة الراهبات العجائز على تحصيل موت جيد، والشابات على عيش حياة جيدة.

تعلمت مانويلا في دير سانتا كاتالينا التطريز والعزف على موتّرة المفاتيح، أن تتظاهر بالفضيلة وأن يغمى عليها وتُشيحَ بصرها. في سن السابعة عشرة، وبعد أن جنّت من النظام، هربت مع فاوستو دي إلهويار، ضابط الملك.

في سن العشرين تألقت؛ أراد جميع الرجال أن يكونوا محارة تلك اللؤلؤة. زوجوها لجيمس ثورن، الطبيب الإنكليزي المحترم. استمرت الحفلة أسبوعا كاملا.

1818: معسكر كولونيا

حرب الخاسرين

لم يبقَ في جيشٍ أرتيغاس إلاّ العراة. كان الذين لا يملكون سوى حصان، وأيضا السود والهنود يعرفون، أن قدر كل شخص في هذه الحرب مهدد. هاجم الخيالة المتمردونٍ من الحقول والأنهار بالرماح والسكاكين البرازيليين المسلحين جيدا. وكانوا يتلاشون في ومضة كالطيور.

وبينما كانت الأبواق تدعو إلى الذبح في هذه الأرض المغزوة كانت حكومة بوينس آيرس تنشر دعاية موجهة إلى الذين يملكون بضائع يخسرونها. كانت وريقة وقعها «صديق النظام»، تدعو أرتيغاس جنيا

شريراً، رسول الكذب، ذئباً نهماً، سوط بلاده، آتيلا جديداً، عار القرن وإساءة للسلالة البشرية.

أحضر أحدهم الوريقة إلى المعسكر. قال أرتيغاس من دون أن يزيح عينيه عن النار: "إن شعبيَ لا يعرف القراءة".

1818: كريانتاس

أندريسيتو

قال أرتيغاس عن الهنود الذين عانوا من الموت الكثير نتيجة موالاتهم له: "سَتُلَبّى حقوقهم أولاً".

كان أندريه كواكوراري، أندريسيتو، الهندي الجواراني، الابن الذي تبناه أرتيغاس، هو الزعيم. لقد غزا كريانتاس منذ شهرين بطوفان من الرجال وبالسهام ضد البنادق وسحق حلفاء بوينس آيرس.

دخل هنود أندريسيتو المدينة عراة إلا من طين المسير وبعض الأسمال. أحضروا بعض الأطفال الهنود الذين حولهم سكان كريانتاس إلى عبيد. قوبلوا بالصمت والمصاريع المغلقة، ودفن آمر الحامية ثروته في حديقته ومات الكاتب بالعدل من الذعر.

لم يكن الهنود قد تناولوا الطعام لبعضٍ الوقت لكنهم لم يأخذوا أو يطلبوا شيئاً. حالما وصلوا قدموا عرضا مسرحيا تبجيلا للعائلات الرئيسة؛ أجنحة ضخمة من الورق الفضي نشرت على أطر قصبية حوّلت الهنود إلى ملائكة حارسة. مثلوا، لا لأحد، لأن أحدا لم يأت، مسرحية «إغواء القديس إغناطيوس» وهي تمثيلية إيمائية قديمة تعود إلى فترة اليسوعيين.

قال أندريسيتو: إذن، لا يريدون أن يحضروا حفلات هندية؟ أشعل سيجارا كبيراً وخرج الدخان من أذنيه وعينيه. في الفجر، قُرعَت طبول الحرب. أجبر أكثر سادة كريانتاس احتراماً، بسن

الرمح، على قطع عشب الساحة وكنس الشوارع حتى أصبحت شفافة. تابع السادة طوال النهار تلك المهمة النبيلة وفي تلك الليلة أصاب تصفيقهم في المسرح الهنود بالصمم.

حكم أندريسيتو كريانتاس إلى أن أرسل آرتيغاس في طلبه. كان الهنود يتحركون على الطريق مرتدين أجنحة فضية عملاقة، كانت الملائكة تسير راكبة صوب الأفق وكانت الشمس توهّجها وتمنحها ظل نسور طائرة.

1818: نهر بارانا

القراصنة الوطنيون

اتجهت قوات أندريسيتو إلى سانتا في بمحاذاة النهر، وكان أسطول صغير من القراصنة الوطنيين يرافق الهنود في نهر البارانا.

القوارب الصغيرة، اللنشات وبعض السفن الشراعية المسلحة جيداً جعلت الحياة مستحيلة للسفن التجارية البرازيلية. كان علم أرتيغاس ثلاثي الألوان يبحر في الأنهار والبحر وفي كل مكان ويقاتل. كان القراصنة يعرّون سفن الأعداء بشكل مفاجئ ويأخذون ثمار غاراتهم إلى جزر الأنتيل البعيدة.

كان بدرو كامبل هو أميرال تلك السرية من السفن والقوارب الصغيرة. وصل إلى هنا مع الغزاة الإنكليز منذ أعوام، هُجر وعمل في البراري. أصبح راعي البقر الإيرلندي ذو الشعر المثبّت بطوق، والتعبير الشرس الذي يبزغ من تحت كتلة من شعر أحمر، مشهورا حالاً. حين عيّنه أرتيغاس رئيساً على القراصنة، كان كامبل قد جرح سابقاً في مبارزات كريبيولية واتهم بالقتل لا بالخيانة.

كان الجميع يعرفون أن مديته الفضية أفعى لا تلدغ أبداً غيلة.

1818: سان فرناندو دي آبيور

الحرب حتى الموت

كان بوليفار يركب على رأس جيش سحقته الهزائم، تظلّل رأسه قبعة حاج، وفي الظل تتوهج عينان تلتهمان عندما تنظران وابتسامة كئيبة.

كان بوليفار يمتطي حصان رافايل لوبيث الذي توفي. كان السرج يحمل الأحرف الأولى للرجل الميت، الضابطِ الإسباني الذي تلقى طلقة عن بوليفار حين كان الزعيم الوطني نائماً في أرجوحته الشبكية.

فشل الهجوم الشمالي.

في سان فرناندو دي آبيور راجع بوليفار ما تبقى من قواته. «إنه مجنون»، هذا ما ظنه أو غمغم به جنوده الحفاة المنهكون والمصابون حين أعلن أنهم سيشنون حالاً الحرب المقدسة، الحرب حتى الموت في كولومبيا والبيرو إلى قمة بوتوسي.

1819: أنغوستورا

المبتدئون: المجلس التأسيسي

تحت ظلّة، على ظهر سفينة تبحر في نهر أرينوكو، أملى بوليفار على أمناء سرّه دستوره المتخيّل. كان يصغي ويصحح ويمليه ثانية في المعسكر بينما يصدُّ عنه دخان النار البعوض. أحضرت سفن أخرى النواب من كاراكاس وبرشلونة وكوامانا وغويانا وجزيرة مارغريتا.

فجأة، تغيرت رياح الحرب، ربما تبجيلاً لعناد بوليفار، وفي ومضة سقطت نصف فنزويلا في أيدي الوطنيين.

نزل الموفدون إلى الكونغرس في ميناء أنغوستورا، البلَدة ذات المنازل الصغيرة التي رسمها طفل. كانت صحيفة إل كوريو ديل أرينوكو تطبع هنا في مطبعة للدمى أسبوعاً بعد آخر. من الغابة نشرت أداة الفكر الجمهوري هذه مقالات أطباء كريوليين وإعلانات عن وصول البيرة وسكاكين الجيب وعدّة الخيول والجنود المتطوعين القادمين من لندن.

حيّت ثلاث رشقات مدفعية بوليفار وهيئة أركانه العامة. حلقت الطيور، لكن طائر مقو اختال غير مبالٍ بخطوات الشخص الفظ.

صعد النواب الدرج الحجري.

افتتح فرانسيسكو أنطونيو ثي، رائد أنغستورا، الجلسة. قارن خطابه هذه الناحية الوطنية مع ممفيس وطيبة والإسكندرية وروما.

عيَّن الكونغرس بوليفار قائداً للجيش ورئيساً مطلق الصلاحيات، وسمّي أعضاء مجلس الوزراء.

فيما بعد، اعتلى بوليفار المنصة وحذّر: إن الجهلة يخلطون بين الواقع والخيال وبين العدالة والانتقام... شرح أفكاره حول الحاجة إلى خلق كولومبيا كبرى ووضع أساس دستوره المتصور، الذي بُنِيَ على أساس الميثاق العظيم للحريات (Magna Carta) في إنكلترا.

1820: بوكيرون يمر

خاتمة

لم تستطع الموانئ الجنوبية الثلاثة الكبيرة ريو دي جانيرو وبوينس آيرس ومونتيفيديو أن تنتصر على الجيوش الريفية لخوسيه أرتيغاس

زعيم الداخل، لكن الموت كان له الحظ الأوفر وأخذ نصف شعبه. انتهى نصف رجال الحملة الشرقية إلى بطون الطيور آكلة الجثث. مات أندريسيتو في سجن وأسر لافاليخا وكامبل والآخرون ولجأت قلة إلى الخيانة. سمى فركتوسو ريفيرا أرتيغاس مجرماً واتهمه بوضع الملكية تحت رحمة الطغيان والفوضى. أعلن فرانسيسكو راميريث من إنتري ريوس أن أرتيغاس هو سبب وأصل جميع شرور أميركا الجنوبية، وأحدث إستانيسلاو لوبيث إنقلاباً في الرأي في سانتافي.

وحّدَ مالكو الأراضي الزعماء قضيتهم مع تجار الميناء بينما كان قائد الثورة ينتقل من كارثة إلى أخرى. كان ما يزال يتبعه آخر هنوده وسوده مع حفنة من رعاة البقر الذين يرتدون الأسمال تحت قيادة أندريه لاتوري، آخر ضباطه.

على ضفاف نهر بارانا، اختار أرتيغاس أفضل فارس. أعطاه أربعة آلاف قطعة نقدية فضية، هي آخر ما تبقى، ليأخذها إلى السجناء في البرازيل.

ثم غرز رمحه على الضفة وعبر النهر. اتجه كئيباً إلى الباراغواي، إلى المنفى، هذا الرجل الذي رفض أن يصبح استقلال أمريكا مصيدة لأبنائها الأكثر فقرا.

أنت

من دون أن تدير رأسك، تدفنِ نفسكِ في المنفى. أنا أشاهدك، أنا أراقبك: كان نهر بارانا ينزلق جانباً بليداً كغطاءة وفوقه معطفك الممزق الملتهب يتلاشى في المسافة بسرعة فرس يخبّ ويضيع بين الأوراق.

لا تودع أرضك. لن تصدقك، أو من المحتمل أنها لا تعرف أنك تغادر من أجل سبب جيد.

صار الريف رمادياً فيما ترحل مهزوماً وأرضك متروكة بلا نفس. هل سيعيد إليها نَفَسُها الأطفال الذين يولدون منها والعشاق الذين

يجيئون إليها؟ هل سيبرهن أولئك الذين يبزغون من تلك الأرض، الذين يدخلونها، أنهم يستحقون حزناً عميقاً كهذا؟

إنها أرضك، أرضنا الجنوبية، وأنت ضروري لها جداً يا دون خوسيه! كلما آذاها وأذلها الجشعون وكلما ظن المغفلون أنها بكماء أو مجدبة، ستشتاق إليك، لأنك يا دون خوسيه أرتيغاس، يا جنرال البشر البسطاء، أفضل كلمة نطقتها.

1821: معسكر لوريلتي

القديس بالتهاثار، الملك الأسود والعارف الأعظم

اندفع الباراغويون من بلدات الجوار والمناطق البعيدة ليشاهدوا تلك الكائنات الغريبة التي تمتلك جلوداً تشبه الليل.

لم يكن السود معروفين في البارغواي، والعبيد الذين حررّهم أرتيغاس، والذين اتبعوا مساراته إلى المنفى أسّسوا مدينة في لوريلتي. كان معهم بالتهاثار، الملك الأسود الذي اختير ليرحّب بالله على الأرض. مستحضرين القديس بالتهاثار أسسوا الحدائق وقرعوا له الطبول وغنوا الأناشيد الحربية التي أحضرت من أفريقيا إلى سهول الريفر بلاتا. كان رفاق أرتيغاس يعتمرون قبعات حريرية حمراء وتيجاناً من الأزهار حين يحل السادس من كانون الثاني، وراقصين يطلبون من العارف ـ الملك ألا تعود العبودية أبداً وأن يحميهم من الأرواح الشريرة التي تسبب الغباء ومن الدجاج الذي يصيح كالديكة.

1821: كارابوبو

بايث

في الخامسة عشرةٍ ولد قاتلاً. قتل ليدافع عن نفسه وهرب إلى الجبال ليصبح خيّالاً بدوياً في براري فنزويلا الشاسعة، الخيّال الذي أصبح قائد الخيالة، خوسيه أنطونيو بايث، بايث السهول، طارٍ على رأس رعاة بقر فنانين في استخدام الرمح والوهق يمتطون خيولاً غير مسرجة ويسددون كالحادور. كان يمتطي حصاناً أبيض لأن الخيول البيضاء أفضل. حين لا يكون في حملةٍ ينصرف إلى تعلم القراءة ويعزف على الفيولونسيل.

إن رجال السهول نصف العراة الذين خدموا إسبانيا في زمن بوفز، هزموا إسبانيا في معركة كارابوبو. شقوا طريقهم بالمناجل عبر أجمة الغرب المستحيلة بسبب مستنقعاتها وأدغالها وفاجؤوا العدو والتهموه.

عيّن بوليفار بايث قائداً عاماً للقوات الفنزويلية المسلحة، ودخل رجال السهول إلى جانبه إلى كاراكاس، يرتدون مثله أكاليل من الأزهار.

في فنزويلا رُميَ النرد.

1822: غواياكيل

سان مارتن

موعدٌ في غواياكيل. بين البحر الكاريبي والمحيط الهادي جادة من أقواس النصر. أتى الجنرال بوليفار من الشمال وجاء من الجنوب خوسيه دي سان مارتن، الجنرال الذي عبر سلسلة جبال جزائر الهند الغربية بحثاً عن حرية تشيلي والبيرو.

تحدث بوليفار وتحدث، قدم وقدم.

قاطعه سان مارتين باقتضاب: «أنا منهك». لم يصدقه بوليفار، أو من المحتمل أنه فاقد للثقة لأنه ما يزال لا يعرف أن المجد ينهك المرء أيضاً.

أمضى سان مارتن ثلاثين عاماً في المعركة من أوران إلى ميبو. قاتل كجندي من أجل إسبانيا وقاتل كجنرال متمرس من أجل أميركا. قاتل من أجل أميركا وليس ضدها أبداً: حين أرسلته حكومة بوينس آيرس ليسحق جيوش أرتيغاس الفيدرالية، عصى سان مارتن الأوامر وأخذ جيشه إلى الجبال ليواصل حملته من أجل استقلال تشيلي. بوينس آيرس، التي لا تغفر، منعت عنه الخبز والملح ولم يستسيغوه في ليما أيضا. سمّوه الملك خوسيه.

خيبة أمل في غواياكيل. سان مارتن، لاعب الشطرنج العظيم، يتجنّب اللعبة قائلا: "أنا وأنت لا ننسجم مع بعضنا".

فيما بعد أقيمت وليمة وحفلة راقصة. رقص بوليفار في وسط الغرفة وتنافست السيدات عليه. سببت الضجة الدوار لسان مارتن الذي غادر بعد منتصف الليل إلى رصيف المرفأ من دون أن يودّع أحدا. كانت أمتعته قد سبقته إلى السفينة الشراعية.

أصدر أمر الإبحار، سار على سطح السفينة بخطوات بطيئة يرافقه كلبه ويطارده البعوض. ابتعدت السفينة عن الشاطئ واستدار سان مارتن ليتأمل أرض أميركا التي تتلاشى وتتلاشى.

1822: بوينس آيرس

طائر غرّيد

على حافة قريةٍ مورون ابتلع قبر وضيع عظام شاعر كان إلى الأمس يمتلك غيتارا واسماً.

من الأفضل أن تسافر خفيفاً

كنسرٍ ومن دون أحزان...

عاش بارتولومي هيدالجو، تروبادوريُّ معسكرات أرتيغاس، لحظة فقط ودائماً في زوبعة من الأغاني والمعارك ومات منفياً.

مضغت كلاب جائعة رئتيه. تجوّل هيدالجو في شوارع وأحياء بوينس آيرس قارئاً رباعياته التي غنت لرجال أحرار وفضحت الأعداء، التي قدّمتْ له القليل من الطعام لكن الكثير من الحياة. دُفن جسده في التراب من دون كفن، لكن رباعياته العارية والمبتذلة سكنت في الريح.

1822: ريو دي جانيرو

جنون حركة المرور

أعلنت صحيفة دياريو دي جانيرو عن بضائع جديدة وصلت من لندن؛ آلات لإصلاح الشوارع أو معالجة الرئتين أو عصر المنيهوت، مخارط خشب، آلات تقطير وطناجر بخارية، نظارات، تلسكوبات، أمواس حلاقة، أمشاط وأيضاً سروج موسّدة، ركابات فضية، عدّة خيول برّاقة ومصابيح عربات.

كان ما يزال يُشاهد في الشوارع خيالون وحيدون وبضع محفات قديمة مطلية بالذهب تنتمي إلى عصر آخر، لكن الموضة أملت عربات إنكليزية آخر موديل تستخرج الشرر من حصى الشوارع. أصبحت شوارع ريو دي جانيرو خطيرة وتكاثرت الحوادث الناجمة عن السرعة ونمت قوة الحوذي.

كان الحوذيون الذين يرتدون قفازات بيضاء وقبعات رسمية يلقون من مقاعدهم المرتفعة نظرات متنمّرة على عبيد سود آخرين ويستمتعون بنشر الذعر بين العابرين. كانوا سكارى وقوادين مشهورين وعازفي غيتارات جيدين لا يُستغنى عنهم في الحياة الحديثة. كانت العربة

تساوي ثروة حين تُباع مع حصان سريع وأسود ماهر.

1822: كيتو

اثنتا عشرة حورية يحرسن في الساحة الرئيسة

كانت كل منهن تحمل تاجاً بينما تنفجر الفرق الموسيقية والمفرقعات. وكان وقع حوافر الخيل على الشارع الحجري الطويل يصدح كمستهلّ المطر. على رأس جيشه دخل بوليفار كيتو مجالداً نحيلا، عصبيا وسيفه الذهبي يفوقه طولاً. تساقط مطر الأزهار والمناديل الصغيرة المطرزة عن الشرفات. كانت الشرفات مذابح سمحت سيدات كيتو أن يعبد عليها انتصاب أثدائهن العارية وسط المخرمات والطرحات. كانت مانويلا ساينث تقف كتمثال مقدم سفينة ذاهل. فتحت يدا سقط منها تاج من الغار فرفع بوليفار رأسه وثبت نظرته عليها كرمح حركته بطيئة.

في تلك الليلة رقصا، رقصا الفالس إلى أن داخا ودار العالم على حفيف التنانير الألف لتلك المرأة التي لا نظير لها، وعلى صوت شعرها الأسود الطويل.

1823: ليما

أيدٍ متقرحة من تصفيق طويل

انطلق من إل كالو بين صفين من الجنود وعلى طريق من الأزهار. استقبلت ليما بوليفار بتحية من مائة طلقة مدفع ومائة راية ومائة خطاب ومائة وليمة فردية.

منحه الكونغرس الصلاحية الكاملة لطرد الإسبان الذين احتلوا من جديد نصف البيرو. قدم له مركيز توري تاغل سيرة ذاتية لنابليون، مجموعة من أمواس طليطلة وأصصاً من العبارات المنمّقة: ينتظرك النصر على القمم الثلجية لجزائر الهند الغربية ليتوجك بغاره، وحوريات ريماك بدأن غناءهن احتفاءً بنصرك. أصدر وزير الحربية أوامر لإلهة الحظ: ليبدأ طيرانك الملكي من سفوح شيمبورازو إلى قمم جزائر الهند الغربية وهناك انتظري بوليفار لتتوجي جبينه بغار البيرو!

كان نهر ريماك، النهر الذي يتحدث، هو الوحيد الذي بقي صامتاً.

1824: ليما

رغم كل شيء

انطلق من إل كالو بين صفين من الجنود على طريق من الأزهار. استقبلت ليما زعيم الإسبان، الجنرال مونيت رافعة راية الملك ومبتهجة بها. كانت الراية ترفرف والخطابات ترفرف. ذاب مركيز توري تاغل من الامتنان وتوسّل لإسبانيا كي تنقذ البيرو من تهديد بوليفار الملعون، الوحش الكولومبي.

كانت ليما تفضل أن تواصل سبات نعيمها الاستعماري بين تموج أعلام شعارات النبالة. تبادل نواب الملك والقديسون والخيالة واللصوص والمغناجون التنهدات والانحناءات وسط خراب أميركا الرملي، تحت سماء لا تمطر وشمس ترسل فقط ملائكة لتدافع عن أسوار المدينة التي يتنفس المرء داخلها عطر الياسمين، أما في الخارج فينتظر الخطر والعزلة. في الداخل تقبيل الأيدي والمواكب والتوددات: جميع الضباط يقلدون الملك وجميع الكهنة يقلدون البابا. في القصور يحاكي الجص الرخام وفي الكنائس السبعين التي من الذهب والفضة، يحاكي الطقس الإيمان.

بعيداً عن ليما كان بوليفار يستلقي مريضاً في بلدة باتيفيلكا الساحلية. كتب بين فترات إصابته بالحمّى:

"أسمع صوت الكارثة من جميع الجهات... كل شيء يولد ويموت أمام عينيّ وكأن صاعقة شقته... غبار، رماد، لا شيء".

سقطت البيرو كلها، باستثناء بعض الأودية، في أيدي الإسبان وتخلت حكومتا بوينس آيرس وتشيلي المستقلتان عن قضية حرية هذه الأرض، ولم يكن البيروفيون مهتمين جداً.

سأل أحدهم ذلك الشخص المسحوق والوحيد: "وما هي خطة عملك الآن؟"

أجاب بوليفار: "النصر".

1824: مونتيفيديو

تواريخ أحداث المدينة عن كرسي حلاق

لم يكن النسيم يهب، ولذلك لم يرن حوض الغسيل الصفيحي المعلّق بسلك فوق ثقب في الباب ليعلن أنهم يحلقون هنا اللحى وينتزعون الأسنان ويستخدمون «كاسات الهوى».

بحكم العادة، أو كي يطرد وهن الصيف، كان الحلاق الأندلسي يلقي خطبة أو يغني وهو ينهي تغطية وجه الزبون بالرغوة. وكان الموس يهمس بين العبارات والرقصات الإسبانية. كانت إحدى عيني الحلاق تراقب النصل الذي يحرث المرنغ، والأخرى تراقب سكان مونتيفيديو الذين يتهادون في الشارع المغبر. كان اللسان أكثر حدة من الموس ولا ينجو أحد من جزّه. وكان الزبون الذي يسجن حتى تنتهي الحلاقة أصم وثابتاً يصغي إلى تلك الثرثرة التي تؤرخ العادات والحوادث، والتي تحاول بين فينة وأخرى أن تلاحق، من زاوية عين، الضحايا الذين يعبرون.

كان نير للثيران يجر امرأة ميتة إلى المقبرة، وثمة كاهنٍ خلف العربة يقرأ الصلوات. وكان صوت جرس يقدم وداعاً روتينياً للميتة التي من الدرجة الثالثة يصل إلى الحانوت. توقف الموس في الجو. صلّب الحلاق وخرجت من فمه كلمات لفظت بتبديل للنبرة: "المسكينة لم تعرف السعادة أبداً".

كانت جثة روزاليا فيلاّغران تعبر المدينة وقد احتلها أعداء أرتيغاس. لقد آمنت زمناً طويلاً أنها كانت شخصية أخرى، وأنها كانت تحيا في زمن آخر وعالم آخر، وقد قبّلتِ الجدران في المستشفى الخيري وتحدثت مع الحمام. دخلت روزاليا فيلاغرا، زوجة أرتيغاس، من بوابات الموت من دون أن تملك سنتاً تدفعه مقابل كفنها.

1824: سهل خونين

المعركة الصامتة

أعاد بوليفار تنظيم جيشه بسحر شجاعته العنيدة وانتصر في سهل خونين البيروفي. هجم أفضل خيالة العالم بالسيف والرمح وشفوا غليل غضبهم. لم تسمع طلقة واحدة طول المعركة.

كان الجيش الأميركي خليطاً من رعاة بقر شواطئ الريفر بلاتا، والفلاحين التشيليين وسكان سهول كولومبيا الكبرى الذين قاتلوا والأعنة مربوطة إلى ركبهم، ووطنيين إكوادوريين وبيروفيين، أبطالٍ (سان لورينزو) وميبو وكارابوبو وبيشنشا. كان الرجالُ يمتلكون رماحاً من غواياكيل ومعاطف من كاجمركا، أحصنةً وسروجاً من لامبايكوي وأحذية من تروخيللو. تبع بوليفار أيضاً إنكليز وفرنسيون وإسبان ربحهم العالم الجديد، ومتطوعون أوروبيون حاربوا بعيدا على غواديانا أو الراين أو السين.

حين تغرب الشمس يموت الجرحى. كان يحتضر في خيمة بوليفار المقدم سويرسبي، الإنكليزي الذي كان مع نابليون في بوروديـنو. وفي مكان ليس بعيداً يعوي كلب قرب جثة ضابط إسباني. كان الكلب يركض إلى جانب حصان صديقه طوال معركة خونين أما الآن فيحاول الجنرال ميللر أن يمسكه أو يطرده، لكن ليس ثمة طريقة.

1825: لاباث

بوليفيا

سقطت الراية الملكية مستسلمة عند قدمي أنطونيو خوسيه دي سكر، الذي كان جنرالاً في سن العشرين ومارشالاً في الثلاثين وهو ضابط بوليفار المفضّل. أنهت المعركة الرعدية لسهل آياكوتشو السلطة الإسبانية لا في البيرو فحسب بل في القارة كلها أيضاً.

حين وصلت الأنباء إلى ليما قفز بوليفار إلى طاولة غرفة الطعام ورقص داعساً على الصحون مكسّراً الكؤوس والزجاجات.

فيما بعد ركب بوليفار وسكر معاً تحت أقواس نصر مدينة لاباث. هناك ولدت بلاد البيرو العليا، التي امتصها نائبا ملك ليما وبوينس آيرس. لقبت نفسها الآن بـ «جمهورية بوليفار»، وستسمى بوليفيا لكي يخلد أبناؤها اسم محررهم.

حضّر خوسيه ماريانو روي لوبا، الراهب الذي يتمتع بموهبة خطابية عظيمة وفم مليء بالذهب، خطبة ترحيبية رائعة، لكن القدر خطف روي لوبا قبل أن يتمكن بوليفار من سماعها. كانت الكلمة مؤلفة باللغة اللاتينية.

1825: بوتوسي

المبتدئون: البطل على القمة

تسلق بوليفار في بوتوسي إلى قمة جبل الفضة. حين يتحدث بوليفار يتحدث التاريخ: هذا الجبل الذي يثير صدره إعجاب وحسد العالم... تفهم الريح رايات الأوطان الجديدة وأجراس جميع الكنائس. أعتقد أن هذه الثروة لا تساوي شيئاً حين أقارنها... تعانق ذراعا بوليفار ألف فرسخ. تكثّر الأودية طلقات المدافع وصدى الكلمات... بمجد نصر راية الحرية من الشواطئ المشتعلة والبعيدة... سيتحدث التاريخ عن الرجل العظيم الذي يقف على المرتفعات، لن يقول شيئاً عن التجاعيد الألف التي تخطط وجه هذا الرجل الذي لم ينهكه الزمن لكنه مليء بأثلام الحب والأحزان العميقة. لن يهتم التاريخ بالمهور التي تعدو في صدره، حين يعانق من سماوات بوتوسي، الأرض وكأنها امرأة، الأرض وكأنها تلك المرأة التي شحذت سيوفه وعرته وغفرت له بنظرة، تلك التي تعرف أن تصغي إليه تحت رعد المدافع والخطابات والاحتفاءات حين يقول: ستكونين وحيدة يا مانويلا وسأكون وحيدا وسط العالم. لن يكون هناك عزاء أكبر من مجد غزونا لأنفسنا.

1825: بوتوسي

امتلكت إنكلترا بوتوسي

سارت المستعمرات الإسبانية المستقلة محنية. جرّت من اليوم الأول حجرا ثقيلا مربوطا إلى عنقها، حجرا ينمو ويهيمن. تكاثرت الديون التي نشأت عن الدعم الإنكليزي بالرجال والسلاح بسبب المرابين

والتجار. كان المرابون ووسطاؤهم المتمرسون في فنون الخيمياء يحولون أية حصاة إلى حلية ذهبيةٍ. وعثر التجار البريطانيون في هذه الأراضي على أسواقهم الأكثر ربحاً. كانت البلدان الجديدة الخائفة من غزو إسباني جديد تحتاج إلى اعتراف رسمي من إنكلترة لكن إنكلترة لا تعترف بأحد قبل توقيع اتفاقية الصداقة والتجارة التي تضمن حرية غزو بضائعها الصناعية.

أمقُت الديون أكثر من الإسبان، هذا ما كتبه بوليفار للجنرال الكولومبي سنتاندر، وقال له إنه باع مناجم بوتوسي للإنكليز بمبلغ مليونين ونصف بيزو كي يسدّد تلك الديون.

كتب أيضاً: "أشرت لحكومة البيرو أن تبيع للإنكليز جميع مناجمها وأراضيها وأملاكها وجميع ممتلكات الحكومة مقابل دينها الوطني الذي لا يقل عن عشرين مليوناً".

أصبح جبل بوتوسي الغني الذي في أسفل العالم ملكاً لشركة لندنية وفانتوم بوتوسي ولاباث وشركة المناجم البيروفية. وكما يحدث مع أوهام أخرى ناجمة عن نوبات حمى تأملية، الاسم أطول من رأس المال؛ ادعتِ الشركة أنها تملك مليون جنيه إسترليني لكنها كانت تملك فعلاً خمسين ألفاً.

لعنة جبل الفضة

بوتوسي، التي قدمت كثيراً من الفضة، تقدم القليل، ذلك لأن الجبل لا يرغب بذلك.

طوال أكثر من قرنين سمع بوتوسي الهنود يئنون في أحشائه. توسّل إليه الهنود الذين حُكِم عليهم بالنزول إلى أنفاقه أن ينهي منيّه، وأخيراً لعنَ الجبل الجشع.

مذّاك، كانت تصل قوافل بغال غامضة ليلاً، تغوص في الجبل وتحمل سراً حمولات من الفضة. لم يستطع أحد أن يشاهدها أو

يقبض عليها لكن الجبل كان يفرغ نفسه ليلة بعد أخرى.

حين تنكسر ساق بغل بسبب الحمولة الثقيلة، يشرق الفجر على خنفساء تعرج بألم على الطريق.

1826: تشوكيساكا

بوليفار والهنود

لم تُطع القوانين أبداً في مستعمرات أميركا الإسبانية. ومهما كانت سيئة أو جيدة، لم تُطَبَّق القوانين أو الأوامر الملكية الكثيرة التي حمت الهنود (والتي اعترفت بعجزها من خلال التكرار). ولم تُطَبَّق أيضاً الأوامر التي حظرت انتشار الروايات. ولم يمنع هذا التقليد الكريبوليين البارزين والجنرالات أو الأطباء من الإيمان بأن الدستور جرعة ناجعة للسعادة العامة.

نسج سيمون بوليفار الدساتير بحماس وقدم للكونغرس مشروعاً دستورياً للجمهورية الجديدة يحمل اسمه:

قال نص الدستور إن بوليفيا ستمتلك رئيساً مدى الحياة وثلاث محاكم ومدافعين عن الحقوق العامة وشيوخاً ومراقبين قال عنهم بوليفار إنهم يشبهون قليلاً مجمع حكماء أثينا ومراقبي روما.

البشر الذين لا يعرفون القراءة لن يمتلكوا حق التصويت. وبما أن جميع البوليفيين يتحدثون الكويتشية أو الأيمارية ولا يعرفون شيئاً عن اللغة القشتالية ولا يعرفون القراءة فإن حفنة من الذكور المختارين ستمتلك ذلك الحق. وكما فعلَ في كولومبيا والبيرو ألغى بوليفار في البلاد الجديدة الجزية المحلية والأعمال الشاقة للهنود وقسّم الأراضي المشاعية إلى قطع صغيرة خاصة. ولكي يتلقى الهنود، الغالبية العظمى في بلاده، ضوء الحضارة الأوروبية، أحضر بوليفار إلى تشوكويساكا أستاذه القديم سيمون رودريغز مع أوامر لإنشاء المدارس.

1826: تشوكيساكا

اللعنة على الخيال الخلاّق

عاد سيمون رودريغز، أستاذ بوليفار، إلى أميركا. أمضى سيمون ربع قرن على الجانب الآخر من البحر وصادق هناك اشتراكيي باريسٍ ولندن وجنيف. عمل مع ناشري روما وكيميائيي فيينا وعلم دروسا ابتدائية في بلدة صغيرة في السهب الروسي.

بعد عناق الترحيب الطويل عيّنه بوليفار مديراً للتربية في البلاد الجديدة الناشئة. في مدرسة نموذجية في تشوكيساكا بدأ سيمون رودريغز مهمته في استئصال الأكاذيب والمخاوف التي يقدسها التراث. صرخت السيدات الورعات ونبح الأطباء المتفقهون من هول الفضيحة. إنه الرعب: اقترح رودريغز المجنون أن يخلط الأطفال ذوي النسب الرفيع مع الخلاسيين الذين كانوا ينامون في الشوارع إلى أمس. بماذا يفكر؟ أيريد أن يأخذه الأيتام إلى الفردوس؟ أم هل يفسدهم ليرافقوه إلى الجحيم؟ لم يسمع في غرف الصفوف التعليم الشفهي أو اللاتينية المقدسة ولا قواعد النحو، كل ما سمع هو صخب المناشر والمطارق الذي لا تحتمله آذان الكهنة والمحامين الصغار الذين يحتقرون العمل اليدوي. إنها مدرسة للعاهرات واللصوص! أولئك الذين يؤمنون أن الجسد مشين والنساء زينة صرخوا للسماء العالية. في مدرسة الدون سيمون تجلس الفتيات والفتيان إلى جانب بعضهم، ولإكمال كل هذا، دراستهم لعب.

ترأس حاكم تشوكيساكا الحملة ضد الساتير الذي جاء ليفسد أخلاق الشباب. حالاً طلب المارشال سَكر رئيس بوليفيا، استقالة سيمون رودريغز لأنه لم يقدم أرصدته بالدقة المطلوبة.

أفكار سيمون رودريغز

تعلّم كيفية التفكير

عدّ المؤلفِ مجنوناً. إنه يبثُّ تهويماته للآباء الذين لم يولدوا بعد. يجب أن يتعلم الجميع دون تمييز سلالي أو لوني. لنتوقف عن خداع أنفسنا: لن يكون هناك مجتمع حقيقي من دون تربية شعبية.

إن التعليم ليس تربية. علِّم وستحصل على شعب يعرف، ربِّ، وستحصل على شعب يفعل.

أن تطلب ترداد ما لا يُفهم عن ظهر قلب هو صناعة لببغاوات. لا تطلب من الطفل أن يفعل أي شيء لا توجد فيه «لماذا؟». إذا عوّدت الطالب أن يرى دائما العقل وراء الأوامر التي يتلقاها، فإنه يفقده حين لا يراه ويسأل عنه قائلا: لماذا؟ علم الأطفال أن يكونوا محبين للبحث والتحقيق، وهكذا حين يسألون عن أسباب ما يُطلب منهم أن يقوموا به، فإنهم يتعلمون طاعة العقل لا السلطة كما يفعل البشر المحدودون، ولا العادة كما يفعل الأغبياء.

يجب أن يدرس الفتيان والفتيات معاً في المدرسة، أولاً: بهذه الطريقة يتعلم الرجال منذ طفولتهم أن يحترموا النساء. وثانياً: تتعلم النساء ألا تخاف من الرجال.

يجب أن يتعلم الفتيان المهن الثلاث الرئيسة: البناء والنجارة والحدادة لأن الأشياء الأساسية تُصنع من التراب والخشب والمعدن، ويجب أن تصبح النساء مدرسات أو صاحبات مهن أخرى لكي لا يصبحن عاهرات بسبب الضرورة ويجعلن الزواج وسيلة لتأمين الغذاء.

إن ذلك الذي لا يعرف شيئاً يمكن أن يخدعه أي شخص، والذي لا يملك شيئاً، يمكن أن يشتريه أي شخص.

1826: بوينس آيرس

رفادفيا

على قمة وهاد الريفربلاتا، فوق الضفة الموحلة للنهر، يقع الميناء الذي يغتصب ثروة البلاد كلها.

في مدرج بوينس آيرس، احتل القنصل البريطاني مقعد نائب ملك إسبانيا. وكان النبلاء الكرييوليون يستخدمون كلمات من فرنسا وقفازات من إنكلترا وهكذا ينزلقون في حياة الاستقلال.

كان تيار البضاعة المصنّعة وفق المواصفات الأرجنتينية في يوركشير ولانكشير يتدفق من نهر التيمز. وكانوا يحاكون في بيرمينغهام بدقة المرجلِ النحاسي التقليدي الذي يسخن الماء للمتة، وينحتون نسخا دقيقة عن الركابات الخشبية والبولا والوهق التي تستخدم في هذه البلاد.

ونادراً ما كانت مشاغل النسيج المحلية تملك فرصة لمقاومة الهجوم إذ كانت سفينةٍ واحدة تحضر عشرين ألف زوج من الأبواط بأسعار مخفضة ومِمْطراً من ليفربول كلفته أقل بخمس مرات من كلفته في كاتامركا.

كان رفادافيا يكثر الدين العِام والمكاتبِ العامةِ وهو جالس على كرسي بذراعين سيصبح مقدساً. إن محامياً مبجلا من بوينس آيرس يخرج في عربة تجرها أربعة خيول يدعي أنه رئيس بلاد يحتقرها ولا يعرفها، لكن وراء أسوار مدينة بوينس آيرس، كانت البلاد تكرهه.

1826: بنما

بلدان وحيدة

نطق الرضيع كلماته الأولى فكانت الأخيرة ومن بين الذين دعوا إلى المعمودية لم يصل إلى بنما سوى خمسة، وبدلاً من المعمودية حدث مسحٌ بالزيت مفرط.

قلّص الحزن، حزن الأب، وَجْهَ بوليفار وبدت التعازي جوفاء.

قُرعت الأجراس من أجل وحدة أميركا الهسبانية.

دعا بوليفار البلدان الجديدة إلى الوحدة في وطن واحد تحت حماية بريطانية. لم يدع الولايات المتحدة أو هاييتي لأنهما كانتا غريبتين عن عاداتنا الأميركية، لكنه أراد أن توحِّد بريطانيا العظمى عصبة الأمم الأميركية الهسبانية وتدافع عنها ضد خطر غزو إسباني جديد.

لم تكن للندن مصلحة في وحدة أراضيها الجديدة ولم يُنجب كونغرس بنما شيئاً سوى تصريحات طنانة لأن المناطق التي حكمها نواب الملك أنجبت بلداناً مقيدة إلى إمبراطورية جديدة وراء البحار وتعيش حالة طلاق فيما بينها. إن الاقتصاد الكولونيالي والمناجم والمزارع التي تنتج للخارج والمدن التي تفضّل البازار على المعمل لا تفتح طريقاً لأمة كبيرة بل لأرخبيل كبير. كانت البلدان المستقلة تتفكك بينما كان يحلم بوليفار بوطن موحّد. لم توقع هذه البلدان اتفاقية تجارية واحدة بين بعضها لكنها غمِرت بطوفان السلع الأوروبية واشترت جميعها المنتج البريطاني الرئيس: مذهب حرية التجارة.

أما في لندن فقد عرض رئيس الوزراء جورج كانينغ غنيمته أمام مجلس العموم

1826: لندن

كانينغ

لؤلؤة التاج تتحدث. يكرِّس جورج كانينغ الجلف، زعيم الدبلوماسية البريطانية، عمله أمام مجلس العموم. ينشر كانينغ ذراعيه، جناحي الباز. يعلن مهندس الإمبراطورية: «استدعيت العالم الجديد إلى الوجود كي أصلح توازن العالم القديم».

تصدر قهقهة من زاوية ويتبع ذلك صمت طويل. ينتصب كانينغ في ظلمة مظهره الجانبي الشبحي الحاد ثم ينفجر الاحتفاء الحماسي الأعظم الذي لم يسمع أبداً من قبل في هذه الغرفة.

إنكلترة هي محور الكوكب. فعل اللورد كاسلري الكثير للمشروع الإمبراطوري إلى أن أُربك في أحد المساءات وقطع حنجرته بموس. جاء كانينغ، خَلَفُ كاسرلي إلى السلطة بشق النفس حين أعلن أن حقبة الفروسية انتهت. يجب أن تمهّد الأمجاد العسكرية الطريق للدبلوماسية الماكرة. قدّم المهرّبون لإنكلترة أكثر مما قدّم الجنرالات. وحان وقت التجار والمصرفيين لكي يربحوا المعارك الحقيقية للهيمنة على العالم.

إن صبر الهرة أكثر فاعلية من غضب النمر.

1828: بوغوتا

هنا يكرهونها

ينادونها من دون أن يخفضوا أصواتهم: غريبة وميسالينا وفي السر يسمونها أسماء سيئة. يقولون إنه بسببها يتجول بوليفار مثقلا بالظلال ومليئاً بالتجاعيد. وإنه يستنفد مواهبه في الفراش.

قاتلت مانويلا ساينث بالرمح في أياكوتشو. وكان الشارب الذي نزعته عن العدوّ طلسماً للجيش الوطني. حين أعلنت القوات العصيان في ليما ضد بوليفار، تنكرت في زي رجل ودخلت عبر الثكنات بمسدس وحقيبة من النقود. هنا، في بوغوتا، كانت تطوف في ظل أشجار الكرز بثياب قائد ترافقها امرأتان سوداوان بملابس الفرسان. منذ بضع ليال وضعت في حفلة إزاء الحائط دمية رثّة كتب عليها: «الموت لفرانسيسكو دي بولا سنتاندر، الخائن»، وأطلقت عليها النار.

ترعرع سنتاندر في ظل بوليفار الذي عيّنه أثناء أعوام الحرب نائباً للرئيس. أما الآن فيرغب سنتاندر باغتيال الملك الذي بلا تاج في حفلة رقص تنكرية ما أو في كمين غادر.

قال خفير بوغوتا الليلي الكلمة الأخيرة وهو يحمل مصباحاً في يديه. أجابته أجراس الكنائس التي تخيف الشيطان وتدعو الجميع إلى دخول منازلهم.

تدوي الطلقات ويسقط الحراس. اندفع القتلة صاعدين الدرج، وبفضل مانويلا التي كانت تستلقي لتعرقلهم نجح بوليفار في الهرب من النافذة.

1828: بوغوتا

من رسالة مانويلا ساينث
إلى زوجها جيمس ثورن

لا، لا ليس ثانيةً أيها الرجل، حباً باللّه! لماذا تجعلني أكتب وأتراجع عن قراري؟ انظر، مهما كان جيداً ما تفعله، فإنه يسبب لي ألماً لأني سأقول لك ألف مرة: لا؟ أيها السيد أنت ممتاز، فريد من نوعك، لن أقول أبداً أي شيء آخر عنك. ولكن يا صديقي، إن

هجري لك من أجل الجنرال بوليفار شيءٍ ذو شأن، أما هجر زوج آخر لا يملك مواصفاتك لن يكون شيئاً مهماً.

... أعرف جيداً أن لا شيء يقدر أن يوحدني معه تحت رعاية ما تدعوه بالشرف. أتظنني أقل شرفاً لأنني اخترته كعشيق لا كزوج؟ آه، أنا لا أعيش وفق الاهتمامات الاجتماعية التي ابتكرت من أجل التعذيب المتبادل!

اتركني وحدي يا عزيزي الإنكليزي ولنفعل شيئاً آخر. سنتزوج ثانية في السماء أما على الأرض فلا... هناك سيكون كل شيء وفق الطراز الإنكليزي، ذلك لأن أبناء أمتك يعيشون حياة رتيبة وأذكياء فيما يتعلق بالتجارة والأساطيل. إنهم يتلقون الحب بلا متعة والحديث من دون فكاهة، يسيرون من دون نشاط ويحيّون بالانحناءات، ينهضون ويجلسون بحذر، ينكتون دون ضحك. هذه شكليات مقدسة، لكن أنا، الغانية البائسة، التي تضحك على نفسها وعليك وعلى هذه الرزانات الإنكليزية كم سيكون تصرفي سيئاً في السماء!

1829: كريانتاس

بونبلان

لقد اكتشف أميركا في مجرى تسعة آلاف فرسخ وسبعين ألف نبتة. حين عاد إلى باريس، اشتاق إلى أميركا. وضَّح له حنانه أنه ينتمي إلى البلاد نفسها كالجذور والأزهار التي جمعها. نادته تلك الأرض كما لم تناده أوروبا أبدا ومن أجلها اجتاز المحيط مرة أخرى.

كان بروفسوراً في بوينس آيرس وعاملاً في حقول المتة في أراضي البارانا العليا. هناك اعتقله جنود غاسبار رودريغز دي فرانسيا،

دكتاتور الباراغواي المطلق وطول الحياة. ضربوه بالعصي وأخذوه في قارب باتجاه أعلى النهر.

سجن في الباراغواي تسع سنين وقيل إن الدكتاتور فرانسيا الذي يحكم بالرعب والغموض اتهمه بالتجسس. تدخل الملوك والأباطرة والرؤساء لإطلاق سراح العالِم الشهير لكن لا الوساطات ولا البعثات ولا التوسلات أحدثت أثرا.

حكم عليه الدكتاتور في يوم هبت فيه ريح شمالية، ريح تُفسد الروح وفي يوم هبت فيه ريح جنوبية قرر أن يطلق سراحه. وبما أن بونبلان لا يريد أن يغادر، طرده الدكتاتور.

لم يُسجن بونبلان في زنزانةٍ. كان يعمل في أراض تُقدِّم القطن وقصب السكر والبرتقال وشيَّد معملا لتقطير الرم وحانوَت نجارة ومستشفى وأشرف على ولادات النساء والأبقار في المنطقة وقدّم أدوية ضد الروماتيزم والحمى. أحبت الباراغواي سجينها حافي القدمين الذي يلبس قميصا فضفاضا، الباحث عن النباتات النادرة، رجل الحظ السيء الذي قدم فوائدَ كثيرة، وها هو يغادر الآن لأن الجنود يجبرونه على الخروج.

لم يكد يعبر الحدود إلى داخل الأراضي الأرجنتينية حتى سرق شخص ما خيوله.

1829: أسنسيون، باراغوي

فرانسيا المطلق

ليس ثمة لصوص في الباراغواي، أي لا أحد على وجه الأرض، ولا يوجد شحاذون. حين يقرع الطبل، لا الجرس، يذهب الطلاب إلى المدرسة، ورغم أن الجميع يستطيعون أن يقرؤوا ليس هناك مطبعة أو مكتبة أو كتاب أو صحيفة أو نشرة تجيء من الخارج، أما مكتب البريد فقد اختفى بسبب عدم الاستخدام.

تعيش البلاد التي تسجنها الطبيعةٍ وجيرانها في أعلى النهر، متيقظة تنتظر هجوماً أرجنتينيا أو برازيليا مفاجئاً. ولكي يتوب سكان الباراغواي عن استقلالهم سدت بوينس آيرس منفذهم إلى البحر وتعفنت سفنهم عند أرصفة المرفأ، لكنهم ثابروا على بؤسهم وكرامتهم.

الكرامة والعزلة الوطنية: عالياً فوق الأكرات كان غاسبار رودريغز يقود ويراقب. كان الديكتاتور يعيش وحيداً ويأكل خبز وملح أرضه في صحون تجرّبها قبله الكلاب.

كان جميع سكان الباراغواي جواسيسَ أو هدفاً للتجسس. في الصباح الباكر يقدم أليخاندرو الحلاق للحاكم المطلق أول تقرير في اليوم عن الشائعات والمؤامرات وهو يشحذ موسه. بعد أن يخيّم الليل، يصطاد الديكتاتور بالمنظار النجوم التي تخبره أيضاً ما الذي يفعله أعداؤه.

1829: ريو ديجانيرو

كرة ثلج الدين الخارجي

مضى سبعة أعوام على إعلان الأمير بدرو نفسه إمبراطوراً على البرازيل. ولدت البلاد في حياة الاستقلال وهي تقرع أبواب المصرفيين الإنكليز. كان الملك خوان، والد بدرو، قد أفرغ البنك وأخذ معه إلى لشبونة آخر غرامات الذهب والفضة. وصلت الملايين الأولى من الجنيهات الإسترلينية حالاً من لندن، ورُهِن دخْل الرسوم الجمركية كضمان وحصل الوسطاء المحليون على 2٪ من كل قرض.

أصبحت البرازيل مدينة بضعف ما حصلت عليه وتدحرج الدين متنامياً ككرة ثلجية. كان الدائنون يصدرون الأوامر وولد جميع البرازيليين عالقين في الدين.

كشف الإمبراطور بدرو في خطبة وقورة أن الخزينة العامة فرغت وأصبحت في حالة بائسة وأن البلاد مهددة بالخراب الشامل. لكنه،

على أية حال، أعلن الخلاص: قرّر الإمبراطور أن يتخذ إجراءات ستدمّر سبب الكارثة الحالية بضربة واحدة. وشرح قائلا إن هذه الإجراءات الراديكالية: تتألف من قروض جديدة تتوقع البرازيل استلامها من مؤسسة روتشيلد وويلسون في لندن، بفائدة قاسية لكنها مشرّفة.

في غضون ذلك، أفادت الصحف أن ألف حفلة قد جُهِّزت للاحتفال بخطبة الإمبراطور والأميرة أميليا. كانت إعلانات الصحف تعرض عبيداً سوداً للبيع أو التأجير وأنواع جبنة وبيانوهات وصلت حديثا من أوروبا، سترات إنكليزية من الصوف الرائع وخمورا من بوردو. كان فندق دو غلوبو في شارع كويتاندا، يبحث عن شيف أجنبي أبيض ليس سكيرا أو نافخا للسيجار، وكانوا يحتاجون في 76 شارع دوفيدور إلى سيدة تتحدث الفرنسية لتعتني بشخص أعمى.

1830: نهر مجدلينا

القارب ينحدر إلى البحر

أرض خضراء، أرض سوداء، وبعيداً يكفن الضباب الجبال. كان نهر مجدلينا يحمل سيمون بوليفار في اتجاه مجرى النهر. «لا».

كان الشعب الذي منحه سيفاً مرصّعاً بألماسةٍ يحرق دستوره في شوارع ليما. الذين سمّوه «أبَ البلاد»، أحرقوا صورته في شوارع بوغوتا، ولقبوه رسمياً في كركاس بـ«عدو فنزويلا»، أما في باريس فقد ازدادت المقالات التي تشوّهه والأصدقاء الذين عرفوا كيف يمدحونه يجهلون كيف يدافعون عنه.

«لا أستطيع».

أكان ذلك تاريخ البشرية؟ هذه المتاهة، لعبة الظلال التي لا طائل منها؟ كان الشعب الفنزويلي يلعن الحروب التي أخذت نصف أبنائه إلى أمكنة بعيدة ولم تمنحهم شيئاً مقابل ذلك.

انتزعت فنزويلا نفسها من كولومبيا الكبرى وتبعتها إكوادور، بينما كان بوليفار يستلقي تحت قماشة متسخة في الزورق الذي يبحر في نهر مجدلينا نحو البحر.

«لم أعد أستطيع».

كان السود ما يزالون عبيداً في فنزويلا رغم القوانين. أما في كولومبيا والبيرو فإن القوانين التي أصدرت من أجل تحضير الهنود طُبِّقت من أجل سلبهم وأعيدت في بوليفيا الجزية، الضريبة الكولونيالية التي كان الهنود يدفعونها لمجرد كونهم هنوداً.

أكان هذا، أكان هذا هو التاريخ؟ لقد قُزِّمَت العَظَمة كلها. وزحفت الخيانة على عنق كل وعد وأصبح الرجال العظام مالكي أرض شرهين. دمّر أبناء أميركا بعضهم، أما سكر، الوريث المختار، الذي أنقذ نفسه من السم والخنجر، فقد سقط صريعاً برصاصة في الغابات في طريقه إلى كيتو.

«لم يعد بوسعي. لنذهب».

كانت التماسيح وألواح الخشب تتمازج في النهر، وكان بوليفار، ذو الجلد الأصفر، الذي خبا بريق عينيه، المرتجف والهاذي، ينحدر في نهر مجدلينا نحو البحر، نحو الموت.

1830: مراكيبو

الحاكم يعلن

«بوليفار، عبقرية الشر، مِشْعَل الفوضى، ظالم بلاده، زال من الوجود».

1830: لاغوايرا

التقسيم

القنصل الأميركي الشمالي في لاغوايرا، جي. جي ويليامسون، نبيّ وبطل تفكك كولومبيا الكبرى، أرسل إلى وزارة الخارجية تقريرا موثقاً. بعد شهر من الحدث، أعلن انفصال فنزويلا ونهاية الرسوم الجمركية التي لا تناسب الولايات المتحدة.

مات سيمون بوليفار في 17 كانون الأول. في 17، كانون أول آخر ومنذ إحدى عشرة سنة، أسس كولومبيا الكبرى في عملية صهر لفنزويلا وكولومبيا شملت أيضاً الإكوادور وبنما. ماتت كولومبيا الكبرى معه.

ساعد القنصل الأميركي الشمالي في ليما ويليم تيودور في نسج المؤامرة ضد المشروع الأميركي لبوليفار، مجنون كولومبيا الخطير. لم يكن تيودور منزعجا من حرب بوليفار ضد العبودية التي هي مثال سيء للولايات المتحدة الجنوبية فحسب، بل أيضاً، وقبل كل شيء، من التعظيم المفرط لأميركا التي تحررت من إسبانيا. قال القنصل بمنطقية إن إنكلترا والولايات المتحدة تملكان أسباباً مشتركة قوية ضد تطور قوة جديدة. في غضون ذلك، كان الأميرال البريطاني فليمنغ يروح ويجيء بين بلنسية وقرطاجنة، مشجّعاً على التقسيم.

1830: مونتيفيديو

المبتدئون: قسم الدستور

قال اللورد جون بونسوني إن الحكومة البريطانية لن توافق أن تكون البرازيل والأرجنتين السيدتين الحصريتين لسواحل أميركا الجنوبية الشرقية.

أصبحت الأوروغواي، من خلالٍ نفوذ لندن وحمايتها، دولة مستقلة. انفصل الإقليم الأكثر تمردا في الريفر بلاتا، والذي طرد البرازيليين عن ترابه، عنٍ الجذع القديم وعاش حياة خاصة به وتحرر ميناء بوينس آيرس أخيرا من كابوس ذلك السهل المعادي الذي أعلن فيه أرتيغاس تمرده.

قدم الأب لاراناغا في كنيسة مونتيفيديو الأم، تسبيحة شكر لله. أضاء الحماس وجه الكاهن كما في تسبيحةٍ الشكر الأخرى التي قدمها منذ بضع سنوات عن المنصة نفسها تبجيلا للغزاة البرازيليين.

حدث قسم الدستور تحت شرفات مجلس المدينة وكانت السيدات اللواتي يغفلهن الدستور يرافقن التكريس القانوني للبلاد الجديدة وكأنه يشملهن. كن يمسكن بيد تسريحاتهن العملاقة الخطرة أيام هبوب الريح وبالأخرى يفتحن إزاء صدورهن مراوح رسمت عليها شعارات وطنية. وكانت قبّات عالية منشّاة تمنع الرجال من إدارة رؤوسهم. صدحت البراءة العظمى في السٍاحة فقرة بعد فقرة، فوق بحر من القبعات الرسمية. استنادا إلى دستور الجمهورية الجديدة لن يُمنح حق المواطنية للرجال الذين قدموا أجسادهم ضد الرصاص الإسباني ورصاص بوينس آيرس والبرازيل. لم تُصغ الباراغواي لرعاةٍ البقر الفقراء أو الهنود أو السود الذين ما يزالون لا يعرفون أن قانونا حررهم. وقال الدستور، إن الخدم والعمال الهنود وضباط الصف والجنود والمتشردين والسكارى والأميين لا يسمح لهم بالتصويت أو باستلام وظيفة عامة.

في الليل غصّ المدرّج بالحشود، إنه يوم افتتاح الخدعة السعيدة أو انتصار البراءة لروسّيني، وهي الأوبرا الأولى الكاملة التي قُدِّمت في هذه المدينة.

1830: مونتيفيديو

مسقط رأس أو قبر

بدأ شاعر الأروغواي البرناسي الأول فرانسيسكو أكيونا دي فيغيراو مهنته بأنشودة تتألف من مقاطع شعرية ثمانية الأسطر تحتفي بمجد إسبانيا العسكري. حين سيطر رعاة بقر أرتيغاس على مونتيفيديو هرب إلى ريو دي جانيرو وهناك كرّس قوافيه المداهنة للأمير البرتغالي وجميع أفراد حاشيته. تبع الدون فرانسيسكو الغزاة البرازيليين إلى مونتيفيديو وارتجل قصائد للقوات المحتلة. فيما بعد في اليوم الذي تلا طرد البرازيليين نفخت ربات الشعر القصائد الوطنية العشرية المقاطع في أذن الدون فرانسيسكو، كلمات من الغار لتتويج جبين أبطال الاستقلال وبدأ الشاعر الزاحف كتابة النشيد الوطني للبلاد الحديثة الولادة.

حُكم علينا، نحن شعب الأروغواي، أن نصغي إلى الأبد إلى أشعاره واقفين.

1832: سانتياغو دي تشيلي

الصناعة الوطنية

في تشيلي أيضاً يرقص السادة ويلبسون وفق الطراز الفرنسي، يقلدون بايرون في حياكة ربطات أعناقهم وعلى المائدة يطيعون إملاءات رؤساء الخدم الفرنسيين، يتناولون الشاي كالإنكليز ويخفضون كؤوس خمرتهم كالفرنسيين.

حين أسس فيسينتي بيريث روزاليس معملاً للبراندي اشترى أفضل أجهزة التقطير الباريسية وكمية كبيرة من اللصقات بأرابيسك مطلي بالذهب وأحرف مخططة رائعة تقول بالإنكليزية شمبانيا معتقة، كونياك. على باب مكتبه علق يافطة كبيرة تقول:

استيراد

لن يكون الطعم قوياً جداً بل معتدلٌ. انطلق المشروع كمنزل يحترق. ولم يقدر المصنع أن يواكب الطلب، لكن الدون فيسينتي أصيب بنوبة وطنية وقرر أنه لا يستطيع أن يتابع حياته في حالة من الخيانة.

«تنتمي هذه السمعة الجيدة لتشيلي فقط».

أحرق اللصقات الأوروبية ووضع يافطة أخرى على بابه أكثر ضخامة:

صناعة محلية

ارتدت الزجاجات ثوباً جديداً ولصقات طبعت هنا، تقول بالإسبانية: كونياك تشيلي.

لم يتمكن من بيع زجاجة واحدة.

صيحات في سوق سانتياغو

دي تشيلي

«قرنفل وحبق للفتيات الصغيرات القصيرات والبدينات!».

«كعكات رقيقة مدوّرة!»

«أزرار جميلة، الخيط ببنس!»

«كبريت!»

«صدقة كرمى لله!»

«لحم بقري جيد!»

«بنس لرجل أعمى فقير»!

«مكانس، فرصة أخيرة للمكانس!»

«تبغ، تبغ للمضغ!»

«ميداليات عجيبة بالمفرق أو بالجملة!»

«انظروا إلى كعكات البراندي هذه!»

«سكاكين من أجل أمنكم الشخصي!»

«شفرات حادة!»

«من يشتري هذا الحبل»

«خذوا هذا الخبز الجيد».

«أجراس صغيرة، بقي واحد فقط».

«بطيخ».

«خذوا هذا الخبز الجيد، إنه ساخن!»

1833: أركيبا

حيوانات اللامة

قالت فلورا تريستان: "إنها كائنات سعيدة".

كانت فلورا تسافر في أرجاء البيرو، بلد والدها، واكتشفت في الجبال «الحيوان الوحيد الذي لم يقدر الإنسان أن يحط من قدره».

إن حيوانات اللامة اللطيفة أكثر رشاقة من البغال وتتسلق إلى أمكنة أكثر ارتفاعاً وتقاوم البرد والإعياء والحمولات الثقيلة. تقدم من دون مكافأة لهنود الجبال وسيلة النقل والحليب واللحوم والصوف النظيف المتألق الذي يستر أجسادهم، لكنها ترفض أن تُقيَّد أو تساء معاملتها أو أن تنفذ الأوامر. حين توقف خطواتها الملكية يتوسّل إليها الهنود أن تسير ثانية. إذا ضربها أو أهانها أو هدّدها شخص فإن حيوانات اللامة ترمي نفسها على الأرض، وترفع أعناقها الطويلة مديرة نحو السماء أجمل أعين في الوجود ثم تموت بهدوء.

قالت فلورا تريستان: «إنها مخلوقات سعيدة».

1833: سان فيسينتي

أكينو

كان رأس أكينو موضوعاً في سلّة الجلاد.

لترقد روحه في الحرب. لقد رفع زعيم هنود السلفادور ثلاثة آلاف رمح ضد سارقي الأراضي وعرّى القديس يوسف على مذبح كنيسة مرتفع، مرتدياً رداء والد المسيح أعلن أن الهنود لن يصبحوا أبداً

عبيداً مرة أخرى أو جنوداً ولن تبيدهم المجاعة أو يسكروا. لكن المزيد من القوات وصل وتوجب عليه أن يلوذ بالجبال.

سلّمه ملازم في قواته يدعى كاسكابال.

قال أكينو حين أثقلوه بالأغلال والسلاسل: «أنـا الآن يَغْـوِرُ دون مخالب أو أنياب». واعترف لفراي تافارو أنه لم يخـش أبـدا طـول حياته سوى غضب أو دموع زوجته. قال حين عصـبوا عينيـه: أنـا جاهز لألعب الغُمّيضة.

1834: باريس

تاكوابي

على أراضي كيكواي المرتفعة، أكملت خيّالة الجنرال ريفيرا عملية التحضير بمهـارة جيـدة في الرمايـة. بعدئـذ، لم يبـق هنـدي حـي في الأروغواي.

تبرعت الحكومة بالهنود الأربعـة المتـبقين مـن هنـود التشـاروا إلى أكاديمية العلوم الطبيعية في باريس وأرسلوا كمتاع في عنبر سفينة بـين الطرود والحقائب الأخرى.

دفع الجمهور الفرنسي رسم دخول ليشـاهد المتوحشـين، العينـات النـادرة لسـلالة انقرضـت. سـجّل العلمـاء إيمـاءاتهم وملابسـهم وقياسـاتهم، واسـتنتجوا مـن حجـم جمـاجمهم أن ذكـاءهم محـدود وشخصيتهم عنيفة.

قبل مرور شهرين انتحر الهنود. تشاجر الأكاديميون على الجثث. لم يبق على قيد الحياة إلا تـاكوابي الـذي هـرب مـع طفلتـه حديثـة الولادة إلى مدينة ليون بطريقة مجهولة واختفى هناك.

كان تاكوابي هو الذي صنع الموسيقى في المتحف بعد أن غادر الجمهور. دلك قوساً بعصا قصيرة مبللة باللعاب واستخرج اهتزازات عذبة من أوتاره المصنوعة من شعر الحصان. قال فرنسيون تجسسوا عليه من وراء الستائر إنه أنتج أصواتاً ناعمة، مكتومة، لا تسمع تقريباً وكأنه كان يتحدث في السرّ.

1834: مكسيكو سيتي

الحب هو العطاء

وُضِعَتْ قرعة مليئة بالخل وراء كل باب وعلى كل مذبح كانت تصلي ألف شمعة. وصف الأطباء فصد الدم والتعقيم بالكلوريد. حدّدت رايات ملونة المنازل التي غزاها الطاعون وأشارت الأغاني والصرخات الكئيبة إلى مرور عربات مليئة بالجثث في الشوارع لا يقودها أحد.

أصدر الحاكم تصريحاً يحظّر أنواعاً معينة من الطعام وقال إن الفلفل المحشو والفاكهة نشرت الكوليرا في مكسيكو.

كان حوذيّ يقطّع تشيريمويا ضخمة في شارع «الروح القدس». تمدد في مجثمه ليستمتع بأكلها قطعة بعد أخرى. ابتعد عنه أحد العابرين فاغراً فاه.

«أيها البربري ألا ترى أنك تنتحر! ألا تعرف أن هذه الثمرة تأخذك إلى القبر». تردّد الحوذي متأملاً النواة الحليبية من دون أن يقرر أن يبدأ بالعض. نهض أخيراً وسار بضع خطوات وقدّم التشيريمويا إلى زوجته التي كانت تجلس في زاوية.

«كُليها أنت يا حبيبتي».

1835: جزر غالاباغوس

داروين

تكشّف البحر والضباب عن تلال سوداء وكانت سلاحف بحجم الأبقار تزحف على الصخور كأنها في قيلولة وبين الشقوق انزلقت عظاءات وتنانين بلا أجنحة.

علّق قبطان سفينة البيغل قائلاً: «عاصمة الجحيم».

أكد تشارلز داروين حين ألقيت المرساة: حتى الأشجار تشعر بالسوء.

في جزر غالاباغوس اقترب داروين من كشف سر الأسرار. أحس هنا بمفاتيح تحول الحياة الذي لا ينتهي على الأرض. اكتشف كيف أكملت طيور الدج مناقيرها، كيف أخذ المنقار الذي يكسر بذارا صلبة كبيرة شكل مِكسرة، والمنقار الذي ينشد رحيق الصبّار شكل كماشة. واكتشف داروين أن الشيء نفسه حصل للأصداف وأعناق السلاحف، استنادا إلى تناولها الطعام على مستوى الأرض أو تفضيلها الفاكهة المرتفعة.

كتب دارون: «إن أصل جميع آرائي هو في جزر غالاباغوس». وكتب في دفتر يومياته: «كنت أنتقل من دهشة إلى أخرى».

حين أبحرت سفينة «البيغل» من ميناء بريطاني منذ أربع سنوات كان داروين ما يزال يؤمن بكل كلمة في النصوص المقدّسة. اعتقد أن الله خلق العالم كما هو الآن في ستة أيام وأنهى عمله كما أكد كبير الأساقفة أشر في التاسعة صباحاً، يوم السبت، 12 تشرين أول، عام 4004 قبل الميلاد.

1835: كولومبيا

تكساس

منذ خمسة عشر عاماً، أصدرت قافلة عربات صريراً عبر سهول تكساس المهجورة وقدمت لها الأصوات الجنائزية للبوم والذئاب الصغيرة ترحيباً سيئاً. اقتطعت المكسيك أراضي لهذه العائلات الثلاثمائة التي جاءت من لويزيانا مع عبيدها ومحاريثها. كان هناك منذ خمسة أعوام عشرون ألف مستعمر أميركي شمالي في تكساس واشتروا كثيراً من العبيد من كوبا أو من الزرائب حيث يسمّن سادة فيرجينيا وكينتكي السود الصغار. رفع المستعمرون رايتهم، صورة الدب، ورفضوا أن يدفعوا الضرائب لحكومة المكسيك أو أن يطيعوا القانون المكسيكي الذي ألغى العبودية في جميع الأراضي الوطنية.

آمن نائب رئيس الولايات المتحدة جون كالهون أن الله خلق السود كي يقطعوا الخشب ويجنوا القطن ويحملوا الماء للشعب المختار. احتاجت المعامل إلى مزيد من القطن واحتاج القطن إلى مزيد من الأراضي والعبيد. قال كالهون العام الماضي: ثمة أسباب قوية تقتضي أن تشكل تكساس جزءاً من الولايات المتحدة.

في ذلك الوقت كان الرئيس جاكسون الذي يتنفس الحدود برئتي رياضي، قد أرسل صديقه سام هوستون إلى تكساس.

شق هوستون العنيد طريقه بقبضته، جعل نفسه جنرالاً للجيش وأعلن استقلال تكساس. هذه الدولة الجديدة التي ستصبح حالاً نجمة أخرى على علم الولايات المتحدة، أكبر من فرنسا.

ونشبت الحرب ضد المكسيك.

1836: سان جاسينتو

العالم الحريتنامى

عرض سام هوستون الأرض بسعر أربعة سنتات للدنم الواحد. تدفق المتطوعون الأميركيون على كل طريق ووصلت الأسلحة في السفن من نيويورك ونيوأورليانز.

لم يعن ذلك الشهاب الذي أعلن الكارثة في سماوات المكسيك أي شيء لأحَد وعاشت المكسيك في كارثة دائمة منذ أن أعلن قتلة هيدالجو وموريلوس الاستقلال كي يستبدوا بالسيطرة على البلاد.

لم تستمر الحربٍ طويلاً. وصل الجنرال المكسيكي سانتا آنا داعياً إلى حمام دم ونفذ واحِداً في آلامور لكنه فقد في سان جاسينتو أربعمائة رجل في ربع ساعة. سلم سانتا آناتكساس مقابل حياته وعاد إلى مكسيكو سيتي بجيشه المهزوم وشيفه الخاص وسيفه الذي يساوي سبعة آلاف دولار وأوسمته التي لا تُحصى وعربته المليئة بالديكة المصارعة.

احتفل الجنرال هوستون بالنصر وعيّن نفسه رئيساً لتكساس.

أكد دستورٍ تكساس حقوق السيد الأبدية على عبيده كملكية مكتسبة شرعيا، وكان شعار القوات المنتصرة: توسيع منطقة الحرية.

1836: حصن ألامو

صور بطل الحدود

حين نشبت حرب تكساس وكان الحظ ما يزال يبتسم للقوات المكسيكية، سقط الكولونيل ديفي كروكيت مخترقاً بالحراب. سقط في

حصن ألامو مع عصابته المؤلفة من الأبطال الخارجين عن القانون وأنهت الصقور قصته.

فقدت الولايات المتحدة التي كانت تسمن على حساب أراضي الهنود، أحد أبطالها الحدوديين. كان ديفي كروكيت يمتلك بندقية سمّيت «بتسي» تقدر أن تقتل خمسة دببة برصاصة واحدة.

كان بوسع كروكيت أن يصبح ابن دانييل بون، الرائد الأسطوري للقرن السابق، الشجاع جداً والقاتل المتوحِّد الذي كره الحضارة وكسب قوته من خلال توطين المستعمرين في الأراضي التي سرقها من أصدقائه الهنود. وكان بوسعه أن يصبح والد ناتي بمبو الشخصية الخيالية التي اشتهرت إلى درجة أنها بدت حقيقية.

منذ أن نشر فينيمور كوبر روايته «آخر الموهيكانز» دخل «ناتي بمبو» الصياد الفظ والنبيل، في الحياة اليومية للولايات المتحدة. علمته الطبيعة كل ما يعرفه عن الأخلاق وجاءت طاقته من الجبال والغابات. كان دميماً يمتلك ضرساً واحداً في فمه الكبير لكنه كان يحمي دون مقابل العذراوات البيضاوات الجميلات اللواتي، يعبرن، بفضله، دون خوف، في الدغل والرغبة. كان ناتي بمبو يمدح الصمت بكلمات كثيرة ولم يكذب حين قال إنه لا يخشى الموت وإنه يعجب بالهنود وهو يقتلهم بحزن.

1836: هارتفورد

المسدس

سجل المهندس صامويل كولت في هارفارد بـ«كونيتيكت» براءة اختراع المسدس الدوّار الذي اخترعه. كان مسدساً بأسطوانة دوّارة تحتوي خمس رصاصات ويقتل خمس مرات في عشرين ثانية.

جاء الطلب الأول من تكساس.

1837: مدينة غواتيمالا

مورازان

هبت عاصفة من أردية الكهنة وكان رافايل كاريرا ومضة البرق التي أثارت الخوف وقصفت الرعود فوق غواتيمالا كلها: «يحيا الدين! الموت للأجانب! الموت لمورازان!»

أشعلت جميع الشموع وصلّت الراهبات بسرعة بحيث رتّلن تسع تاسوعيات في تسع ثوان. قدمت الجوقات التحيات لمريم ولعنت مورازان بالحماس نفسه.

إن فرانسيسكو مورازان، رئيس أميركا الوسطى، هو الأجنبي الهرطوق، الذي سبّب ذلك الصخب الصوفي. إن مورازان الذي ولد في هندوراس لم يوحّد المناطق الأميركية الوسطى في أمة واحدة فحسب بل خفض أيضاً الكونتات والمركيزات إلى فئة مواطنين عاديين وأنشأ مدارس عامة تُعلّم أشياء هذا العالم ولا تقول شيئاً عن السماء. استناداً إلى قوانينه، لم يعد الصليب ضرورياً للقبر ولا الكاهن ضرورياً للزفاف ولا فرق بين طفل يولد في مخدع الزوجية وآخر يُصنع من دون عقد سابق على قش إصطبل وكل منهما يمتلك حقوق الوراثة نفسها.

والأخطر من ذلك أن مورازان فصل الكنيسة عن الدولة وشرّع لحرية الإيمان أو عدم الإيمان، ألغى ضرائب العشور والثمار الأولى لضباط الله وباع أراضيهم.

لام الكهنة مورازان وعدوه سبباً للطاعون الذي كان يلتهم غواتيمالا. كانت الكوليرا تقتل البشر والاتهامات المتفجرة تمطر عن المنابر: لقد سمم مورازان المياه، ووقّع المسيح الدّجال عقداً مع الشيطان كي يبيعه أرواح الموتى.

انتفض سكان الجبال ضد السجين وكان رافايل كاريرا مربّي الخنازير الذي يقود التمرد فوق سن العشرين فقط وكان قد أصيب بثلاث رصاصات في جسده. كان يتجول واضعاً وشاحاً على كتفيه وأوسمة على صدره وكان ثمة غصن أخضر مثبت على قبعته.

1838: بوينس آيرس

روزاس

كان خوان مانويل دي روزاس مروض المُهور والبشر العظيم رئيساً لسلسلة جبال الريفر بلاتا. كان الراقص وعازف الغيتار يروي قصصاً تثير الخوف أو الضحك حول نيران المعسكر، لكنه كان مصنوعاً من الرخام وحتى أولاده ينادونه: يا سيدي! اعتقل الطباخ الذي أفسد فراريجه وأمر بأن يُجْلد هو حين ينتهك أحد قوانينه بسبب الإهمال.

كانت مزارع ماشيته الكبيرة أكثر ازدهاراً ومصانع لحمه المقدد أفضل تنظيماً وكان روزاس يملك أفضل بحر من الأراضي العشبية يمتد من ميناء بوينس آيرس إلى القرى الهندية.

كان روزاس هو الحاكم وأصدر قانوناً جمركياً لحماية الإنتاج الأرجنتيني للمعاطف الواقية من المطر وللمخدات والأحذية والعربات والسفن والخمرة والأثاث ثم أغلق الأنهار الداخلية في وجه التجار الأجانب.

طلبت صحيفة روفي دي دوموند أن تقدم فرنسا درساً في التحضّر والنظام لأبناء الغزو الإسباني الفاسدين. وحاصر الأسطول الفرنسي الذي قاده الأميرال لوبلان بوينس آيرس، المرفأ الأرجنتيني الوحيد المجهز لتجارة ما وراء البحار.

1838: بوينس آيرس

المسلخ

كتب إستيبان إتشيفيريا القصة الأولى في أدب الريفر بلاتا. في قصة «المسلخ» تضايق دكتاتورية روزاس طبيباً من بوينس آيرس لا يقدر أن يدافع عن نفسه، من خلال رعاع يجيدون استخدام السكاكين.

كان إتشيفيرا الذي ولد في أحياء الفقراء وصلب عوده في معارك الشارع والذي صقلته باريس، يحتقر الرعاع. قدّم مسلخ يقع في جنوب المدينة خلفية فانتازية للكاتب كي يصف الكلاب التي تتنازع على الأحشاء هي والنساء السوداوات النازعات للأحشاء وكي يتحدث عن «اللعنة عليك»، التي كانت تخرج من حناجر سوقية كالدم الذي يتدفق من أعناق الوحوش. كان الذابح في القصة يرتدي معطف راعي بقر أميركي جنوبي ووجهه مصطبغ بالدم ويدفن سكينه إلى مقبضها في حنجرة عجل خصيّ وفيما بعد يحاصر في زاوية السيد ذا ربطة العنق السوداء الذي لم يناده بلقبه الشائع.

المزيد عن أكل لحوم البشر في أميركا

كان العقيد خوان رامون إستومبا في أثناء تولّيه سلاح الفرسان يزج فرسانه ضد لا أحد. لقد انتهت الحرب ضد إسبانيا لكن حرب الأرجنتينيين ضد بعضهم أكثر وحشية. رفع الكولونيل إستومبا سيفه وزأر: هجوم! وكزوبعة من صرخات الحرب وطعن السيوف هاجم الفرسان الأفق الفارغ.

كانت هذه البلاد الممزّقة محكومة بعنفها الجنوني، وكان أبطال الاستقلال يلتهمون بعضهم. استلم إستانسيلاو لوبيث رأس بانشوراميريز ملفوفاً بجلد خروف، وضعه في قفص حديدي، وأمضى

ليلة كاملة يتأمله بمتعة. أثقل غريغوريو لامدريد والدة فاكندو غيروكا بالسلاسل وجرّها في الشوارع قبل أن يسقط فاكندو في كمين وتخترق رصاصة عينه. وعلى سجادة من براز البقر في زريبة أعدم خوان لافيل مانويل دوريغو ومذاك كان شبح دوريغو يلاحق لافيل إلى أن قبض عليه في أحد الأيام وخاطه بالرصاص إلى جسد عشيقته العاري بحيث يمكن أن يحصل لافيل على متعة الموت داخل امرأة.

1838: تيغوثيغالبا

أميركا الوسطى تتفكك إلى أجزاء

كانت أميركا الوسطى تتفكك إلى أجزاء بينما كان مورازان يحارب في غواتيمالا ضد الحشد الذي حرّضه الكهنة.

تلكِ الخيوط الضعيفة التي خاطت البلاد مع بعضها انقطعت واحداً بعد آخر. ألغت كوستاريكا ونيكاراغوا الاتفاق الفيدرالي وأعلنت هندوراس نفسها بلداً مستقلاً. احتفلت مدينة تيغوثيغالبا بالطبول والصّناجات والخطابات بفشل ابنها، الذي، منذ عشر سنوات، أطلق من هنا حملته التوحيدية الكبيرة. لقد برهن الحقد الإقليمي، الحسد والجشع والسموم القديمة أنها أكثر قوة من عاطفة مورازان وتمزّقت جمهوريةٍ أميركاٍ الوسطى الفيدرالية إلى أربع قطع أصبحت على الفور خمساً ثم ستاً، وهذه القطع البائسة، تشعر حيال بعضها بالحقد أكثر مما تشعر بالشفقة.

1839: كوبان

بيعت مدينة مقدسة بخمسين دولاراً

والمشتري هو جون لويد ستيفنز، سفير الولايات المتحدة في أميركا الوسطى. إنها مدينة كوبان التي تنتمي إلى هنود المايا في هندوراس والتي غزتها الغابة على ضفة نهر.

تحولت الآلهة في كوبان إلى أحجار هي والرجال الذين اختارتهم أو أدّبتهم. كان يعيش في كوبان قبل أكثر من ألف عام الفلكيون الحكماء الذين اكتشفوا أسرار نجم الصباح وقاسوا السنة الشمسية بدقة لم تُضاه أبداً.

أفسد الزمن المعابد ذات الطنف الجميلة والأدراج المنحوتة لكنه لم يزلها. وما تزال الآلهة تنظر عن المذابح وتلعب الغميضة بين ريش الأقنعة. وما يزال اليغور والثعبان يكشفان عن أنيابهما على أعمدة حجرية تصعد من الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة، بينما الرجال والآلهة يتنفسون من هذه الأحجار، صامتين لكنهم ليسوا خرساً أبداً.

1839: هافانا

يتحدث الطبل بخطورة

قرر زعيم كوبا أن يجيز رقصات الطبل في المستعمرات الزراعية شرط أن تُنجز أيام القيلولة وبمراقبة حذرة من كبار العمال.

يجب على كبار العمال أن يمنعوا الطبل من نقل أصوات التمرد. الطبل الأسود، الطبل

الحي، لا يصدر صوتاً لوحده. يتحدث الطبل مع طبول أخرى، طبل «الماتشو» ينادي، يتحدث بخطر مع البشر والآلهة. حين ينادي الطبل، تظهر الآلهة، تدخل الأجساد وتطير منها.

في الأزمان الغابرة، قتلت العقرب «آكيكي» الضجر بلدغها شخصين، مذاك أصبح الهنود يخرجون راقصين من أحواض أمهاتهم، راقصين، كما يقولون، من الحب أو الألم أو النقمة، وراقصين يخترقون وحشية الحياة.

1839: هافانا

إعلانات مبوبة
القسم الاقتصادي
حيوانات للبيع

للبيع: زنجية كرييولية، شابة، صحتها جيدة من دون عيوب، متواضعة جداً ومخلصة، طباخة جيدة تمتلك بعض الخبرة في الغسل والكي وممتازة في الاعتناء بالأطفال، سعرها 500 بيزو. المزيد من المعلومات راجع: 150 شارع دواث.

للبيع: حصان أنيق من ذرية رائعة، ستة أشبار وثلاثة إنشات.

بضائع محلية للاستئجار

زنجية للخدمة في المنزل. زنوج للسخرة ولأي عمل وزنوج صغار للعب مع الأطفال. معلومات كاملة في 11 شارع دواث 21 آذار.

نوعية متفوقة وصلت لتوها من شبه الجزيرة. للبيع...

1839: فلباريزو

المضيء

على هضبة في حي رينكوندا التابع لميناء فلباريزو التشيلي، أمام منزل متواضع ثمة لافتة:

أضواء وفضائل أميركية شموع من شحم الحيوان، الصبر صابون، استقالة، غراء قوي، حب العمل **حب العمل.**

في الداخل دخان المطبخ وزئير الأطفال. هنا يعيش سيمون رودريغز. يمتلك أستاذ بوليفار في بيته مدرسة ومصنعا صغيرا. يعلم الأطفال متعة الإبداع ويدفع الفواتير من صناعة الشموع والصابون.

1839: فيراكروز

زوجاً كرمى لله!
سواء أكان عجوزاً، وحيد الذراع أم مشلولاً؟

خطا السفير الإسباني على التربة المكسيكية للمرة الأولى. لم

يجد في فيراكروز طيوراً سوى العقبان التي تطوف بحثاً عن الجثث. خرج شابكا ذراعه بذراع زوجته ليطوف في الشوارع الحزينة، ليتعلم عادات البلاد.

عثر السفير في كنيسة على قديس مسحوق كانت العوانس تطلب منه اجتراح المعجزات وهن يرجمنه بالأحجار. كانت الشابات ترمي الأحجار آملات وفي ظنهن أن أفضل إصابة ستمنحهن أفضل زوج، أما العجائز اللواتي لم يعدن ينتظرن من قديس بادوا أنطوني زوجاً أو عزاءً فكنّ يضربنه ويشتمنه لينتقمن.

لقد حطّمن القديس أنطوني ودمرن وجهه وحولن ذراعيه إلى جدعتين وصدره إلى ثقب واسع. وكن يتركن له الأزهار عند قدميه.

1840: مكسيكو سيتي

حفلة تنكرية

توجّب على الخياطين ومزيني الشعر في مكسيكو سيتي أن يواصلوا الركض من منزل إلى آخر ومن سيدة إلى أخرى. من التي ستكون أكثر رشاقة في الحفلة الراقصة الكبيرة المعدة من أجل التبرع للفقراء؟ أية حسناء ستنتصر؟

جرّبت السيدة كالديرون دي لاباركا، زوجة السفير الإسباني، الفستان المكسيكي الوطني، الزي النموذجي لوادي بويلبا متعة المرآة التي تعكس الصورة، بلوزة بيضاء بحواف مخرّمة، تنورة حمراء، لمعان النثار المعدني على التنانير المطرزة. لفت السيدة كالديرون الحزام المتعدد الألوان ألف لفة حول خصرها ومشطت شعرها جاعلة فرقه تحت المنتصف ووصلت الضفائر بحلقة.

سمعت المدينة كلها بذلك؛ اجتمع مجلس الوزراء لدرء الخطر، جاء وزير العلاقات الخارجية ووزير الدولة ووزير الحربية إلى منزل

السفير وحذّروه رسمياً. لم تستطع السيدات الأكثر أهمية تصديق ذلك؛ أغمي عليهن، استنشقنِ الملح وهبت رياحٍ المراوح. أيعقل أن تلبس سيدة بهذا الوزن ثيابا لا قيمة لها؟ وعلنا! نصح الأصدقاءِ وضغط السلك الدبلوماسي. انتبهي الآن، تجنبي الفضيحة، إن ثياباً كهذه هي لنساء ذوات سمعة سيئة.

تخلت السيدة كالديرون دي لاباركا عن الثوب الوطني، لن تذهب إلى الحفلة الراقصة كمكسيكية، سترتدي ثوب فلاحة إيطالية من لاثيو. ستظهر إحدى راعيات حفلة الرقص مزينة كملكة اسكتلندة، وستظهر سيدات أخريات كمحظيات فرنسيات أو سويسريات، كفلاحات إنكليزيات أو أراغونيات أو سيرتدين حُجُباً تركية مسرفة.

ستبحر الموسيقى في بحر من اللآلئ والألماس وسيفتقد الرقص للبراعة والرشاقة؛ ليس بسبب الأقدام بل بسبب الأحذية، الصغيرة جدا والمعذبة.

المجتمع المكسيكي الراقي

مقدمة لزيارة

«كيف حالك؟ هل أنت بخير؟»

«تحت خدمتك، وأنت؟»

«لاشيء جديدٌ، تحت خدمتك».

«كيف أمضيت الليل؟»

«بخدمتك».

«كم أنا سعيد! وكيف حالك يا سنيورة؟»

«تحت تصرفك، وأنت؟»

«شكراً جزيلاً. وزوجك؟»

«بخدمتك، لا شيء جديد».

«اجلس من فضل!»

«بعدك يا سنيوريتا».

«لا يا سنيور، أنت أولاً، من فضلك»

«آه لا تؤاخذني إن أرغمتك من دون طقوس، أنا عدوة الشكليات والإتيكيت».

صرخات شارعية في مكسيكو سيتي

«فحم، يا سيدي؟»

«شحم خنزير، شحم ببنس ونصف»

«لحم مملح، لحم مملح جيد!»

«أثمة دهن قديم؟»

«أزرار! أزرار قمصان!»

«تفاحات صغيرة للفلفل الحار! تفاحات صغيرة طازجة!»

«موز، برتقال رمان!»

«مرايا صغيرة!»

«أقراص صغيرة سمينة حارة من الفرن».

«من يريد حصراً من بويبلا، حصراً قياسها خمسة ياردات».

«كعكات عسل! جبنة وعسل!».

«حلوى! حلوى جوز الهند! مرنغ!»

«آخر ورقة يانصيب، بقيت واحدة فقط بنصف بنس».

«تورتيا!»

«من يريد جوزاً؟»

«تورتيا لبنية!»

«بط، يا حبي، بطات ساخنة»

«كستناء مشوية ساخنة!»

المجتمع المكسيكي الراقي

الطبيب يودّع

إلى جانب السرير:

«أنا بخدمتك يا سنيورة!»

«شكراً جزيلاً يا سنيور!»

عند قدم السرير:

«اعتبريني يا سنيورة خادمك الأكثر تواضعاً»

«صباح الخير يا سنيور».

متوقفاً إلى جانب الطاولة:

«أقبل قدميك يا سنيورة!»

«أقبل يدك يا سنيور!»

مقترباً من الباب:

«سنيورة! إن منزلي المتواضع وما يحويه وأنا نفسي رغم أنني لا أنفع، وكل ما أملك ملك لك!»

«شكراً جزيلاً يا دكتور!»

يدير ظهره ليفتح الباب لكنه يستدير ثانية بعد أن يفتحه.

«وداعاً يا سنيورة، خادمك!»

«وداعاً يا سنيور».

يغادر أخيراً، لكنه يفتح الباب نصف فتحة ويدخل رأسه:

«صباح الخير يا سنيورة!»

1840: مكسيكو سيتي

راهبة تبدأ حياتها في الدير

لأنك اخترت الطريق القويمة

لا أحد يستطيع أن يزيحك الآن

أيتها المختارة.

في سن السادسةِ عشرة ودعت العالم. مرت في عربة في الشوارع التي لن تراها أبداً مرةٍ أخرى. حضر الأقرباء والأصدقاء الذين لن يشاهدوها بعد الآن أبداً الطقس في دير سانتا تيريزا.

لا أحد لا أحد لا شيء

يقدر أن يزيحك.

ستأكل مع عرائس المسيح الأخريات من إناء فخاري وثمة جمجمة تحتل وسط المائدة. ستكفر عن ذنوب لم ترتكبها، ذنوب غامضة يستمتع بها آخرون وستعالجها من خلال تعذيب جسدها بحزام وتاج من الشوك. ستنام إلى الأبد وحيدة على فراش إماتة الجسد. سترتدي ثياباً تملأ جلدها رملاً.

بعيداً عن معارك بابل العظيمة

وعن الفساد والإغراءات والأخطار
بعيداً.

كانت مغطاة بالأزهار واللآلئ والألماس. يعرونها من كل زينة، يجردونها من ثيابها.

أبداً.

على صوت الأرْغن، يحض الأسقف ويبارك ويرسم الخاتم الرعوي، حجر الجمشت الضخم، إشارة الصليب فوق رأس الفتاة الراكعة، وتغني الراهبات:

نحن خادماتك يا يسوع!

يلبسونها ثياباً سوداء وحين تركع الراهبات ضاغطات بوجوههن على الأرض تنفتح أجنحة سوداء حول دائرة الشموع.

يُسدل الستار كغطاء على تابوت.

1842: سان خوسيه، كوستاريكا

رغم أن الزمن سينساك،
فإن هذه الأرض لن تنساك

كانت السيدات والرهبان يجهّزون في مدينة غواتيمالا رافايل كاريرا، الرئيس الذي من الجبال، لدكتاتورية طويلة. جرّبوا عليه القبعة ذات الزوايا الثلاث، والمعطف والسيف الرسمي. علموه السير ببوط جلدي لماع وكيف يكتب اسمه ويعرف الوقت من ساعة ذهبية. كاريرا، مربي الخنازير، سيواصل تجارته بطرق أخرى.

في سان خوسيه، كوستاريكا، يحضّر فرانسيسكو مورازان لموته. استجمع شجاعته، ذلك أنه من الصعب على مورازان، محب

الحياة، الغني بالحياة، أن ينهزم. أمضى الليل مثبتاً عينيه على سقف الزنزانة مودعاً. كان العالم كبيراً. أجل الجنرال وداعه. كان يفضل أن يحكم كثيرا ويقاتل قليلاً. أمضى أعواما كثيرة مفجرا الحرب والمنجل في يده من أجل بلاده أميركا الوسطى، بينما كانت تصر على تمزيق نفسها إلى أشلاء.

قبل البوق العسكري جاءت أغنية طائر البوق. جاءت الأغنية من أعالي الفردوس ومن أعماق طفولته، كما من قبل، كما دائماً، في نهاية الظلمة، وأعلنت هذه المرة الفجر الأخير.

واجه مورازان فرقة الإعدام، كشف عن رأسه وبنفسه أصدر أمر التذخير والتسديد. صحح التسديد وأصدر أمر إطلاق النار.

أعادته رشقات الرصاص إلى الأرض.

1844: مكسيكو سيتي

ديكة المحارب

كانت الكنيسة التي تستحوذ على الأرض وتقرض النقود، تملك نصف المكسيك. وكان النصف الآخر ينتمي إلى حفنة من السادة وإلى هنود معزولين في جماعاتهم. كان الرئيس هو الجنرال لوبيث دي سانتا آنا الذي يشرف على السلامة العامة والصحة الجيدة لديكته المصارعة. كان سانتا آنا يحكم حاملاً ديكاً بين ذراعيه وهكذا كان يستقبل الأساقفة والسفراء، وكي يعتني بديك مجروح كان يترك اجتماعات مجلس الوزراء. أسس مواقع لصراع الديكة أكثر مما أنشأ مشافي وأصدر قوانين خاصة بصراع الديكة أكثر من المراسيم التربوية. كان رجال مصارعة الديكة يشكلون بلاطه الشخصي مع غشاشي لعب الورق وأرامل العقداء الذين لم يوجدوا في مجلسه أبداً.

كان مولعاً جداً بديك أبلق يتظاهر أنه أنثى ويغازل العدو وبعد أن

يخدعه يمزقه حتى الموت، لكنه كان يفضّل بدريتو الشرس الذي أحضره من فيراكروز مع بعض التربة أيضاً بحيث يستطيع بدريتو أن يتمرّغ عليها من دون حنين. كان سانتا آنا يثبت الشفرة شخصياً على دابرة الديك، يعقد المراهنات مع البغالين والمتشردين ويمضغ ريشاً من الديك الخصم ليمنحه حظاً سيئاً. وكان يرمي أوسمته على حلبة المصارعة حين تنتهي نقوده.

أمنح ثمانية مقابل خمسة!

ثمانية مقابل أربعة إذا شئت!

يخترق لمعانُ بَرْق دوران الريش وتمزق دابرة بدريتو الأعين أو تقطع حنجرة أي بطلٍ منافس. يرقص سانتا آنا على ساق واحدة ويرفع القاتل عرفه، يخبط جناحيه ويغني.

1844: مكسيكو سيتي

سانتا آنا

يعبس سانتا آنا ويحدق في الفراغ. يفكر بديك ما سقط في معركة أو برجله التي فقدها كتذكار معظم للمجد العسكري.

منذ ستة أعوام، في أثناء حرب صغيرة ضد ملك فرنسا، مزقت رشقة من الرصاص رجله. أملى الرئيس ذو الرجل المقطوعة وهو في سرير الألم رسالة وداع مقتضبة لمسقط رأسه. تتألف من خمس عشرة صفحة، لكنه عاد إلى الحياة والسلطة كالعادة.

رافقت حاشية كبيرة الرجْلَ من فيراكروز إلى العاصمة. وصلت الرجل تحت ظلة يرافقها سانَتا آنا الذي كان يلوّح بقبعته ذات الريش الأبيض من نافذة العربة وخلفه تدفق الأساقفة والوزراء والسفراءٍ بثيابهم الفاخرةِ بالإضافة إلى جيش من الفرسان الذين يرتدون زيا مبهرجا ودروعاً. مرت الرّجْل تحت ألف صف من الرايات وتلقت، إبان

عبورها، صلوات للموتى وخطابات وأناشيد وترنيمات وتحية بطلقات المدفعية وقرع أجراسٍ. حين وصلوا إلى المقبرة، أعلن الرئيس أمام ضريح عظماء الأمة تبجيلا أخيرا للقطعة التي أخذها الموت منه مقدّماً.

منذ ذلك الحين والرّجل المفقودة تؤلمه، واليوم تؤلمه أكثر من قبل، تؤلمه بشكل معذّب، لأن الشعب المتمرد حطم الضريح التذكاري الذي كان يحرسها وبدأ يجرها في شوارع مكسيكو.

1845: فويلتا دي أوبليغادو

غزو التجار

منذ ثلاثة أعوام أذلت السرية البريطانية الإمبراطورية السماوية. بعد فرض الحصار على كانتون وبقية الساحل، فرض الإنكليز استهلاك الأفيون على الصينين باسم حرية التجارة والحضارة الغربية.

بعد الصين جاء دور الأرجنتين: لم يُجْدِ الحصار الطويل الذي فرض على ميناء بوينس آيرس. كان خوان مانويل دي روزاس، الذي تُعْبَد صورته ويحيط به المهرجون الذين يلبسون كالملوك، ما يزال يرفض أن يفتح أنهار الأرجنتين. كان المصرفيون والتجار الإنكليز والفرنسيون يطلبون طول أعوام معاقبته على تلك الوقاحة.

سقط كثير من الأرجنتينيين دفاعاً عن أرضهم لكن مدافع السفن الحربية التابعة لأقوى بلدين حطمت الأغلال التي امتدت عبر نهر بارانا.

1847: مكسيكو سيتي

الفتح

تتلألأ المكسيك أمام أعيننا، بهذه الكلمات عبّر الرئيس آدامز عن انبهاره عند منعطف القرن.

من القضمة الأولى فقدت المكسيك تكساس.

الآن تمتلك الولايات المتحدة المكسيك كلها في صحنها.

هرب الجنرال سانتا آنا، سيد الانسحاب، إلى الجنوب تاركاً ذيلاً من السيوف والجثث في الحفر. من هزيمة إلى أخرى انسحب بِجيشه المؤلف من الجنود النازفين، الجائعين، الذين لم يُدفع لهم أبداً، وإلى جانبهم المدافع القديمة التي تحملها البغال وخلفهم قافلة نساء تحمل الأطفال والأسمال والتورتيا في سلال. كان جيش الجنرال سانتا آنا الذي يحوي ضباطاً أكثر من الجنود، جيداً في قتل المواطنين الفقراء فحسب.

لكن ضباط الكلية الحربية المكسيكيين، الذين هم أطفال عملياً، لا يستسلمون في قلعة تشابولتيبيك. قاوموا القصف بعناد لم يولد من الأمل. انهارت الأحجار على أجسامهم وبين الأحجار كانوا يزرعون النجوم والتشكيلات التي تتصاعد من الدخان فوق الوادي الضخم.

دخل الفاتحون العاصمة. كان في مدينة مكسيكو ثمانية مهندسين، ألفا راهب، ألفان وخمسمائة محام، عشرون ألف شحاذ.

دمدم البشر الذين اجتمعوا مع بعضهم وأمطرت السقوف أحجاراً.

1848: فيلا غوادولوبّه هيدالجو

الفاتحون

أعلن الرئيس بولك من واشنطن أن أمته كبيرة الآن كأوروبا. لا أحد يستطيع إيقاف هجوم هذه البلاد الفتية الشرهة. نمت الولايات المتحدة جنوباً وغرباً وهي تقتل الهنود، تدوس على جيرانها أو تدفع. اشترت لويزيانا من نابليون وعرضت على إسبانيا مائة مليون دولار مقابل جزيرة كوبا.

لكن حق الفتح أكثر عظمة ورخصاً. وُقّعت المعاهدة مع المكسيك في فيلا غوادالوبه هيدالجو. اقتطعت المكسيك للولايات المتحدة، والمسدس على صدرها، نصف أراضيها.

1848: مكسيكو سيتي

الإيرلنديون

وزّع الفاتحون العقوبات في الساحة الرئيسة لمكسيكو سيتي. جلدوا المتمردين المكسيكيين ووشموا بالحديد الحار وجوه الفارين الإيرلنديين ثم شنقوهم.

لقد دخلت كتيبة القديس باتريك الإيرلندية مع الغزاة لكنها حاربت مع المغزوين، جعل الإيرلنديون القدر السيء للمكسيكيين قدراً لهم من الشمال إلى مولينو ديل ري. مات كثيرون دفاعاً عن أبرشية تشوربسكو من دون ذخائر. كانت أجساد السجناء ذوي الأوجه المحروقة، تتأرجح غدواً ورواحاً على المشانق.

1848: إبيراي

عجوز يرتدي مِمْطراً أبيض

لم يهوَ المدن أبداً وكان جل ما يتمناه حديقة في الباراغواي، وعربة مدولبة مليئة بالأعشاب الطبية. كان يُساعده عكاز على السير وتساعده السوداء أنسينا، منشدة الأغاني السعيدة، على زراعة الأرض وعلى استقبال ضوء كل نهار من دون ظلال كئيبة.

«خوسيه أرتيغاس بخدمتك».

كانٍ يقدم المتة والاحترام وكلمات قليلة للزوار الذين يجيئون أحياناً من البرازيل.

«ما يزال اسمي يُسمع هناك إذاً؟»

تجاوز سن الثمانين الذي قضى منه ثماني وعشرين سنة في المنفى، ولن يعود. ما تزال الأفكار التي أبدعها تحارب ويُقمَع الشعب الذي أحبه. كان أرتيغاس يعرف جيداً ثقل العالم والذاكرة ويفضل أن يبقى صامتاً.

لم يكن ثمة نبتة تقدر أن تشفي الجراح داخل إنسان.

خوسيه أرتيغاس كما صوّره دومينغو فاوستينو سارمينتو

كان قاطع طريق لا أكثر ولا أقل. إن ثلاثين عاماً من ارتكاب الجرائم والسرقة هي مؤهلات لا تُدحض لممارسة قيادة قطيع من حثالة الفلاحين الهنود العصاة من أجل ثورة سياسية، وبينهم جعل اسم أرتيغاس المخيف زعيماً للعصابة... من قدم له الطاعة؟ الهنود الفقراء أو المتوحشون الذين قادهم كونه عدو البيض الأكبر والأكثر

وحشية وقسوة... كان جافي الأخلاق بما أنه لم يتردد على المدن ويجهل التراث الإنساني للحكومة الحرة، ورغم أنه أبيض، قاد سكاناً محليين أقل ثقافة منه... آخذين بعين الاعتبار سوابق وأفعال أرتيغاس، نشعر بنوع من تمرّد العقل، تمرد غرائز الرجل الذي من السلالة البيضاء، حين يحاول أحد ما أن يضفي عليه الفكر السياسي والوجدان الإنساني.

1848: بوينس آيرس

العاشقان (١)

تمثيلية درامية:

كاميلا أوغورمان: ولدتٍ في بوينس آيرس في منزل بثلاثة أفنية منذ عشرين عاماً، رُبّيت في جو من الطهارة لتنجح في أن تصبح عذراء، زوجة وأماً في الممر العَسِر الضيّق الذي يقود إلى الطمأنينة الزوجية، التطريز، مساءات البيانو والصلوات التي تؤدى بينما يغطي الوشاح الأسود الرأس، فرّت مع كاهن كنيسة سوكورو.

لاديسلاو غوتييريز: كاهن الله، عمره خمسة وعشرون عاماً، ابن أخ حاكم توكومان. لم يقدر على النوم بعد أن وضع خبز القربان على لسان تلك المرأة الراكعة في ضوء الشموع، انتهى رامياً كتاب الصلوات والرداء فسبب الذعر للملائكة الصغار ولحمام برج الجرس.

أدولفو أو غورمان: يبدأ كل وجبة مردداً الوصايا العشر إلى رأسٍ طاولة كبيرة من خشب الماهوغاني، أنجبت له امرأة طاهرة قساً وشرطياً وابنة فارّة. كان هذا الوالد المثالي هو أول من طالب بعقوبة مثالية لتلك الفضيحة المريعة التي ألحقت العار بأسرته. توسّل في رسالة إلى خوان مانويل دي روزاس أن يستخدم يداً قوية ضد ذلك الفعل الأكثر وحشية وغرابة في البلاد.

فيليبي إلورتوندو ي بالاسيو: سكرتير البلاط، كتب أيضاً إلى روزاس طالبا القبض على العاشقين ومعاقبتهما بقسوة من أجل منع جرائم مشابهة في المستقبل. شرح في رسالته أن لا علاقة له بتعيين الكاهن غوتييريز الذي كان مسألة تتعلق بالأسقف.

خوان مانويل دي روزاس: أمر بإلقاء القبض على العاشقين وانطلق رسله من بوينس آيرس حاملين وريقة تصف الهاربين. كاميلا: بيضاء، عينان سوداوان، بشرة جميلة، طويلة، جسدها نحيل، متناسقة القوام. لاديسلاو: أسمر، نحيل، لحية كاملة وشعر مجعّد. يجب تطبيق العدالة، هذا ما وعد به روزاس من أجل إرضاء الدين والقوانين ولمنع الفساد الأخلاقي والفسق والفوضى. أصبحت البلاد كلها متيقظة.

يشارك أيضاً:

صحافة المعارضة: كان أعداء روزاس يحرضون الأخلاق العامة من مونتيفيديو وفلباريزو ولاباز. قالت الصحيفة اليومية ميركريو شيلينيو لقرائها: لقد وصل فساد العادات المرعب إلى هذا الحد تحت الطغيان المخيف لـ«كاليغولا الريفر بلاتا»، بحيث إن كهنة بوينس آيرس الفسّاق ومنتهكي الحرمات يفرّون مع بنات أفضل مجتمع من دون أن يتخذ الحاكم سيء السمعة أي إجراء ضد تلك الأفعال المريعة المنافية للأخلاق.

الحصانان: يأخذان العاشقين إلى الشمال عبر البلاد المنفتحة، متجنبين المدن. كان حصان لاديسلاو يمتلك جلدا ذهبيا وساقين طويلتين، وكان حصان كاميلا رماديا وسمينا وكبير البطن. كان الحصانان ينامان مثل راكبيهما في العراء ولا يتعبان.

المتاع: متاعه هو: ممطر صوفي، بعض الملابس، مديتان، مسدسان، حقيبة، ربطة عنق حريرية ومحبرة. متاعها هي: شال حريري، عدة فساتين، أربع تنانير كتانية، مروحة، قفازان، مشط، خاتم خطبة ذهبي ومحطم.

العاشقان (II)

إنهما إثنان بسبب خطأ يصححه الليل.

1848: أمكنة مقدسة

العاشقان (III)

فرّا في الصيف وأمضيا الخريف في ميناء غويا على ضفاف نهر بارانا مستخدمين أسماء أخرى. اكتشف مكانهما في الشتاء، تمت خيانتهما وألقي القبض عليهما.

نُقلا إلى الجنوب في عربتين منفصلتين. تركت العجلات ندوباً على الطريق.

سُجنا في زنزانتين منفصلتين تحت الأرض.

إذا توسلا طالبين الصفح، سيُصْفح عنهما، لكن كاميلا الحامل لا تعلن توبتها ولا لاديسلاو أيضاً. قُيدت أقدامهما بالحديد ورشّ كاهنٌ الأغلال بالماء المقدس.

أعدما رمياً بالرصاص في فناء وأعينهما معصوبة.

1848: باكالار

سيسيليوتشي

تحدثت قرون الذرة محذرة من الجوع. كانت مزارع السكر الضخمة تلتهم حقول ذرة جماعات المايا في إقليم يوكاتان المكسيكي.

كان الرجال يُشترون كما في أفريقيا ويدفع شراب الرومّ مقابلهم. كان السوط يقول: الهنود يسمعون بظهورهم.

ونشبت الحرب. استجاب هنود المايا المرضى من تقديم الموتى في حروب شعب آخر لدعوة طبل الجذع المجوف. انبثقوا من الدغل، من الليل، من اللاشيء حاملين منجلا في يد ومشعلا في الأخرى: احترقت المزارع مع مالكيها وأبناء مالكيها ومع الوثائق التي جعلت الهنود وأبناءهم عبيدَ دين.

كان إعصار المايا يدور ويدمر وكان سيسيليو تشي يقاتل بخمسة عشر ألف هندي ضد المدافع التي تقتل بالجملة وهكذا سقطت مدينةٍ فالدوليد دي يوكاتان التي اعتقدت أنها نبيلة وقشتالية جداً، وسقطت باكالار، وبلدات وحاميات كثيرة واحدة بعد أخرى.

أباد سيسيليو تشي الأعداء مستحضراً متمرد الزمن القديم خاسينتو كانيكو النبي القديم تشيلام بالام. أعلن أن الدم سيجري في ساحة مريدا حتى يصل إلى كواحل البشر. قدم الشراب الناري والألعاب النارية لقديسي كل بلدة احتلها. إذا رفض القديسون أن يغيروا مواقعهم واستمروا في خدمة السيد، كان سيسيليو تشي يذبحهم بمنجله ويرميهم في النار.

1849: ضفتا نهر باتي

فارس يُدعى الجدري

من كل أربعة من هنود البوني مات واحد هذا العام من الجدري أو الكوليرا، أما أعداؤهم الأبديون الكيوواس فقد أنقذوا أنفسهم بفضل العم العجوز سيندي.

تجول ذلك العجوزِ الوحشي في هذه السهول من وجع قلبٍ إلى آخر. كان يردد دائماً: عالمي انتهى بينما كان يبحث عبثاً عن

حيوانات الأيِّل والجواميس. قدم له نهر واشيتا طيناً أحمر بدل الماء الصافي. حالاً سيُحاصر أبناء قومي الكيووا كالأبقار.

كان العم العجوز سينديٍ يسيرٍ غارقاً في تلك الأفكار الحزينة حين شاهد في جهة الشرق سوادا بدلاً من الشمس، لطخة سوداء كبيرة تنتشر عبر السهول. حين اقتربت رأى أن اللطخة فارس يرتدي الأسود ويعتمر قبعة سوداء مرتفعة ويمتطي حصاناً أسود بينما تظهر على وجهه ندوب وحشية. قدّم نفسه: «اسمي هو الجدري». أجاب سيندي: «لم أسمع أبداً...».

شرح الغريب: «جئت من مكان بعيد، من الجانب الآخر من البحر وأحضر معي الموت».

سأل عن هنودٍ الكيوواس لكن العم العجوز سيندي عرف كيف يجعله يعود قائلا له إن الكيوواسِ لا يستحِقون أن يزعج نفسه بهم لأنهم شعب قليل متضور جوعا، ثم زكى هنود البوني الكثيرين والأنيقين والأقوياء ودله على الأنهار حيث يعيشون.

1849: سان فرانسيسكو

ذهب كاليفورنيا

تدفق التشيليون من فلباريزو محضرين معهم زوجاً من الأبواط، مدية، مصباحا ومجرفة.

أصبح المدخل إلى خليج سان فرانسيسكو معروفاً باسم البوابة الذهبية وحتى أمس كانت سان فرانسيسكو بلدة يرباس بويناس المكسيكية. كان ثمة كتل ذهبية تزن ثلاثة كيلوغرامات في هذه الأراضي التي اغتصبت من المكسيكيين في حرب.

لم يكن الخليج يتسع لسفن كثيرة. كانت المرساة تلمس القاع

ويتبعثر المغامرون عبر الجبال. لم يضع أحد وقته في إلقاء التحية.

كان الغشاش في لعب الورق يدفن بوطه الجلدي اللماع في الطين:

«يعيش نردي المحظوظ! يعيش شابّي!»

كان مجرد النزول على هذه التربة يحول المتسكع إلى ملك والحسناء التي وبِختِه تموت من الندم. كان فيسينتي بيريث روزاليس الذي وصل حديثا يصغي إلِي أفكار مواطنيه: الآن أملك موهبة! ومن هو الحمار الذي يملك نقودا في تشيلي؟ هنا خسارة الوقت خسارة للمال. رعد مطارق لانهائي، عالم يغلي، صرخات ألم الولادة. من لاشيء نهضت المظلات التي قدِّمت تحتها الأدوات والشراب واللحم المجفف مقابل حقائب جلدية مليئة بغبار الذهب. كان الرجال والغربان ينعبون، قطعان رجال من جميع الأراضي وليلاً ونهاراً كانت تدوّم زوبعة الفراكات، قبعات البحارة، فرو أوريغون وقبعات مول، الخناجر الفرنسية، القبعات الصينية، الأبواط الروسية، رصاصات لماعة على خصور رعاة البقر.

كانت امرأة تشيلية جميلة تبتسم تحت مظلة من القماش المخرّم قدر استطاعتها، كان مشدّها يعصرها وأيضا الحشد الذي يرميها على بحر الوحل المبلط بالزجاجات المحطمة. في هذا المرفأ هي روزاريتو أميسنيكا. ولدت باسم روزاريتو إنوييردو منذ سنوات لا تعرف عددها وأصبحت روزاريتو فيلاسيكا في تالكانهوانو وروزاريتو تورو في تالكا وروزاريتو مونتالفا في فلباريزو.

من كوثل السفينة كان بائع المزاد العلني يقدم السيدات للحشد. كان يعرضهن ويتغنى بمدائحهن واحدة بعد أخرى: انظروا يا سادة! يا له من خصر! يا له من شباب!، يا له من جمال...!

كان البائع يقول: من يزيد؟ من سيدفع أكثر مقابل هذه الزهرة التي لا نظير لها؟

1849: إل مولينو

كانوا هنا

كان الرجل ينادي فيسقط الذهب من الرمال والصخور. كانت شرارات الذهب تقفز على الونشات وتصل سليمة إلى يد الرجل من قاع أنهار وأودية كاليفورنيا.

كان إل مولينو واحداً من مخيمات كثيرة انبثقت على هذه الشواطئ الذهبية. في أحد الأيام لاحظ المعدّنون أعمدة دخان تصعد من غابات الأرز البعيدة، وفي الليل شاهدوا خطاً من النيران التي تهزأ بالريح. تعرّف أحدهم على الإشارات: كان تلغراف الهنود يدعو إلى الحرب ضد المتطفلين.

في ومضة شكّل المعدّنون مفرزة من مائة وسبعين بندقية وهاجموا معتمدين على عنصر المفاجأة. أحضروا مائة أسير هندي وقتلوا منهم خمسة عشر ليلقنوهم درسا.

رماد

منذ أن تجلى له حلم الأرنب الأبيض لم يتحدث العجوز عن أي شيء آخر، رغم أنه لا يزعج نفسه بالكلام إطلاقاً وكان لوقت طويل غير قادر على الوقوف. جعلت الأعوام عينيه دامعتين وأحنته. كان يعيش في سلة مخبئاً وجهه خلف ركبتيه المستدقتي الرأس مستعدا ليعود إلى بطن الأرض. عالقاً في السلة كان يسافر على ظهر ابن أو حفيد ويروي أحلامه للجميع ويبربر قائلا: سيلتهمنا الأرنب الأبيض. سيلتهم بذارنا وعشبنا وقوتنا. قال إن الأرنب الأبيض سيجيء راكبا على حيوان أكبر من أيّل قدماه دائريتان وعلى عنقه شعر.

لم يعش العجوز ليشاهد حمى الذهب في أراضـي كاليفورنيـا. قبـل أن يصل المعدنون على ظهور الأحصنة أعلن: «لم يعد بوسعي أن أطعم أولادي. كجذر قديم جاهز للنمو الآن فحسب. لن أتحدث بعد الآن».

أحرقوه في سلّته على حطب اختاره بنفسه.

1849: بالتيمور

بو

كانٍ الرجل الميت يستلقي علـى بـاب دسـكرة ووجهٍـه إلى الأعلـى مختنقا من التقيؤ. جرّته يدٌ وٍرعـة إلى المستشـفى فجـرا وبعـد ذلـك لا شيء، لا شيء بعد اليوم أبدا.

إدجار آلن بو، ابن الممثلين الكوميديين المتجولين، الشاعر المتشـرد الذي أدين واعترف بخطيئة العصيان والهذيان، حكمت عليه محـاكم لا مرئية وسحقته كماشة لا مرئية.

ضاع وهو يبحث عن نفسه، وليس عن الذهب في كاليفورنيا. كلا، كان يبحث عن نفسه.

1849: سان فرانسيسكو

بنطال ليفي

لم تُعمِ ومضات العنف والمعجزات ليفي شتراوس الذي وصل مـن بافاريا البَعيدة وأدرك بطرِفـة عـين واحـدة أن الشـحاذ يصـبح هنـا مليونيراً والمليونير شـحاذاً أو جثـة بطقطقـة ورق اللعـبٍ أو الزنـاد. اكتشف بطرفة عين أخرى أن البنطلونات أصبحت مزقـاً في منـاجم

كاليفورنيا هذه وقرر أن يقدم أفضل الثياب القوية التي أحضرها معه. لن يبيع ظلات أو خياماً؛ سيبيع بنطلونات فظة لرجال أفظاظ يقومون بعمل فظ في حفر الأنهار والوهاد، وكي لا تتمزق الدرزات دعّمها ببرشامات نحاسية. وفي الخلف، تحت الخصر، طبع ليفي اسمه على رقعة جلدية.

حالاً سيدعي رعاة بقر الغرب كله أن البنطلونات المصنوعة من قماش نيميس الأزرق الذي لا تنهكه الشمس أو الأعوام هي خاصة بهم.

1850: سان فرانسيسكو

الطريق إلى التطور

كان بيريت روزاليس التشيلي يبحث عن الحظ في مناجم كاليفورنيا. بعد أن عرف أن أسعاراً خيالية تدفع مقابل أي شيء صالح للأكل على بعد بضعة أميال من سان فرانسيسكو، حصل على بضعة أكياس من اللحم المقدد الذي ينغل فيه الدود وعلى بضع جرار من المربى واشترى لنشاً. لم يكد يدفعه عن الرصيف حتى سدد وكيل جمارك بندقية إلى رأسه: اتركه في مكانه!

لا يمكن أن يتحرك هذا اللنش في أي نهر في الولايات المتحدة لأنه صنع في الخارج ولأنه جؤجؤه ليس مصنوعاً من خشب أميركي شمالي.

دافعت الولايات المتحدة عن سوقها الوطنية منذ عهد رئيسها الأول. كانت تزود إنكلترة بالقطن لكن الحواجز الجمركية كانت تمنع دخول الملابس الإنكليزية وأي مُنْتَج يؤذي صناعتها. كان مزارعو الولايات الجنوبية يريدون الملابس الإنكليزية لأنها أفضل وأرخص وكانوا يشكون من أن مشاغل النسيج الشمالية تفرض عليهم ثياباً دميمة ومكلفة من حفاض الطفل إلى كفن الجثة.

1850: بوينس آيرس

الطريق إلى التخلف

فكرة دومينغو فوستينو سارمييتنو

لسنا صناعيين أو بحارة وستزودنا أوروبا قروناً طويلة بمنتجاتها الصناعية مقابل موادّنا الخام.

1850: نهر بلاتا

بوينس آيرس ومونتيفيديو في منتصف القرن

سافر الشاعر خافيير مارمييه من مقعده في الأكاديمية الفرنسية إلى أرصفة مرفأ نهر بلاتا.

توصلت القوى الأوروبية العظمى إلى معاهدة مع روزاس ورُفع الحصار عن بوينس آيرس. اعتقد مارمييه أنه في شارع فيفيان وهو يطوف في شارع بيزو. وجد في واجهات الحوانيت ألبسة حريرية من ليون وصحيفة دو مودس، روايات دوما وساندو وقصائد دي موسيه. لكن في ظل أروقة قصر المدينة، كان سود حفاة الأقدام يتهادون في ألبستهم العسكرية والأرصفة ترن بسبب خبب أحصنة رعاة البقر.

شرح أحدهم لمارمييه أنه ليس ثمة راعي بقر يقتل أي شخص من دون أن يقبّل أولاً شفرة مديته ويقسم بالعذراء الطاهرة، وإذا كان الميت صديقاً يضعه القاتل على جواده ويربطه إلى السرج بحيث يمكن أن يدخل المقبرة على ظهر حصان.

أما في ساحات الضواحي فقد رأى مارمييه العربات، سفن السهل التي تحضر الجلود والقمح مِن الداخل وتأخذ في رحلة عودتها الملابس والشراب الكحولي المقطر الذي يصل من الهافر وليفربول.

عبر الشاعر النهر. كانت مونتيفيديو تحت الحصار من مؤخرتها طول سبع سنوات وأضناها جيش رعاة البقر التابع للجنرال أوريبي، لكن المدينة بقيت على قيد الحياة مواجهة النهر - المحيط وذلك بفضل السفن الفرنسية التي كانت تسكب البضائع والنقود على أرصفة المرفأ. كانت جريدة مونتيفيديو الوحيدة هي «لوباتريوت فرانسي» وكانت أغلبية السكان فرنسية.

لاحظ مارمييه في ملاذ أعداء روزاس هذا أن الأغنياء أصبحوا فقراء وفقد الجميع عقولهم. كان العاشق يدفع أونصة ذهب ليشكل زهرة كاميليا في شعر فتاة. وكانت ربة المنزل تقدم للزائر باقة من أزهار صريمة الجدي مشدودة بخاتم من الفضة والياقوت والزمرد. بدت الحرب بين الطليعيين والمحافظين لسيدات مونتيفيديو أكثر أهمية من الحرب ضد الفلاحين الأورغوايين، هذه الحرب الحقيقية التي تقتل البشر. كان الطليعيون يرتدون لمات شعر قصيرة جداً أما المحافظون فكانوا يلفون شعرهم بترف.

1850: باريس

دوما(1)

يطوي ألكسندر دوما كميه المصنوعين من قماش الباتيستا وبشخطة قلم يكتب الصفحات الملحمية لـ«مونتيفيديو أو طروادة الجديدة».

---

(1) ألكسندر دوما (1802- 1870): روائي فرنسي، وضع عدداً كبيراً من الروايات التاريخية.

يسعّر الروائي، رجل الفنتازيا والشراهة، عمل الخيال العظيم هذا بخمسة آلاف فرنك. يسمي تلّ مونتيفيديو المتواضع جبلاً ويحوّل حرب التجار الأجانب ضد رعاة البقر الفرسان إلى ملحمة يونانية. جيوش جوزيبي غاريبالدي التي تقاتل من أجل مونتيفيديو لا ترفع راية الأوروغواي بل راية القراصنة التقليدية المؤلفة من جمجمة وعظمين متصالبين على حقل أسود، لكن، في الرواية، يكتب دوما ليأمر فقط الشهداء والعمالقة بالمشاركة في الدفاع عن المدينة التي هي فرنسية تقريباً.

1850: مونتيفيديو

لوتريامون في الرابعة من عمره

ولد إسيدور دوكاس (Isidoro Ducasse) في ميناء مونتيفيديو وكان جدار مضاعف من التحصينات يفصل الريف عن المدينة المحاصرة. ترعرع إسيدور دائخاً من القصف المدفعي ومنبهراً من المشهد اليومي للموتى المتدلين على أحصنتهم.

أخذه حذاؤه إلى البحر. واقفاً على الرمل، مديراً وجهه إلى الريح، سأل البحر أين تذهب الموسيقى بعد أن تغادر الكمان، أين تمضي الشمس حين يخيم الليل وإلى أين يرحل الموتى. سأل إسيدور البحر أين ذهبت أمه، تلك المرأة التي لا يستطيع أن يتذكرها أو يسميها أو يتخيلها. أخبره أحدهم أن الموتى الآخرين رموها خارج المقبرة. البحر، الذي يتحدث كثيرا، لا يجيب والولد يتفادى جرفاً ويعانق بأقصى قوته، باكياً، شجرة ضخمة كي لا تسقط.

1850: شان سانتا كروز

الصليب الذي يتحدث

ثلاثة أعوام طوِيلة من الحرب الهندية في يوكاتان. مات أكثر من مائة وخمسين ألفاً وفرّ مائة ألف وتناقص عدد السكان إلى النصف.

قاد الخلاسي خوسيه ماريا باريرا، أحد قادة التمرد، الهنود إلى كهف في الغِابة. هناك قدّم نَبعٌ الماءَ العذب في ظل شجرة ماهوغاني مرتفعة جداً. أنجبت الشجرة الصليب الصغير الذي يتحدث.

قال الصليب بلغة المايا: «حان وقت الانتفاضة في يوكاتان. أنا أسقط ساعة بعد ساعة، إنهم يقطعونني بالمناجل، يطعنونني بالسكاكين، يخزونني بالعصي. أتجوّل في يوكاتان لأشفي أحبائي الهنود...»

الصليب بحجم إصبع. الهنود يكسونه بكنزة وقميص، يزينونه بخيوط ملونة ذلك أنه يجمع المتفرقين.

1851: لاتاكونغا

أتجول عشوائياً وعارياً...

بدلاً من التفكير بالميديين والفارِسيين والمصريين، لنفكّر بالهنود. من الأفضل لنا أن نفهم هنديا أكثر من أن نفهم أوفيد. ابدؤوا مدرستكم بالهنود أيها السيد مدير الكلية.

قدم سيمون رودريغز نصيحته لكلية بلدة لاتاكونغ في الإكوادور: نصحهم بتأسيس كرسي باللغة الكويتشية بدلاً من اللاتينية، أن

يدرّسوا الفيزياء بدلاً من اللاهوت، أن تشيد الكلية مصنعاً للفخار ومصنعاً للزجاج، أن تمنح شهادات في البناء والتجارة والحدادة.

قضى الدون سيمون حجه على طول شواطئ المحيط الهادي وعبر جزائر الهند الغربية .لم يرغب أبداً أن يكون شجرة، بل ريحاً. أثار الغبار طول ربع قرن على طرق أميركا. منذ أن طرده سكر من شوكيساكا أنشأ مدارس عديدة ومصانع شمع ونشر كتابين بيديه حرفاً حرفاً، لأنه ليس هناك أي صفاف حروف، يقدر أن يتعامل مع أقواس كثيرة وخرائط متشابهة. كان ذلك المتشرد العجوز، الأصلع والدميم والأكرش، الذي صبغته الشمس، يحمل على ظهره حزمة من المخطوطات وكان مُبْتلى بغياب النقود والقراء، ولم يكن يملك إلا ما يرتديه.

اعتاد بوليفار أن يناديه مدّرسي، سقراطي، قال: "لقد صنعت قلبي من أجل العظيم والجميل من الأمور". كان البشر يضغطون على أسنانهم كي لا يضحكوا حين يلقي رودريغز المجنون خطبة حول القدر المأساوي للأراضي الأميركية الهسبانية.

"نحن عميان، عميان"

لم يصغ إليه أو يصدقه أحد؛ اعتبروه يهودياً لأنه كان يتجول ويبذر الأطفال أينما مرّ من دون أن يعمدهم بأسماء القديسين بل يسميهم قرن ذرة، قرعاً، جزرة وهرطقات أخرى. غيّر كنيته ثلاث مرات وقال إنه وُلد في كاراكاس، وإنه أيضاً وُلد في فيلادلفيا وفي سانليوكار دي باراميدا وأشيع أن إحدى مدارسه في كنسبسيون بتشيلي، دمرها زلزال أرسله الله حين علم أن الدون سيمون درّس التشريح عارضاً نفسه عارياً أمام الطلاب.

كانت وحدة سيمون تزداد كل يوم. هذا الأكثر حكمة، الأكثر جاذبية بين مفكري أميركا، يزداد إحساسه بالوحدة كل يوم.

كتب في سن الثمانين: «رغبت أن أجعل الأرض فردوساً للجميع، لكنني جعلتها جحيما لي»

أفكار سيمون رودريغز

إما أن نخترع أو نضيع

انظروا إلى طريقة أوروبا في الاختراع وانظروا إلى أميركا كيف تقلد.

يرى البعض أن الازدهار يتحقق من خلال جعل مرافئهم مليئة بالسفن الأجنبية وتحويل منازلهم إلى مستودعات للتأثيرات الأجنبية. كل يوم تأتي حمولة من الملابس الجاهزة وقبعات للهنود. عاجلاً سنرى رزما صغيرة مطلية بالذهب مع شعارات النبالة، تحوي ترابا أعد بعملية جديدة، للفتيان المعتادين على أكل التراب.

النساء يعترفن باللغة الفرنسية، الإرساليات تبرئ الذنوب بالإسبانية.

ينبغي أن لا تقلد أميركا كالخادمة، ينبغي أن تكون أصيلة. إن حكمة أوروبا وازدهار الولايات المتحدة عدوان لحريات الفكر في أميركا. لا تريد الجمهوريات الجديدة أن تسمح بمرور أي شيء لا يحمل إذناً...

لم يستشر رجال الدولة في تلك الأمم سوى العقل، وهذا أسسوه على تربتهم. قلدوا الأصالة بما أنكم تحاولون أن تقلدوا كل شيء!

أين تذهب للبحث عن موديلات؟ نحن مستقلون لكننا لسنا أحرارا، نحن أسياد تربتنا لا أسياد أنفسنا.

لنفتح التاريخ ومن أجل ذلك الذي لم يُكتب بعد، ليقرأه كل منكم في ذاكرته الخاصة.

1851: لا سيرينا

البشائر

قال فرانسيسكو بلباو: "لا يستطيع البؤس أن يفكر أو يخزن في الذهن أية ذكرى سوى الألم". ثم أضاف أن استغلال الإنسان للإنسان لا يترك له وقتاً ليصير إنساناً. لقد قسم المجتمع إلى أولئك الذين يستطيعون أن يفعلوا كل شيء وإلى أولئك الذين يفعلون كل شيء. يجب أن يوضع حد لنظام لا يمنح مأوى لأولئك الذين يكدحون ليشيدوا القصور ويقدم الأسمال للذين ينسجون أفضل الملابس.

الذين يبشرون بالاشتراكية في تشيلي لم يبلغوا سن الثلاثين بعد. لقد خان فرانسيسكو بلباو وسانتياغو أركوس - الشابان اللذان تعلما في باريس - طبقتهما في سياق بحثهما عن مجتمع تضامن فجّرا في مجرى هذا العالم تمردات عسكرية متنوعة وانتفاضات شعبية في جميع أنحاء البلاد ضد لابسي الشعر المستعار والكهنة والملكية الخاصة.

في اليوم الأخير من العام سقط الحصن الثوري الأخير في مدينة لا سيرينا. سقط أيضا كثير من الحمر أمام فرق الإعدام. "بلباو"؛ الذي هرب في مناسبة أخرى متنكراً في زي امرأة، فر هذه المرة من فوق الأسطح وذهب إلى المنفى لابساً رداء كاهن وحاملاً كتاب القداس.

1852: سانتياغو دي تشيلي

ماذا عن الاستقلال للفقراء؟
التشيلي سانتياغو أركوس يسأل نفسه في السجن

كانت الحكومة منذ الاستقلال للأغنياء ولا تزال. كان الفقراء جنوداً، ميليشيات وطنية، صوتوا كما أمرهم مستخدموهم، اشتغلوا في الأرض، حفروا الخنادق، عملوا في المناجم، حملوا على ظهورهم، حرثوا البلاد، تابعوا كسب بنس ونصف، جُلدوا وعوقبوا على المشهِّرة.. تمتّع الفقراء باستقلال مجيد كالأحصنة التي هاجمت قوات الملك في تشاكابكو ومييبو.

شعب تشيلي يغني لمجد الفردوس

أرسل القديس بطرس، الذي يرعاك ويرعاني،
غلاماً ليحضر بعض السجق والنبيذ
وضلعاً ظريفاً من لحم الخنزير
ليدخل الإناء من أجل يخنة طيبة،
مع بَنْش جيد مسكر، كما يفعل سكان الأرض،
ولكي لا يكون متعجرفاً طلب
سلة من التورتيا
ليقدر جميع الملائكة الصغار
على التخلص من الضجر السماوي
ويقيموا حفلة رقص رائعة.

وحين كانت الساعة بطيئة نهض
القديس أنطوني قائلاً : حسناً يا سادة!
اللعنة على جميع الشياطين في الجحيم يا سادة
أليست هذه حفلة؟
ومن دون الإساءة لأحد
حان وقت التحرر
من خلال حيلة بريئة..
سأصعد إلى القديسة كلارا
وقبل أن تشعر بذلك
سأداعب كفلها الصغير الريّان.

1852: مندوزا

خطوط اليد

حتى ملائكة المذبح الصغيرة كانت ترتدي عباءات حمراء في الأرجنتين. كان الرفض تحدياً لعنف الدكتاتور. مثل كثيرين من أعداء روزاس، عانى الطبيب فيديريكو مايور من المنفى والسجن.

منذ وقت ليس بطويل نشر هذا البروفسور البوينس آيرسي الشاب كتاباً في سانتياغو دي تشيلي. بدأ الكتاب المزين باقتباسات فرنسية وإنكليزية ولاتينية كالتالي: نفتني ثلاث مدن عن صدورها واستقبلتني ثلاثة سجون على صدورها. على أية حال، رميت أفكاري بحرية في وجه الطاغية، والآن؛ ثانية، أطلق أفكاري في العالم وأنتظر، من دون خوف، ما يخبئه القدر لي.

بعد شهرين، حين كان ينعطف، سقط الطبيب فيديريكو مايور آرنولد في بركة من الدم. لكن هذا لم يحصل بأمر من الطاغية بل بأمر من حماة فيديريكو، الدونا ماريا، المرأة سيئة الخلق التي من مندوزا. لقد دفعت لقطاع طرق بارعين في استخدام السكاكين كي يقتلوا صهرها لأنه لا يسرها.

1853: لا كروث

كنز اليسوعيين

إنها تعرف ولهذا يتبعها الغراب طائراً خلفها كل صباح في الطريق إلى القداس وينتظرها على باب الكنيسة.

كانت قد وصلت إلى سن المائة لتوها. ستفصح عن السر حين تكون مستعدة للموت وإذا لم تفعل ذلك، ستعاقبها العناية الإلهية.

جاء الوعد: بعد ثلاثة أيام من الآن.

وبعد ثلاثة أيام: الشهر القادم.

وبعد شهر: سنرى غداً.

حين يضايقها البشر تبيض عيناها وتتظاهر بأنها دائخة، أو تنفجر ضاحكة محركة ساقيها الصغيرتين وكأن الشيخوخة شيء ناب.

كانت بلدة لاكروث كلها تعرف أنها تعرف. كانت مجرد فتاة صغيرة حين ساعدت اليسوعيين على دفن الكنز في غابات مسيونيس، لكنها لم تنس.

مرة، منتهزين فرصة غيابها، فتح الجيران الصندوق القديم الذي أمضت أيامها جالسة عليه، ولم يعثروا فيه على حقيبة ملأى بالذهب؛ عثروا فقط على السرر الجافة لأولادها الأحد عشر.

حين جاءت آلام الموت تجمهرت البلدة كلها عند قدم سريرها. كانت تفتح وتغلق فمها الذي يشبه السمكة كأنها تحاول أن تقول شيئاً.

ماتت في باب الطهارة، كان السر هو الشيء الوحيد الذي امتلكته طوال حياتها وماتت من دون أن تفصح عنه.

1853: بيتا

الثلاثة

لم تعد تلبس مثل كابتن أو تطلق النار من المسدسات أو تمتطي حصاناً، لم تعد ساقاها تعملان وشوهت السمنة جسدها، لكنها تجلس على كرسي مرضها وكأنه عرش ثم تقشر البرتقال والجوافة بأجمل يدين في العالم.

محاطة بأباريق صلصالية، تحكم مانويلا ساينث في المدخل المظلل لمنزلها. فيما وراء ذلك، بين جبال بلون الموت، كان يمتد خليج بيتا. منفية في هذا الميناء البيروفي، عاشت مانويلا على صناعة الحلويات والمربى. وكانت السفن تقف لتشتري. كانت بضائعها تتمتع بشهرة وافرة على هذه السواحل وكان الحواتون يتنهدون من أجل ملعقة.

حين يخيم الليل، كانت مانويلا تسلي نفسها برمي الفتات إلى كلاب ضالة عمدتها بأسماء الجنرالات الذين خانوا بوليفار. وبينما تتعارك أسماء مثل سنتاندر، بايث، كوردوبا، لامار وسانتا كروزو، على العظام، كان وجهها القمري يتوهج وتنفجر بالضحك وهي تغطي فمها الأدرد بمروحة، كانت تضحك بكل جسدها وبجميع أشرطتها المخرمة الطائرة.

كان يزورها أحياناً صديق قديم يأتي من بلدة أموتابي. وكان سيمون رودريغز المتجول يجلس على كرسي هزاز قرب مانويلا ويدخن

الاثنان، يثرثران ويصمتان معاً. كان الشخصان اللذان أحبهما بوليفار أكثر من غيرهما يغيران الموضوع إذا دخل اسم البطل إلى الحديث.

حين يغادر الدون سيمون، تطلب مانويلا إحضار الصندوق الذهبي وتفتحه بمفتاح تخبئه في صدرها وتتحسس الرسائل الكثيرة التي كتبها بوليفار إلى المرأة الوحيدة، تلك الأوراق المنهكة التي لا تزال تقول: أرغب أن أراك ثانية وألمسك وأشعر بك وأتذوقك... ثم تطلب المرآة وتمشط شعرها بعناية فائقة تحسباً لاحتمال زيارته لها في الأحلام.

1854: أموتابي

شاهد يصف وداع سيمون رودريغز للعالم

حالما شاهد قس أموتابي يدخل، جلس الدون سيمون في السرير وأشار للكاهن أن يجلس على الكرسي الوحيد في الغرفة، وبدأ يلقي شيئاً مثل الخطبة في المادية. جلس القس هناك مبهوتاً ونادرا ما امتلك الشجاعة ليلفظ بضع كلمات محاولاً أن يقاطعه.

1855: نيويورك

ويتمان

دفع الشاعر من جيبه لينشر ديوان "أوراق العشب" بسبب عدم توفر أي ناشر.

بارك والدو إمرسون، لاهوتي الديمقراطية، الكتاب، لكن الصحافة هاجمته ككتاب نثري وفاحش.

في مرثية وولت ويتمان المهيبة، تزأر الحشود والآلات، يعانق الشاعر الله والمذنبين، الهنود والرواد الذين يمسحونهم عن وجه الأرض. يعانق العبد والسيد، الضحية والجلاد. تفتدي جميع الجرائم في نشوة العالم الجديد، أميركا، العضلية والمخضعة، التي لا تملك ديناً تدفعه للماضي، رياح التقدم التي تجعل الإنسان رفيق الإنسان وتحرر الفحولة والجمال.

1855: نيويورك

ميلفل

البحار الملتحي كاتب بلا قراء؛ منذ أربعة أعوام نشر قصة قبطان يطارد حوتاً أبيض في بحار الكون، قصة حربون متعطش للدماء يطارد الشر ولم ينتبه أحد إليها كثيرا.

في أزمنة النشاط تلك، على هذه الأراضي الأميركية الشمالية ذات الاتساع الكامل، كان صوت هيرمان ميلفل يغني نشازاً. كتبه لا تثق بالحضارة التي تضفي على المتوحش دور الشيطان وتجبره أن يلعبه - كما يفعل القبطان آخاب مع موبي ديك في المحيط الشاسع. رفضت كتبه الحقيقة الوحيدة والإلزامية التي يفرضها على الآخرين رجال معينون يعتقدون أنهم مختارون.

تثير كتب ميلفل شكوكاً حول الرذيلة والفضيلة، ظلّيْ العدم نفسه، وتعلم أن الشمس هي المصباح الوحيد الجدير بالثقة.

1855: منطقة واشنطن

أنتم أيها القوم ستختنقون من قمامتكم

حذر الزعيم الهندي سياتل:

ليست الأرض صديقاً للرجل الأبيض. إنها عدو له. وحين باشر بغزوها واصل ذلك، لكن جميع الأشياء مترابطة؛ ما يحل بالأرض سيحل بأبناء الأرض.

إن ضجة المدن تهين الأذنين.

الهواء ثمين بالنسبة للرجل الأحمر لأن الأشياء كلها تتقاسم النَفَس نفسه: الوحوش، الأشجار، الإنسان، وكمثل رجل مر على موته أيام كثيرة فإنه غافل عن النتانة...

لا يهم كثيراً أين نمضي بقية أيامنا لأنها معدودة. بعد بضع ساعات، بعد بضعة شتاءات... البيض أيضاً سيعبرون، ربما أسرع من القبائل الأخرى. إذا واصلتم تلويث سريركم فإنكم ستختنقون في إحدى الليالي في قمامتكم.

الغرب البعيد

هل يصغي أحد حقاً إلى الزعيم العجوز سياتل؟ لقد حكم على الهنود مثل الجواميس والأبل الأميركي. ذلك الذي لا يموت برصاصة يهلك جوعاً أو من الأسى. في السجن، وسط المعاناة، يتحدث الزعيم العجوز سياتل في العزلة عن الاغتصابات والإبادات ولا أحد يعرف ماذا يقول عن ذاكرة شعبه التي تتدفق في نسغ الأشجار.

صهل المهر. كان الرواد البيض يتقدمون كالشمس نحو الغرب وكان يرشدهم ضوء ألماسي صادر عن الجبال، كانت أرض الميعاد تجدد أي

شخص يغرز فيها محراثاً ليخصبها. في ومضة بزغت المدن والشوارع في العزلة التي كان يسكنها الصبار والهنود والأفاعي. قالوا إن المناخ مفيد جدا للصحة وإن الطريقة الوحيدة لتدشين المقابر هي إطلاق النار على شخص ما.

كانت الرأسمالية المذعورة والشرهة تحول كل ما تلمسه؛ توجد الغابة كي يقطعها الفأس، والصحراء ليعبرها القطار، والنهر لا يستحق الانتباه إذا كان يخلو من الذهب، ولا يُكترث بالجبال إن خلت من الفحم أو الحديد. لم يكن أحد يسير؛ كان الجميع يركضون مستعجلين - فالمسألة ملحة - وراء الظل البدوي للثروة والقوة، يوجد المكان ليهزمه الزمن ويوجد الزمن ليضحي به التقدم على مذابحه.

1856: غرانادا

ووكر

كان ابن تينيسي يطلق النار ويدفن من دون شاهدة. كان يملك عينين من الشرر ولا يضحك أو يشرب الكحول. كان يأكل وكأن المسألة واجب، ولم تُشاهد أية امرأة معه منذ أن توفيت خطيبته الصماء البكماء. وكان الله هو صديقه الوحيد الجدير بالثقة، كان يدعو نفسه "المقدر"، يرتدي ثياباً سوداء ويكره كل من يلمسه.

أعلن وليم ووكر، السيد الجنوبي، نفسه رئيساً لنيكاراغوا، فرشت ساحة غرانادا الرئيسة بالسجاد الأحمر ولمعت الأبواق في ضوء الشمس. عزفت الفرقة ألحاناً عسكرية أميركية شمالية بينما كان ووكر راكعاً وهو يقسم واضعاً يده على الإنجيل. أطلقت المدفعية عشرين طلقة تحية له، ألقى خطابه بالإنكليزية ثم رفع كأس ماء وشرب نخب رئيس الولايات المتحدة، مواطنه، وزميله الذي يقدره. قارن السفير الأميركي الشمالي جون ويلر، ووكر بكريستوف كولومبوس.

وصل ووكر إلى نيكاراغوا منذ عام على رأس كردوسة الخالدين. "سأقتل كل من يعارض التقدم الإمبراطوري لقواتي".

كمدية تشق اللحم جاء المغامرون الذين تطوعوا على أرصفة سان فرانسيسكو ونيو أورليانز البحرية.

أعاد رئيس نيكاراغوا الجديد الاسترقاق الذي ألغي في أميركا الوسطى منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وأعاد تأسيس تجارة الرقيق والقنانة والأعمال الشاقة، أصدر مرسوماً فرض الإنكليزية لغة رسمية لنيكاراغوا وقدم الأيدي والأراضي لأي أميركيين شماليين يهتمون بالمجيء.

1856: غرانادا

هنا انتصبت

خمسة أو لا شيء. لم تكن نيكاراغوا شيئاً كثيراً، لقد أراد وليم ووكر أن يغزو أميركا الوسطى كلها.

توحدت القطع الخمس لمسقط رأس مورازانٍ ضد القرصان وحولت قوته إلى أشلاء، قتلت حرب الشعب كثيرا من الأميركيين الشماليين، وقتلت أكثر من ذلك الكوليرا التي تملؤك بالتجاعيد والشيب وتنهيك فجأة.

عبر مسيح الاسترقاق الذي هزم هزيمة منكرة، بحيرة نيكاراغوا.

طاردته أسراب البط وجحافل من الذباب الناقل للعدوى. قبل أن يعود إلى الولايات المتحدة قرر ووكر أن يعاقب مدينة غرانادا؛ يجب ألا يبقى شيء حياً هناك، لا البشر ولا المنازل ذات الأسطح القرميدية ولا الشوارع الرملية المخططة بأشجار البرتقال.

صعدت ألسنة اللهب إلى السماء.

كان ثمة رمح مشكول في الأرض عند طرف الرصيف البحري المدمر وكانت قطعة جلدية تتدلى على الرمح كراية منكسرة مكتوب عليها بأحرف حمراء إنكليزية: هنا انتصبت غرانادا.

ووكر: «دفاعاً عن الاسترقاق»

إنٍ أعداء الولايات المتحدة ـ أي أعداء الاسترقاق ـ يبدون أكثر تيقظا من أصدقائها.

ثمة شيء منتظر من الجنوب من أجل ذكرى الموتى الشجعان الذين يرقدون في تربة نيكاراغوا. غادر هؤلاء الرجال منازلهم للدفاع عن العبودية وواجهوا بهدوء ورباطة جأش مخاطر مناخ استوائي وقدموا في النهاية أرواحهم...

إذا كان لا يزال هناك قوة في الجنوب ـ ومن يستطيع أن يشك بذلك ـ من أجل مزيد من الصراع ضد الجنود المضادين للعبودية، يجب أن تتخلص هذه القوة من النعاس الذي يغلفها وتستعد من جديد للصراع.. إن الحقل الحقيقي للعبودية هو أميركا الاستوائية، هناك تعثر على المقعد الطبيعي لإمبراطوريتها وهناك تنتشر إذا بذلت الجهد.

1858: منبع نهر جيلا

أراضي الأباتشي المقدسة

هنا، في الوادي الذي ولد فيه النهر، بين مرتفعات أريزونا الصخرية تقع الشجرة التي قدمت المأوى لجيرونيمو منذ ثلاثين عاما.

كان قد خرج لتوه من حوض أمه ولُفّ بقطعة قماش، علقوا قطعة القماش على غصن، هدهدت الريح الطفل بينما توسل صوت قديم للشجرة.

"دعيه يحيا ويكبر ليشاهدك تثمرين مرات كثيرة".

إن هذه الشجرة هي مركز العالم، حين يقف جيرونيمو في ظلها لا يخلط بين الشمال والجنوب أو بين الشر والخير.

كانت تنتشر حولها بلاد هنود الأباتشي الكبيرة، عاشوا في هذه الأراضي الوعرة منذ أن ارتدى أولهم، ابن العاصفة، ريش النسر الذي هزم أعداء الضوء. هنا لم ينقطع صيد الحيوانات أبدا ولا الأعشاب التي تشفي المرضى ولا الكهوف الصخرية التي تأوي الموتى.

وصل رجال غرباء على ظهور الأحصنة حاملين حبالاً وأوتاداً كثيرة. بدا جلدهم وكأنه أفرغ من الدم وكانوا يتحدثون لغة لم تُسمع أبدا من قبل. نصبوا في الأرض إشارات متألقة الألوان وسألوا ميدالية بيضاء كانت تجيب محركة إبرتها.

لا يعرف جيرونيمو أن الرجال جاؤوا ليمسحوا أراضي هنود الأباتشي ويبيعونها.

1858: كاسكييه

جيرونيمو

ذهب هنود الأباتشي من دون سلاح إلى سوق كاسكييه في الأراضي الجنوبية بين سونورا وكاساس غرانديس ليستبدلوا الغذاء بجلود الجواميس والأيائل. دمر جنود مكسيكيون مخيماتهم واستولوا على أحصنتهم، كان من بين الموتى أم وزوجة جيرونيمو وأطفاله الثلاثة.

لم يقل جيرونيمو شيئاً بينما كان رفاقه يجتمعون ويموتون بحزن. حوصروا عزلاً من السلاح ولم يكن ثمة خيار أمامهم سوى المغامرة.

جالساً قرب النهر بلا حراك، كان يراقب أبناء قومه يتقدمون خلف الزعيم مالغاس كولورادو، هنا بقي الموتى. أخيراً غادر جيرونيمو

أيضاً ناظراً فوق كتفه. تبع قومه على مسافة مناسبة ليسمع الوقع الناعم لأقدام الأباتشي المنسحبين.

لا يتفوه بكلمة طوال المسير الطويل نحو الشمال. حين وصل إلى الوطن، أحرق منزله الجلدي ومنزل والدته وجميع أشيائه وأشياء زوجته وأمه وألعاب أطفاله. ثم، مديرا ظهره إلى النار، رفع رأسه وغنى أنشودة الحرب.

1858:سان بورخا

ليمت الموت

يتحرق جسده الموجوع من أجل أن يمتزج بالتربة الأميركية. عرف إيمي بونبلان أن المطاف سينتهي به إلى هناك، منذ ذلك اليوم البعيد حين نزل مع همبولت على الساحل الكاريبي.

مات بونبلان من موته في كوخ مبني من القش والطين؛ مات بهدوء عارفاً أن النجوم لا تموت، أن النمل والبشر لن يتوقفوا عن الولادة، أنه سيكون هناك أوراق برسيم جديدة وبرتقال أو شموس جديدة على الأغصان وأن المهور التي تنتصب على سيقانها النحيلة كسيقان البعوض ستمد أعناقها بحثاً عن حلمة. ودع العجوز العالم كما يودع طفل النهار وقت النوم.

فيما بعد، طعن سكير الجسد، لكن تلك البلاهة الشريرة للبشرية تفصيل لا أهمية له.

1860: شان سانتا كروز

المركز الاحتفالي لمتمردي يوكاتان

«لم يضعني أبي بين الأغنياء ولا مع الجنرالات أو مع أولئك الذين يملكون مالاً أو مع الذين يدعون ملكيته».

لقد أعلنت هذا في يوكاتان أم الصلبان، تلك التي بزغت من شجرة ماهوغاني إلى جانب النبع. وحين قطع الجنود شجرة الماهوغاني وأحرقوا الصليب الصغير الذي يرتديه الهنود، كانت قد أنجبت بناتاً مسبقاً. بعثت الكلمة إلى الحياة من صليب إلى آخر: "وضعني أبي مع الفقراء، لأنني فقير".

حول الصليب، حول الصلبان، نشأ شان سانتا كروز، الملاذ الكبير لمتمردي المايا في غابة يوكاتان.

دخل جنود حملة العقيد أسيريتو من دون مقاومة، لم يجدوا هنوداً وتُركوا فاغري الأفواه. كان الهنود قد بنوا كنيسة ضخمة من جدران صلبة تحت قبة مهيبة كمنزل للإله، منزل للإله اليغور، وعلقوا في البرج الأجراس التي أخذت من باكالار.

كان كل شيء مخيفاً في المدينة المقدسة الخالية من البشر، ولم يكن في المزادات سوى قليل من الماء، لكن العقيد أسيريتو منع الشرب من الآبار؛ منذ ستة أعوام شرب جنود آخرون وتقيؤوا وماتوا بينما كان الهنود يسألوهم من الدغل إذا كان الماء عذبا.

من الصبر إلى فقدان الصبر أمضى الجنود الأيام. في غضون ذلك، تدفق الهنود من مائة قرية ومن ألف بقعة لزراعة الذرة، أحضروا بنادق أو مناجل وكيساً صغيرا من طحين الذرة، احتشدوا في الدغل وحين قرر الكولونيل أسيريتو أن ينسحب سحقوا قواته في هجمة واحدة.

فرض على الفرقة الموسيقية التي أسرت سليمة أن تعلم الأطفال الموسيقى وأن تعزف موسيقى البولكا في الكنيسة حيث يعيش

الصليب، ويتحدث محاطاً بآلهة المايا. هناك، في الكتيبة، يحتفل البشر بالعشاء الرباني مستخدمين خبز الذرة والعسل، وينتخبون مرة في كل عام مسؤولين للصليب وزعماء محاربين يرتدون أقراطاً ذهبية لكنهم يشتغلون في حقول الذرة كأي شخص آخر.

1860: هافانا

شاعر في أزمة

بكلفة ثلاث عشرة ميتة في كل كيلومتر نصبت كوبا سكة الحديد التي تنقل السكر من حقول غينز إلى ميناء هافانا؛ موتى أفارقة، أيرلنديون، من جزر الكاناري، صينيون من ماكاو، عبيد أو عمال نهاريون يائسون أحضرهم التجار من أمكنة بعيدة، وكان ازدهار السكر يتطلب المزيد والمزيد.

منذ عشرة أعوام وصلت الشحنة الأولى من هنود المايا اليوكاتانيين إلى كوبا. بيع مائة وأربعون هندياً من أسرى الحرب بسعر خمسة وعشرين بيزو للرأس، أما الأطفال فقد بيعوا مجاناً. فيما بعد، منح الرئيس المكسيكي سانتا آنا احتكار التجارة للعقيد مانويل ماريا خيمينيث وارتفع السعر إلى مائة وستين بيزو للرجل، ومائة وعشرين بيزو للمرأة وثمانية للطفل. تواصلت حرب المايا وازدادت معها القروض والبنادق الكوبية، كانت حكومة يوكاتان تأخذ ضريبة على كل عبد يباع وهكذا كانت تدفع هنودا من أجل الحرب ضد الهنود.

اشترى الشاعر الإسباني خوسيه ثوريلا شحنة هنود في ميناء كامبيتشي كي يبيعها في كوبا، كان على وشك ركوب السفينة حين قتلت الحمى الصفراء شريكه في رأس المال سيبريانودي لاس كاخيغاس في هافانا، والآن يعزي مؤلف "دون جوان تينوريو" نفسه بكتابة الأشعار في مستعمرة لزراعة البن.

1861: هافانا

أيدي السكر

ستعرض هافانا حالاً ألعابها الزهرية، اقترح مفكرو المجتمع الأدبي حافزاً مركزياً كبيراً، أرادوا أن يتمحور التنافس الأدبي حول موضوع طلب ستين ألف عبد جديد من أسبانيا، هكذا سيدعم الشعراء مشروع استيراد السود الذي يتمتع مسبقاً برعاية صحيفة "ديابو دي لامارينا" وبالمباركة القانونية للنائب العام.

كان السكر يحتاج إلى الأيدي، وكان السود الذين يهربون عن طريق ماريبيل وكوجيمار وسواحل باتابانو، نادرين ومكلفين.

خطط للمشروع ثلاثة من مالكي مطاحن السكر، لأن كوبا مستنفذه ومخربة فهي تتوسل إلى السلطات الإسبانية أن تسمع صرخات ألمها وتزودها بسود متواضعين ومخلصين تدين لهم كوبا بازدهارها الاقتصادي. قال بإلحاح إنه سيكون من السهل إحضارهم من أفريقيا ذلك أنهم سيركضون بمتعة إلى السفن الأسبانية حين يشاهدونها تقترب.

لغة السكر

زُيِّنت شبك نوافذ منازل هافانا بلوالب حديدية وزيّنت أعمدتها بقصابات زينة ملاطية، أما المداخل فقد زُيِّنت بمصنوعات خشبية مخرّمة ووضع ريش الطاووس على النوافذ ذات الزجاج الملوّن. كان حديث الأطباء والكهنة يتوهج بالأرابيسك. وصل الشعراء إلى قواف لم يُسمع بها والناثرون إلى أكثر النعوت جلجلة، كافح الخطباء لإيضاح فكرتهم، فكرتهم القلقة الهاربة، الفكرة التي تحدق من وراء ظرف أو علامتي حصر بينما يضيف الخطيب إليها المزيد من الكلمات وتتمدّد

الخطبة محاولة أن تمسك بالفكرة لكنها تواصل الهرب وتستمر المطاردة بلا توقف.

من ناحية أخرى، كانت كتب المحاسبة تتحدث لغة الواقع الفظّة. كانوا يسجلون في مطاحن السكر في جميع أرجاء كوبا ولادة أو شراء كل عبد أسود كمكسب تجاري ويحسبون النقص بنسبة 3% سنوياً. كان مرض الرجل مساويا لعطل صمّام، وكانت الوفاة مثل فقدان رأس من القطيع؛ القطيع المقتول هو قطيع الجواميس، فقدنا خنزيرة السيبة، توفي الزنجي دومنغو موندنغو.

1861: بل رن

الرماديون ضد الزرق

خيضت معركة الحرب الأهلية الأولى قرب مدينة واشنطن. التفت جمهور غفير كان في العربات أو على ظهور الأحصنة، ليشاهد العرض، ولم يكد الدم يتدفق حتى خرت الأحصنة وأجفل الجمهور وصرخ هلعا، وحالاً امتلأت شوارع العاصمة بالمبتورين والموتى.

كان البلدان المتصارعان يقتسمان الخريطة نفسها والراية واسم الولايات المتحدة . نقلت صحيفة جنوبية خبر انتخاب أبراهام لنكولن في قسم "أخبار من الخارج" وفي غضون أشهر شكلت الولايات الجنوبية أمة منفصلة ثم نشبت الحرب.

كان الرئيس الجديد لنكولن يجسد مُثل الشمال، أعلن أثناء حملته أنه من المستحيل إبقاء البلاد موزعة بين نصف من الأحرار ونصف من العبيد ووعد بالمزارع بدل المستعمرات الزراعية وبالتعرفة الجمركية ضد منافسة الصناعة الأوروبية.

الشمال والجنوب: مكانان، فترتان. في الشمال كانت المصانع تنتج أكثر من الحقول، والمخترعون الذين لا يتعبون يخترعون التلغراف، آلة الخياطة والحصادة. وكانت مدن جديدة تبزغ في جميع الأنحاء

ووصل عدد السكان في نيويورك إلى مليون. وكانت الأرصفة البحرية ضيقة على السفن المكتظة بالأوربيين اليائسين الذين ينشدون بلادا جديدة. أما في الجنوب فثمة كبرياء الأسلاف والحنين، حقول تبغ ومستعمرات قطن زراعية كبيرة وأربعة ملايين عبد ينتجون المواد الخام لمعامل النسيج في لانكشاير. وثمة سادة يتبارزون من أجل شرف أخت ملوث أو الاسم الظاهر لأسرة. وكانت السيدات يهوين أنفسهن في العربات عبر الريف المزهر ويصبن بالإغماء على شرفات قصورهن بعد الغروب.

1862: فريديركسبرغ

قلم الرصاص الحرب

كان الجندي الشاب الذي ينظر من دون أن يرى يسند ظهره إلى حائط ويضع ساقاً فوق أخرى، كان نمو لحيته الذي تواصل عدة أشهر قد بسط الياقة المفتوحة لصدرته، كانت يد جندي تخبط على رأس كلب ينام على ركبتيه.

كان جون جيسر المتطوع من بنسلفانيا يرسم نفسه ورفاقه بينما كانت الحرب تمارس القتل. كان قلمه يجمدهم للحظة في الطريق إلى الخندق الذي تنقب فيه قذائف المدفعية، كان الجنود يذخرون البنادق أو ينظفونها أو يأكلون الحصص المخصصة لهم والمؤلفة من البسكويت ولحم الخنزير، أو كانوا يحدقون بأعين حزينة، حزانى كانوا ينظرون من دون أن يشاهدوا أو ربما كانوا يشاهدون ما ينظرون إليه.

1863: مكسيكو سيتي

الجزائر الأميركية

أطلقت صحافة باريس اسم الجزائر الأميركية على المكسيك، هاجم جيش نابليون الثالث وغزا العاصمة والمدن الرئيسة.

في روما قفز البابا من الفرح؛ كانت حكومة بينيتو خواريز التي أطاح بها الغزاة مذنبة بالتجديف ضد الله وأملاكه في المكسيك. لقد عرى خواريز الكنيسة وحرمها من عشورها المقدسة وعقاراتها الشاسعة كالسماء ومن حماية الدولة الخليجية.

انضم المحافظون إلى الفاتحين الجدد، ساعد عشرون ألف جندي مكسيكي ثلاثين ألف جندي جاؤوا من فرنسا وكانوا قد انتهوا لتوهم من غزو شبه جزيرةٍ القرم والجزائر والسنغال. احتل نابليون الثالث المكسيك مستنهضاً الروح اللاتينية، والثقافة اللاتينية والسلالة اللاتينية ولدى مروره كان يطلب تسديد دين ضخم وخيالي.

تولى مسؤولية المستعمرة الجديدة ماكسميليان النمساوي، أحد أمراء أوروبا الكثيرين العاطلين عن العمل، وكانت ترافقه زوجته الفاتنة.

1863: لندن

ماركس

«سيحطم نابليون الثالث رأسه في المكسيك هذا إذا لم يشنقوه في البداية»... هذا ما أعلنه نبيّ حكيم فقره مدقع يعيش على ما يستطيع أن يستدينه في لندن.

وبينما كان يصحح ويصقل مسودات عمل سيغيّر العالم، لم يفوّت كارل ماركس تفصيلاً واحداً مما يحدث في العالم. سمّى في رسائله ومقالاته نابليون الثالث الإمبراطور الشحّاذ، وعدّ غزو المكسيك مشروعاً مخزياً. شجب أيضاً إنكلترا وأسبانيا اللتين رغبتا أن تقتسما مع فرنسا منطقة المكسيك كغنيمة حرب، شجب أيضاً جميع الأمم التي تسرق الأمم والمعتادة على إرسال آلاف مؤلفة من البشر إلى المسلخ من أجل أن يوسع المرابون والتجار نطاق مشاريعهم.

لم يعد ماركس يؤمن بأن التوسع الإمبراطوري للبلدان الأكثر تطوراً هو نصر للتقدم على التخلف. على أية حال، اختلف منذ خمسة عشر عاماً مع إنجلز الذي صفق لغزو الولايات المتحدة للمكسيك معتقداً أن هذا سيحول الفلاحين إلى بروليتاريا ويطيح بالأساقفة والإقطاعيين.

1865: لا باز

بيلثو

أعاد طوفان من الهنود المتمردين بيلثو إلى السلطة، عاد إسيدورو بيلثو، الجد بيلثو، المنتقم للفقراء ومعذب الأطباء، إلى لا باز ممتطياً موجة بشرية.

حين كان في السلطة منذ بضع سنوات، كانت عاصمة بوليفيا أينما كان ممتطياً فرسه، ولم ينجح أسياد البلاد الذين حاولوا القيام بأكثر من أربعين انقلاباً عسكرياً في الإطاحة به. كره التجار الأجانب بيلثو لأنه أغلق الأبواب في وجوههم وحمى صناع كوشابامبا من غزو المعاطف البريطانية الواقية من المطر. ارتعب منه محامو تشوكيساكا الصغار الذين كان يجري في شرايينهم الحبر أو الماء، تآمر ضده أيضاً أسياد المناجم الذين لم يقدروا أبداً أن يملوا عليه أي مرسوم.

عاد بيلثو النحيل والأنيق، دخل القصر على صهوة حصانه، بخطوات رشيقة وكأنه يوجه سفينة.

من كلمة لبيلثو

موجهة إلى الشعب البوليفي

حان وقت أن نطلب من الأرستقراطية أن تعيد ألقابها، ومن الملكية الخاصة أن تعيد امتيازاتها... إن الملكية الخاصة هي المصدر الرئيس لمعظم الاعتداءات والجرائم في بوليفيا، إنها سبب الصراع المستمر بين البوليفيين، إنها أساس تلك الأنانية التي تشجبها إلى الأبد الأخلاق الكونية. تسقط الملكية، يسقط المالكون والورثة! تسقط الأرستقراطية! لتوزع الأراضي على الجميع وليتوقف استغلال الإنسان للإنسان!

1865: لا باز

ميلغاريجو

كان ماريانو ميلغاريجو، العدو الأشرس لبيلثو، هرقلاً يقدر أن يحمل حصاناً على كتفه. ولد في تاراتا، الأرض الجبلية المغطاة بالأعشاب، لأب مارس الحب وغادر. ولد يوم الأحد في عيد الفصح.

«لقد اختارني الله لأولد بينما هو ينبعث».

قبل أن يتعلم السير عرف كيف يمتطي أحصنة نادراً ما رفعت رؤوسها فوق العشب الأخضر، وعرف، قبل الحلمة الأمومية، الشيكا التي تجعلك تطوف أو تطير، أفضل شيكا في بوليفيا، حليب تاراتا، ذرة تمضغها النساء العجائز وتتخمها باللعاب الأكثر قذارة.

وقبل أن يعرف كيف يكتب اسمه، كان لا يمكن إيقافه في الهجمات المشهورة للمعركة حيث كان يقاتل جسداً أمام جسد بسترة ممزقة، رافعاً وباتراً البشر بالخنجر والرمح أو السيف.

قضى على حياة كثيرين، هذا المتمرد والمشاغب الأبدي، قتل في وضح النهار وفي الليالي المظلمة وحكم عليه بالموت. في الليلة قبل الماضية نام على العرش وفي الليلة الماضية نام في أخاديد الجبال.

دخل البارحة إلى مدينة لا باز على رأس جيشه، راكباً على مدفع ضخمٍ بينما كان معطفه الأحمر يتوهج كراية، واليوم عبر الساحة كئيباً ووحيدا.

1865: لا باز

أقصر انقلاب عسكري في التاريخ

إنها ساعة بيلثو. جاء ميلغاريجو المهزوم ليستسلم وعبر الساحة وسط الصرخات.

كان بيلثو ينتظر في غرفة ضخمة في الطابق الثاني، دخل ميلغاريجو القصر، صعد الدرج من دون أن ينظر إلى الأعلى وكانت لحيته السوداء منبسطة على صدره الجاموسي، كان الحشد يصرخ في الساحة.

يعيش بيلثو، جدنا بيلثو!

سار ميلغاريجو نحو بيلثو فنهض الرئيس وفتح ذراعيه قائلاً:

- أسامحك.

كانت الأصوات ترعد من خلال النوافذ المفتوحة.

- جدنا بيلثو!

استسلم ميلغاريجو للعناق وأطلق النار، دوت الطلقة وسقط الجسد على الأرض،

خرج المنتصر إلى الشرفة وعرض الجثة وقدمها.

بيلثو ميت! من التالي؟

1865: أبوماتوكس

الجنرال"لي" يسلم سيفه الياقوتي

وسط تقدم ساحق انتظر الجنود الشماليون الأمر من أجل الهجوم النهائي، تصاعدت في تلك اللحظة سحابة غبار من خطوط العدو وازداد نموها وبزغ من جيش الرماديين الجائع والممزق فارس يحمل راية بيضاء معلقة بعصا.

نقش الجنود الجنوبيون أسماءهم على ظهورهم في المعارك الأخيرة لكي يتم التعرف عليهم بين الأموات. كان الجنوب المدمر قد خسر الحرب منذ وقت طويل ورغم ذلك واصلها بسبب العناد وحس الشرف.

الآن يقدم الجنرال المهزوم روبرت إف .لي بيد ترتدي قفازاً سيفه المرصع بالياقوت، بينما كان الجنرالٍ المنتصر يوليسيس غرانت يدخن أو على الأقل يمضغ سيجاراً من دون سيف أو شارات شرف وبسترة مفتوحة الأزرار.

انتهت الحرب وانتهت العبودية ومع سقوط العبودية سقطت الأسوار التي منعت التطور الكامل للصناعة في الولايات المتحدة وتوسع سوقهٍا المحلية. مات في الحرب ستمائة ألف شاب وكان نصفهم سودا يرتدون اللباس الأزرق للكتائب الشمالية.

1865: واشنطن

لنكولن

جاء إيب[2] من كينتكي حيث استعمل والده الفأس والمطرقة وكان للكوخ جدران وسقف وأسرة من الأوراق الجافة. كانت فأسه تقطع كل يوم خشباً للنار وفي أحد الأيام انتزعت من الغابة الخشب اللازم لدفن والدة إيب تحت الثلج. كان إيب ولداً صغيراً حين غرزت المطرقة تلك المسامير الخشبية من أجل الأم التي لن تصنع أبداً مرة أخرى خبزاً أبيض أيام السبت، أو تطرف تينك العينين المحتارتين دائماً، ثم أحضرت الفأس خشباً لصنع معدية كي يقدر الأب أن يأخذ أولاده في النهر إلى إنديانا.

جاء من إنديانا؛ هناك كتب إيب حروفه الأولى بالفحم وأصبح أفضل ناشر للقضبان الخشبية في المقاطعة.

جاء من إلينيوي؛ في إلينيوي أحب امرأة اسمها آن، وتزوج أخرى اسمها ماري تتحدث الفرنسية ونشرت موضة التنورة القرينولية في سبرنغفيلد. قررت ماري أن إيب سيصبح رئيس الولايات المتحدة، وبينما كانت تتجنب الذكور، كان يكتب الخطب وبعض القصائد في جزيرة ذهنه الكئيبة، تلك الجزيرة السحرية التي استحمت في سائل ضوئي.

جاء من الكابيتول[3] في واشنطن، وحين مد عنقه من النافذة، شاهد سوق العبيد الذي كان إصطبلاً حجز فيه السود كالأحصنة.

جاء من البيت الأبيض؛ جاء إليه واعداً بالإصلاح الزراعي وحماية الصناعة معلناً أن أي شخص يجرد آخر من حريته غير جدير بأن

---

[2] إيب: اختصار لأبراهام.

[3] مبنى الكونغرس الأميركي.

يستمتع بها. دخل البيت الأبيض مقسماً أنه سيحكم بطريقة يمتلك فيها صديقاً داخل نفسه حين لا يملك أي صديق. حكم في زمن الحرب وأنجز وعوده في زمنها، كان يمكن أن يشاهد في الفجر منتعلا شبشبه، واقفا على باب البيت الأبيض لينتظر الصحيفة.

جاء من دون عجلة، لم يكن أبراهام لنكولن مستعجلاً أبداً، كان يسير كالبطة باسطا قدميه الضخمتين، شاخصا كبرج في الحشد الذي يهتف له، دخل المسرح وصعد الدرج ببطء إلى المقصورة الرئاسية. في المقصورة، فوق الأزهار والرايات، يشكل رأسه الناتئ العظام ذو العنق الطويل صورة جانبية في الظلال، وفي الظلال تشع أعذب عينين وأكثر الابتسامات كآبة في أميركا.

جاء من النصر والحلم. اليوم هو الجمعة الحزينة ومنذ خمسة أيام استسلم الجنرال لي. في الليلة الماضية حلم لنكولن ببحر من الغموض وبسفينة غريبة أبحرت نحو شواطئ ضبابية.

جاء لنكولن من حياته كلها سائراً من دون عجلة نحو ذلك الموعد في مقصورة المسرح الكوميدي في مدينة واشنطن.

الآن تنطلق نحوه الرصاصة التي تشق رأسه.

1865: واشنطن

تمجيد

كم شُنِق من السود لأنهم سرقوا زوجاً من البنطلونات أو نظروا في عيني امرأة بيضاء؟ ما أسماء العبيد الذين أحرقوا نيويورك منذ قرن؟ كم سار من البيض على منوال إيليا لوفجوي، الذي ألقيت مطبعته في النهر واغتيل في إلينيوي من دون أن يُشاهد أو يُعاقب أحد من أجل ذلك؟ كان تاريخ إلغاء العبودية في الولايات المتحدة يمتلك أبطالاً لا يُحصون من البيض والسود مثل:

- جون رسورم (John Russwarm) وصامويل كورنيش (Samuel Cornish) اللذان أسّسا أول صحيفة للسود، وتيودور ويلد (Theodore Weld) الذي أسس أول مركز للتعليم العالي سمح بقبول النساء والسود.

- دانييل بين (Daniel Payne) الذي نجح في جعل مدرسته مفتوحة ست سنوات للسود في تشارلستون، وبرودنس كراندال (Prudence Crandal) ، المدرسة الكويكرية في كونيتيكت، التي أهينت ورُجمت وسُجنت وفقدت تلاميذها البيض وأحرقت مدرستها لأنها قبلت فتاة سوداء فيها.

- جابرييل بروسر (Gabriel Prosser) الذي نشد الحرية لأخوته في فيرجينيا وعثر على مشنقة لنفسه، وديفد ووكر (David Walker) الذي دفعت سلطات جورجيا مقابل رأسه عشرة آلاف دولار، والذي تجول معلناً أن قتل إنسان يمزّق حياتك هو مثل تناول الماء إذا كنت ظمآناً، والذي واصل ترديد ذلك إلى أن اختفى أو أُخفي.

- نات تيرنر (Nat Turner)، الذي رأى في السماء في أثناء كسوف شمسي إشارة تقول إن الأخير سيصبح الأول وجن من العنف الإجرامي، وجون براون (John Brown) الذي امتلك لحية صياد وعينين ناريتين وهاجم مخزن أسلحة في فيرجينيا وشن من مبنى دائري لإيواء القطارات معركة ضد المارينز، ثم رفض أن يدافع عنه محاميه على أساس أنه مجنون وسار بكرامة إلى منصة الإعدام.

- وليام لويد جاريسون: (William Loyd Garrison) العدو المتعصب ضد لصوص البشر، الذي عُرض في شوارع بوسطن بحبل حولٍ عنقه. هنري جارنت (Henry Garnet) الذي وعظ في الكنيسة قائلاً إن العبد المستسلم يذنب ضد الله، وهنري وارد بيتشر (Henry Ward Beecher) كاهن من بروكلين قال إن البندقية مفيدة أكثر من الإنجيل في بعض الحالات، وهكذا سميت الأسلحة التي أرسلت إلى عبيد الجنوب أناجيل بيتشر.

- هارييت بيتشر ستاوٍ (Hariet Beecher Stowe)، التي ربحت روايتها كوخ العم توم كثيراً من البيض إلى جانب القضية. وفرانسيس

هاربر (Fraces Harper) الشاعر الذي عثر على الكلمات المناسبة ليشتم السلطة والمال. وسولومون نورثرب (Solomon Northrup)، العبد لويزنانا الذي يعتبر شاهداً على الحياة في مستعمرات زراعة القطن من صوت البوق قبل شروق الشمس إلى منتصف الليل.

- فريدريك دوجلاس (Frederick Douglass)، العبد الهارب من ميريلاند الذي حول في نيويورك يوم الاستقلال إلى إدانة وأعلن أن الحرية والمساواة تبدوان كمحاكاة تهكمية ساخرة.

- هارييت تبمان (Harriet Tubman)، الفلاح الأمي الذي نظم هرب أكثر من ثلاثمائة عبد إلى كندا عن طريق "بول ستار".

1865: بوينس آيرس

خزي ثلاثي

بينما كان التاريخ في أميركا الشمالية يربح حرباً، نشبت حرب سيخسرها التاريخ في أميركا الجنوبية، ذلك أن بوينس آيرس وريو دي جانيرو ومونتيفيديو، المرافئ الثلاثة التي سحقت خوسيه أرتيغاس منذ نصف قرن، قررت أن تدمر الباراغواي.

في ظل الديكتاتوريات المتعاقبة لغاسبار رودريغز دي فرانسيا وكارلوس أنطونيو لوبيث وابنه فرانسيسكو سولانو، الذين تمتعوا بسلطة مطلقة، أصبحت الباراغواي مثالاً سيئاً قد يسبب عدوى خطيرة لجيرانها. لم يكن أصحاب الأراضي يحكمون في الباراغواي ولم يضارب التجار ولم يختنق المرابون. ولأنها كانت محاصرة من الخارج نمت البلاد نحو الداخل وواصلت نموها من دون أن تطيع السوق العالمية أو رأس المال الأجنبي. وبينما كان الآخرون يتدلون على مشانق ديونهم، لم تكن الباراغواي مدينة بسنتافو واحد، وكانت تسير على رجليها الخاصتين.

كان السفير البريطاني في الأرجنتين إدوارد ثورنتون هو الكاهن الأعلى لطقس طرد الأرواح الشريرة، ستطرد الأرجنتين والبرازيل والأوروغواي الشيطان من خلال غرز حراب في تلك البطون المتعجرفة.

1865: بوينس آيرس

الحلف المنسوج من لعاب العنكبوت

كتاج غرائبي على شجرة صغيرة، كان رأس تشاتشو بينالوكا المشكول على رأس رمح، كعرف شعر يربطه شريط، يزين مركز الساحة. كان تشاشو وحصانه عضلة واحدة، أسروه وهو بلا حصان وغدراً قطعوا رأسه، ولكي يبقوا "الرعاع" صامتين، عرضوا رأس راعي البقر المحارب الذي من سهل ريوخا. هنأ دومينغو فاوستينو سارمينتو الجلادين.

أطالت الحرب ضد الباراغواي حرباً أخرى استمرت نصف قرن، وهي حرب بوينس آيرس، المرفأ المصاص للدماء، ضد الأقاليم. تعاون فينانسيو فلورنس ابن الأوروغواي مع ميتر وسارمينتو في إبادة رعاة البقر المتمردين وحصل على رئاسة الأوروغواي كمكافأة له. فرضت السفن والأسلحة الأرجنتينية فلوريس على الحكومة، افتتح غزو الأورغواي بقصف مدينة بيساندو غير المحمية، قاومت بيساندو شهرا إلى أن أعدم ليندرو فوميز، رئيس الدفاع، وسط الأنقاض الملتهبة.

هكذا أصبح الحلف المزدوج ثلاثياً، تولت حكومات الأرجنتين والبرازيل والأوروغواي بمباركة وقروض إنكليزية علاج الباراغواي، وقعت اتفاقية قالت إنها تشن الحرب باسم السلام. توجب على الباراغواي أن تدفع كلفة إبادتها وسيزودها المنتصرون بحكومة مناسبة.

وباسم احترام سيادة أرض الباراغواي، ضمنت الاتفاقية ثلث أرضها للبرازيل ومنحت الأرجنتين كل مسيونيس وتشاكو الفسيحة.

شنت الحرب أيضاً باسم الحرية. وعدت البرازيل، التي تملك مليوني عبد، أن تمنح الحرية لـلباراغواي التي لا تملك عبداً واحداً.

1865: سان خوسيه

أركيثا

يقولون إنه يقبل يد امرأة فيحبلها، يجمع الفدادين والأطفال، كان يمتلك من الأطفال مائة وخمسين هذا من دون أن نحصي المشتبه بهم، ومن الأراضي، من يعرف؟ يعبد المرايا والأوسمة البرازيلية والبورسلان الفرنسي ورنين النقود الفضية.

خوستو خوسيه أركيثا، الرئيس الموقر للساحل الأرجنتيني، الرجل الذي هزم منذ سنوات خوان مانويل دي روزاس، يمتلك شكوكاً حول حرب الباراغواي. حسمها ببيع ثلاثة آلاف حصان من حظائره الكبيرة إلى الجيش البرازيلي بسعر ممتاز ووقع عقداً لتزويد جيوش الحلفاء بلحم بقر معلب. بعد أن تحرر من شكوكه، حكم بالموت على كل من رفض قتل الباراغويين.

1866: كوروبايتي

ميتر

تندفع في المياه الشظايا التي كانت سفناً، ورغم أن أسطول الباراغواي قد دُمر، لم يستطع أسطول الحلفاء أن يواصل غزوه باتجاه أعالي النهر، ذلك أن مدافع كوروبايتي وهيوميتا أوقفته وعام بين الحصنين صف من الألغام امتد من الشاطئ إلى الشاطئ.

بقيادة رئيس الأرجنتين، القائد العام للحلف الثلاثي، اقتحم الجنود متاريس كوروبايتي بالحراب، أمر البوق موجات متعاقبة من الجنود للقيام بالهجوم، وصلت قلة إلى الخندق، لكن لم يصل أحد إلى السياج، كان أبناء الباراغواي يتمرنون على رمي عدو يلح على إظهار نفسه في البلاد المفتوحة في وضح النهار. كان زئير المدافع ودمدمة الطبول يتبع بقعقعة نيران البنادق، كان حصن الباراغويين ينفث ألسنة لهب وحين انجلى الدخان كضباب بطيء استلقى آلاف الموتى في المستنقعات بعد أن اصطيدوا كالأرانب، من مسافة معقولة كان بارتولومي ميتر الذي يرتدي معطفاً واقياً أسود ويعتبر قبعة تشامبيركو يتأمل نتائج عبقريته العسكرية وهو يحمل منظارا في يده.

كذب بإخلاص مثير للإعجاب، واعداً القوات الغازية أنها ستصل إلى أسنسيون في غضون ثلاثة أشهر.

1866: كوروبايتي

فرشاة الحرب

كانديدو لوبيث، أحد جنود ميتر، رسم كارثة كوروبايتي والمعارك الأولى التي شارك فيها والحياة اليومية في المعسكرات، رسم بيده اليسرى لأن قنبلة قطعت يده اليمنى في كوروبايتي.

رسم من دون أن يحاكي أحداً ومن دون أن يحاكيه أحد، وكان يبيع في أثناء الأسبوع الأحذية في حانوت في بوينس آيرس وفي أيام الأحد صنع اللوحات التي تقول: "كانت الحرب هكذا". أصبحت اليد اليسرى الغبية حكيمة من خلال حب الذاكرة، لكن لن يخصه أي فنان بأدنى اهتمام ولن يعامله أي ناقد بجدية ولن يشتري أحد ذكرياته عن ضباط وجنود الصف. "أنا مؤرخ بالفرشاة".

رسم كانديدو لوبيث المنعزل الحشود ولم يضع في لوحاته قادمات لسيوف براقة وأحصنة مندفعة أو أبطالاً يلفظون الكلمات

الأخيرة وهم يحتضرون واضعين أيديهم على صدور نازفة. ولا يضمن قصصاً عن عظمة بصدر مكشوف. يمر من خلال عينيه الطفليتين جنود صغار لا يحصون ودوارة من الأحصنة تلعب في تشكيل منظم لعبة الحرب المريعة.

1867: سهول كاتاماركا

فيليبي فاريلا

تمرد رجال تلال على صهوات أحصنتهم في خمسة مناطق أرجنتينية. تحدت السكين القاطعة، المثبتة إلى رمح، مدفعية كتائب الجبهة ناشدة قتالاً بالسلاح الأبيض، وتعالت من العاصفة الغبارية لتلك المواجهات صرخة: تعيش الباراغواي!

جاء فيليبي فاريلا من الآنديز وحرض فلاحي سهول كاتاماركا ضد بوينس آيرس، الميناء الذي يستغل الأرجنتين وينفي أميركا. شجب إفلاس الأمة التي تتجرجر في ديون ضخمة من أجل أن تدمر أمة شقيقة. حمل أتباعه الجبليون إلى المعركة كلمة السر في رؤوسهم وهي الوحدة الأميركية وحملوا في قلوبهم غضباً قديماً: إن الإقليمي شحاذ من دون بلاد.

فاريلا، راعي البقر الطويل والنحيل المؤلف فقط من عظمي خدين وذقن، الذي ولد وتربى على ظهر حصان، هو الصوت الخشن للفقراء في نهاية قدرتهم على التحمل. نقل المتطوعون الإقليميون مغلولين إلى مستنقعات الباراغواي، سُجنوا في الزرائب وأطلقت عليهم النار حين تمردوا أو فروا.

1867: سهول لاريوخا

التعذيب

نال العقيد بابلو إرتابل شهادة من رجال سهول لاريوخا المتمردين. نال شهادة بعد أن وضعهم على المشهرة أو أجبرهم على السير بأقدام مسلوخة أو شق رقابهم تدريجيا بسكين مثلمة.

كان مرفأ بوينس آيرس يستخدم أدوات إقناع متنوعة ضد الأقاليم المتمردة. وكانت إحدى الأدوات الأكثر فعالية تدعى المشهرة الكولومبية، كان السجين يقيد إلى المشهرة ويربط بقطع جلدية رطبة بين بندقيتين وحين تجف القطع يطق عموده الفقري ويتفتت.

1867: لا باز

حول الدبلوماسية، علم العلاقات الدولية

وصل الرئيس ميلغاريجو راكباً على هولوفيرنيس، حصانه في الحرب والقيلولة، إلى كاتدرائية لا باز. أصغى إلى القداس الوقور جالساً تحت ظلة على كرسي مخملي. كان يرتدي بزة جنرال عسكري تشيلي وتتوهج على صدره شريطة النظام الإمبراطوري البرازيلي.

بعد كثير من المجيء والذهاب والقتل، تعلم ميلغاريجو ألا يثق حتى بقميصه وقيل إنه كان ينتزعه أحيانا ويثقبه بالرصاص.

"يقود القائد ويده على الزناد".

كان هناك كائنان في العالم، اثنان فحسب، لم ينظر إليهما الجنرال الحديدي شزرا؛ حصانه هولوفيرنيس وخوانا سانشيث الجميلة. رفع السفير التشيلي كأسه وشرب مع البقية نخب

هولوفيرنيس، حين جاء الحصان الأسود، إلى المائدة الرئاسية، ليشرب البيرة بين الوزراء والأساقفة والجنرالات. غطى السفير البرازيلي جسد خوانا سانشيث بعقود ومجوهرات وأساور لم تلمح امرأة مليغاريجو مثلها حتى في أكثر أحلامها وحشية.

كان ميلغاريجو، الذي تزينٍ صدرهٍ الأوسمة البرازيلية، قد اقتطع للبرازيل خمسة وستين كيلومترا مربعا من غابة الأمازون البوليفية. وبعد أن تحول إلى جنرال للجيش التشيلي قدم ميلغاريجو لتشيلي نصف صحراء أتاكاما الساحلية الغنية جداً بالنترات. هناك كان الرأسماليونٍ البريطانيون والتشيليون يستغلون السماد الذي كانت تشتهيه جداً أراضي أوروبا المستنفدة. وبعد أن اقتطعت صحراء أتاكاما فقدت بوليفيا منفذها إلى البحر.

نقوش على صخرة في صحراء أتاكاما

أموت من أجلكِ يا أنطونيا

تعرفين من، من يسرق

قاضي تشانوسيلو.

ادفع لي أونصاتي الثلاث يا رامون.

المدير جلف.

يقول الدون ت .ب إنه ليس خلاسياً.

1867: بوغوتا

رواية تدعى ماريا

كانت السيدات يجلسن في أراجيحهن الشبكية والجدائل ترفرف خلف أعناقهن العاجية، يهزهن رجال يلبسون كالموتى بوجوه كالفراريج المسلوقة. كانت قافلة من السود الذين يحملون سلالاً على رؤوسهم تمر صامتة في الجوار وكأنها تعتذر عن وجودها وكونها مصدر إزعاج. وفي حديقة المستعمرة الزراعية حيث تنتشر رائحة البن وشاي الغاردينيا، كان جورج إسحق يبلل قلمه بالدموع.

بكت كولومبيا كلها. لم يصل إيفرن في الوقت المحدد، بينما كان يحرث البحار، لفظت ابنة عمه، المصابة بمرض وراثي لا يعالج، أنفاسها الأخيرة، وصعدت إلى الفردوس عذراء. عند القبر، ضغط على صدره ميراث حبه. تركت له ماريا منديلا (طرزته وبللته بالدموع)، بضعة تويجات زنبق بيضاء وذابلة مثلها، وخاتما انزلق من اليد المتخشبة التي كانت وردة قشتالة الرشيقة، وخصلة من شعرها الطويل في علبة استطاعت شفتاها الزئبقيتان أن تقبلها بينما كان الموت يجمدهما.

1867: كيريتارو

ماكسيمليان

طرد جيش خواريز والعصابات المكسيكية المؤلفة من ألف شخص، الفرنسيين. سقط الإمبراطور ماكسيمليان في الوحل وهو يصيح. تعيش المكسيك!

في النهايــة، ســحب نــابليون الثالــث جيشــه وكــره البابــا ماكسيمليان ولقبه المحافظون بـ "المفقِر". كـان نـابليون قـد أمـره أن يدير المستعمرة الفرنسية الجديـدة لكـن ماكسـيمليان لم يمتثـل لأوامـره. توقـع البابـا أن يسـتعيد ثروتـه وظـن المحـافظون أنـه سيطهر المكسيك من الشيطان الليبرالي، لكن ماكسيمليان، أصـدر قوانين كقوانين خواريز بينما كان يحاربه.

وصلت عربـة سـوداء إلى كيريتـارو تحـت المطـر. خـرج الـرئيس خواريز، قاهر المتطفلين الغزاة، إلى تابوت مفتوح بـلا أزهـار حيـث يستلقي الأمير ذو العينين الزرقاوين الذاوبتين الذي كـان يجـب أن يطوف في ألاميدا لابساً كراعي بقر مكسـيكي معتمـراً قبعـة واسـعة منقطة بنثار لماع.

1867: باريس

تكون أو تنسخ، هذه هي المعادلة

جـاءت إلى معـرض بـاريس العـالمي لوحـات زيتيـة علـى القمـاش أرسلت من الإكوادور وكانت جميعها نسخاً طبق الأصل عـن لوحـات الفنــانين الأوروبــيين الأكثــر شــهرة. مــدح الكاتــالوج الفنــانين الإكوادوريين، الذين، رغم أنهم لا يمتلكون أصالة عظيمة، فإنهم على الأقـل، يمتلكـون موهبـة نسـخ روائـع المـدارس الإيطاليـة والأسـبانية والفرنسية والفلمنكية بإخلاص ملحوظ.

في غضون ذلك، ازدهر فن آخر في الأسواق الهندية وعلـى أطـراف الإكوادور الفقيرة. كان العمل المحتَقر لأيد قادرة على خلق الجمال من الصلصـال والخشـب والقـش وريـش الطيـور وأصـداف البحـر وفتـات الخبز. دعي هذا الفن صنعة وكأنه يعتذر.

الأكاديميون لا يمارسونه، لا يمارسه إلا الفقراء الذين يأكلون قلوب البراغيث أو كروش البعوض.

أغنية للفقراء في الإكوادور

أجائع أنت أيها البط؟
"نعم"
كل الألم الذي في أمعائك
اطعنْ بعوضةً
مصَّ الدم من الشقوق
واترك الكرش لتستمتع به أو
من أجل جراح البرد في الغد

1869: مكسيكو سيتي

خواريز

نُحت وجه الهندي المكسيكي الذي هزم بابا روماٍ ونابليون الثالث من حجر أواهاٍكا من دونٍ ابتسامة أو كلام، ودائماً في معطف وياقة مرتفعة، دائماً مرتدياً اللباس الأسود، بينيتو خواريز صخرة محاطة بخورس من الأطباء الذين يدورون حوله وهم يتحدثون ويستخدمون نبرة خطابية، هؤلاء المتعلمون المتحذلقون ذوو المناقير الذهبية والريش المطلي بالذهب.

كانت المكسيك تمتلك كهنة أكثر مما تمتلك مدرسين وكانت الكنيسة تملك نصف كل شيء، حين جاء خواريز إلى السلطة، ووصف الليبراليون جرعتهم لبلاد مصابة بمرض الجهل والتخلف. كان علاج التحديث يدعو إلى السلام والنظام وكان من الضروري

التخلص من الحروب التي تقتل البشر أكثر من الملاريا أو السل الرئوي، لكن طاعون الحرب ضغط على خواريز دون رحمة.

أولاً، الحرب ضد الغزاة الفرنسيين، ثم الحرب ضد أبطال الحرب العسكريين الذين رفضوا الاستقالة، وضد الهنود الذين رفضوا أن يفقدوا أراضيهم المشاغبة.

أعلن المكسيكيون الليبراليون إيماناً أعمى بحق الانتخاب الكوني وحرية التعبير، رغم أن التصويت هو امتياز قلة، والقلة تعبّر عن نفسها .آمنوا بالخلاص عن طريق التربية، رغم أن المدارس القليلة هي جميعها في المدن، لأن الليبراليين، يعيشون بشكل أفضل مع ربات الإلهام بدلاً من الهنود. وبينما كانت العقارات الكبيرة تزداد كبراً، حلموا بمزارعين رواد، يسمدون أراض غير محروثة وحلموا بسكك حديدية سحرية وبدخان السيارات والمَداخن، بأفكار وبشر ورأسمال سيحضر التقدم من أوروبا.

اقتنع خواريز ابن هنود الزابوتيك أنه إذا نسخت المكسيك القوانين الأميركية الشمالية فإنها ستنمو كالولايات المتحدة، وإذا استهلكت منتجات إنكليزية فإنها ستصبح أمة صناعية مثل إنكلترة. واعتقد هازم فرنسا أن المكسيك إذا استوردت أفكارا فرنسية، ستصبح أمة واسعة الإطلاع.

1869: سان كريستوبال دي لاس كاساس

لا الأرض ولا الزمن أبكمان

تهتز الأرض بسبب الحديث الذي يدور بين الموتى. تطنُّ المقبرة كساحة في يوم تسّوق. كان هنود المايا الذين سقطوا في تمردات شياباس القديمة يحتفلون بالأنباء الأخيرة، لقد قاتلوا هنا بالرمح والفأس منذ ذلك اليوم البعيد حين انقض المغتصب الأول، ابن المرأة والكلب، على الأراضي المشاعية، تحدث الموتى بسعادة بين أنفسهم

وهنؤوا، من خلال الأحلام، الأحياء وأخبروهم عن الحقائق التي لا تعرفها الأذن.

تمرد الهنود في هذا الجوار مرة أخرى. حطم الهنود، عبيد الديون، المزارع وأحرقوا السجون ودافعوا عن آخر أراضيهم المشاعية التي يعملون فيها كجماعة رغم حكومة خواريز.

كانت آلهة الجبال أيضاً تحتفل، إنها الآلهة التي تنحرف عن العاصفة حين تحمل المرض أو الجشع.

1869: مكسيكو سيتي

خواريز الهنود

قُتل خوليو لوبيث منذ عام لأنه متمرد وقاطع طريق واشتراكي متعصّب. أعلن خوليو لوبيث على رأس هنود منطقة تشالكو حرباً على الأغنياء وتمرّد كي يستعيد الأراضي المسروقة.

ألبسوا الأسرى الهنود في تشالكو بزّات جنود وأجبروهم على القتال ضد الهنود المتمردين في يوكاتان، أولئك الذين يُقمعون في كل حرب، أصبحوا قامعين في الحرب التالية، هُزموا وصُنِّعوا ليقتلوا المتمردين وهكذا واصلت حكومة خواريز إرسال القوات ضد هنود المايا في يوكاتان وشياباس، ضد هنود الكوراس في نايارت والتاراسكانز في ميتشواكان والياكويز في سونورا والأباتشي في الشمال.

لكي يستعيدوا أراضيهم المشاعية، حاصر الهنود المزارع: سقط الموتى الأوائل وأصبح الهواء مجرد دخان مدفعية. كان دستور خواريز ينص على تحويل الهنود إلى مالكين صغار وعمال أحرار. حظرت قوانين خواريز المشهّرة والأغلال، العبودية مقابل الدين وأجور الجوع، بينما كانت في الواقع تسيطر على الأراضي، التي لا يزال الهنود يمتلكونها جماعيا، وتحولهم إلى عبيد في العِزب الكبيرة أو شحاذين في المدن.

ولد بينيتو خواريز في الجبال، بين الصخور التي تشبهه، على شواطئ بحيرة جيلاتو. تعلم أن يسمّي العالم في إحدى لغات المكسيك الهندية المائة. فيما بعد، أصبح رجل أدب تحت رعاية رجل تقي.

1869: لندن

لافارغ

حين بدأ بول لافارغ حصاره على لورا ماركس، كان مؤسس الاشتراكية العلمية ينهي تصحيح الجزء الأول من رأس المال. تلقى كارل ماركس وجهة نظر غامضة عن هجمات الكوبي المتحمّس وطلب منه أن يكسب ابنته ذات العينين الخضراوين قواعد سلوك إنكليزية أكثر رصانة. طلب منه أيضاً ضمانات اقتصادية. بعد أن طرد من ألمانيا وفرنسا وبلجيكا، مرّ ماركس في أوقات عصيبة في لندن منهكاً من الديون وكان أحياناً لا يمتلك بنساً واحداً لشراء جريدة.

لكنه لم يستطع أن يخيف لافارغ. وكان دائماً يعرف أنه لا يقدر على ذلك. كان لافارغ شاباً حين بدأ هو وماركس يتقاتلان ويحبان بعضهما، وهكذا ولد حفيد ماركس الأول من المهجّن الكوبي، ابن حفيد خلاسية وهندي من جامايكا.

1869: أكوستا نو

الباراغواي تسقط وتدوسها حوافر الأحصنة

وساقطةً تابعت القتال، صُنعت آخر المدافع من أجراس الكنائس وأطلقت الأحجار والرمل بينما كانت جيوش التحالف

الثلاثي تضغط باتجاه الشمال. نزع الجرحى ضماداتهم لأن النزف حتى الموت أفضل من الخدمة في الجيش أو المسير نحو مستعمرات البن البرازيلية بوشم العبودية.

لم تنج حتى القبور في الهجوم على أسنسيون في بيريبيباي، اكتسح الغزاة الخنادق التي كانت تدافع عنها النساء والمبتورون والعجائز وأحرقوا المستشفى المليء بالجرحى. قاومت الهجوم في أكوستا نو كتائب من الأطفال المتنكرين بلحى من الصوف أو العشب.

لكن الذبح استمر والذين لم يقتلهم الرصاص قتلهم الطاعون، وكان كل موت يؤذي، كل موت يبدو كالأخير، لكنه الأول.

1870: جبل كورا

سولانو لوبيث

هذه قافلة من الموتى الذين يتنفّسون. سار آخر جنود الباراغواي خلف المارشال فرانسيسكو سولانو لوبيث، لم تُشاهد أبواط أو عدة خيول لأنها أُكلت، لكن لم تشاهد أيضاً جراح أو أسمال.

ذلك أن هؤلاء الجنود هم من الطين والعظام، يتجولون في الغابات أقنعة طين، دروعَ وحل، لحم صلصال طبختته الشمس من طين المستنقعات وغبار الصحارًى الأحمر.

لا يستسلم المارشال لوبيث، مهلوساً، يشهر سيفه ويرأس هذا المسير الأخير إلى لا مكان. يكتشف مؤامرات أو يتخيلها، وبتهمة الخيانة أو الضعف أعدم شقيقه وجميع أنسِبائه بالإضافة إلى أسقف وكاهن وجنرال. وبسبب عدم توفر البارود نُفذ الإعدام بالرمح. يموت كثيرون بأمر من لوبيث وكثيرون من الإعياء ويتركون في الخلف على الطريق. تستعيد الأرض ما يخصّها وتحدّد العظام الأثر للمطارد.

يغلق جيش ضخم الدائرة في جبل كورا ويسقط لوبيث على ضفاف نهر أكيدابان، يجرحونه برمح وينهون حياته بطلقة واحدة لأنه كان ما يزال يئن.

1870: جبل كورا

إليسا لينش

محاطة بالغزاة، حفرت إليسا بأظافرها قبراً لسولانو لوبيث، توقفت الأبواق عن العزف ولم يعد يُسمع صفير الرصاص أو انفجار القنابل، غطى الذباب وجه المارشال وهاجم جسده المجروح، لكن إليسا لم تشاهد الضباب الأبيض. بينما كانت يداها تحفران الأرض، كانت تلعن ذلك اليوم المشؤوم، وتردّدت الشمس في الأفق لأن النهار لم يجرؤ على الانسحاب قبل أن تنهي لعنها له.

تلك المرأة الأيرلندية، ذات الشعر الذهبي، التي قاتلت على رأس صفوف من النسوة المسلحات بالمعازق والعصي، كانت مستشارة لوبيث الأكثر عناداً. البارحة، بعد ستة عشر عاماً وأربعة أولاد، قال لها، للمرة الأولى، إنه يحبها.

اللغة الجوارانية

من الباراغواي المدمرة بقيت اللغة

تمتلك الجوارانية قوى غامضة. إنها لغة الهنود، لغة المغزوين التي امتلكها الغزاة. رغم الحظر والاحتقار، ظلت الجوارانية اللغة الوطنية لهذه الأرض المدمرة وستبقى هكذا رغم أن القانون يريد شيئاً آخر. هنا

ستظل البعوضة تُدعى «ظفر الشيطان» واليعسوب «الحصان الصغير للشيطان» والنجوم «نيران القمر»، والغسق «فم الليل».

كان الجنود الباراغويين ينطقون كلمات السر ويثيرون الهمم بالجوارانية وبها كانوا يغنون. أما الآن فيصمت الموتى بالجوارانية.

1870: ريودي جانيرو

يتكاثر ألف شمعدان

يتكاثر ألف شمعدان في المرآة وترسم أحذية حريرية دوائر رقصة الفالس على الأرضية اللماعة لقصر البارون دي إتماراتي. يمر الزوجان الإمبراطوريان خلال سحب من الضيوف من صالون إلى آخر وسط تقبيل للأيدي لا نهائي، وبينما هما ذاهبان قاطعت معزوفات أبواق وابتهاجات رعدية الحفلة الراقصة. كان السادة يبدون كطيور البطريق والسيدات كالفراشات وكن محصورات بشدة في تنانيرهن القرينولية وشرائطهن المربوطة، وكانت أكثر من واحدة ترتدي حمالات صدر أوربية استوردتها المدموزيل أرتيميس، تتجعّد في ترافق تام مع تنفسهن. بشمبانيا وموسيقى على الموضة الفرنسية، احتفلت البرازيل بتدمير الباراغواي.

كانت العربات التي تندفع إلى الحقل تعبر ممرات تمر فيها قوافل من السود الذين يحملون آلهة وبراميل آسنة. كانت سحب الذباب تطارد الموكب إلى شواطئ ريو دي جانيرو. في كل مساء، كان العبيد يرمون براز الأسياد في مياه الخليج الجميل.

1870: ري ودي جانيرو

موا

بينما كانت تحتفل بتدمير الباراغواي، كانت البلدان الغازية تتنازع حول من سيحصل على اللقمة الأكبر من المغزو.

راقب أحدهم في ريو دي جانيرو الاحتفالات المرحة بحاجب متجعد وهزّ كتفيه في أثناء حديث عن تخوم جديدة. لم يكن إيرينيو إيف نجيلستا دي سوِثا، بارون موا بفضل من الإمبراطور بدرو الثاني، يرغب أبداً في تلك الحرب. امتلكته من البداية هواجس بأنها ستكون طويلة ودموية وأن من سيربحها سيخسرها. غارٌ لإمبراطورية البرازيل؟ سلامٍ أضاءته العظمة؟ الإمبراطورية تزدهر وكأن الحرب لم تنشب أبداً؟ كان البارون دي سوا، الشريك البرازيلي لآل روتشيلد اللندنيين، يعرف أن المبِيدين مدينين للبنوك البريطانية ضعف ما كانوا مدينين به سابقاً. يعرف موا، مالك المستعمرات الزراعية الكبيرة، أن مزارع البن خسرت آلافاً من العبيد السود في ساحة المعركة. موا، المعتاد على تمويلٍ ميزانيات البلدان المنتصرة وإصدار عملتها الورقية، يعرف أيضاً أنهم غلفوا أنفسهم بحوالات لا قيمة لها، وربما يعرف - من يدري؟ - أن هذه الحرب التي انتهت لتوها هي بداية دماره الشخصي، وأن الدائنين سوف يصادرون حتى نظارته الذهبية، وأنه، في أعوامه الأخيرة، سيصبح ثانية ذلك الولد الوحيد، الذي تركه بحار ما، على رصيف ريو البحري.

1870: فاسّوراس

بارونات البن

ينتج وادي نهر باريبا الجنوبي معظم البن الذي يستهلكه العالم، وينتج أيضاً أكبر عدد من الفيكونتات والبارونات والمركيزات في كل قدم مربع واحد.

كان الإمبراطور بدرو الثاني يكافئ وهو على عرش البرازيل مستعبدي البن الذين قدموا كثيرا من المال إلى الحرب ضد الباراغواي بألقاب نبالة جديدة.

لم يكن هناك مستعمرة تملك أقل من مائة عبد. حين يكون الليل مخيماً، وبتوقيت يعلنه الجرس الحديدي، يغتسل الهنود في الحوض ويشكرون بصوت مرتفع سيدنا يسوع ثم يسيرون ليعملوا في الجبال بإلهام من السوط

كان أبناء الأسياد يجيئون إلى العالم من خلال قابلات سوداوات، وترضعهم مربيات سوداوات جميلات. كانت المربيات السوداوات تعلمهم الأغاني والأساطير وتذوق الطعام. كانوا يتعلمون اللعب مع الأطفال السود ويكتشفون الحب مع الفتيات السوداوات، لكنهم كانوا يعرفون منذ البداية من هو المالك ومن هو المملوك. كان الزواج من ابن عم أو ابنة أخت يدعّم وحدة العائلة ويحافظ على نبالة النسب.

1870: سان باولو

نابوكو

كان الجميع يلتهمون العبد الأسود، ليس بارونات البن ولوردات السكر فحسب، بل كل برازيلي حر مهما كان فقيرا، يملك على الأقل عبداً يعمل له.

شجب جواكيم نابوكو ذلك المرض المتأصل بخطب لاذعة. أعلن نابوكو، سليل مالكي الأراضي والسياسيين المحترفين، أن البرازيل لن تدخل العالم الحديث طالما أن الأرض والسياسة حكرٌ على حفنة من الأسر وطالما أن البلاد كلها تستريح على ظهور العبيد.

ترأس الشاعر خوسيه بوليفاسيو جماعة من دعاة إبطال الرق من جامعة ساو باولو. عمل معه، بالإضافة إلى نابوكو، خطباء آخرون لامعون مثل كاستر ألفيس، روي باربوسا ولويس غاما الذي باعه والده في باهيا لكنه نجح في النجاة من العبودية من أجل أن يشجبها.

1870: بوينس آيرس

الحيّ الشمالي

نفخ خيال يرتدي بلوزة زرقاء في البوق الذي حذر من الخطر. قعقعتِ الحوافر، رنّت الأجراس وأجفل العابرون: جاء الترام الجديد مندفعاً بسرعة جنونية بلغت سِتة أمِيال في الساعة. وعدت صحيفة في بوينس آيرس أن تحجز عموداً يومياً للضحايا.

سبب الترام ميتة أو اثنتين لكي يتجنب خيبة الأمل، لكن، بعد وهلة قصيرة، لم يتحدث أحد عن عنفه الإجرامي، ذلك أن الحمى الصفراء غزت بوينس آيرس وكانت تقتل ثلاثمائة شخص في اليوم.

ولأنه لم يكن ثمة مكان لدفن متسولين كثيرين، ولدت مقبرة تشاركاريتا من هذا الطاعون مثل الحي الشمالي، لأن الأغنياء هربوا من معقلهم التقليدي. لقدٍ قررت الفراسخ العشرة التي في جنوب ساحة دي مايو دائماً قدر الأرجنتين وازدهرت على حسابها. عاش هنا، حتى الآن، السادةٍ الذين يصنعون السياسة والمشاريع في مقهى دي باريس، وأيضاً السيدات اللواتي يتسوّقن في مخزن لندن لكن الحمى الصفراء تطاردهم الآن، هذه الحمى التي تتغذى بقسوة على المقاطعة المنخفضة المحاطة بالمزابل

والمستنقعات، مهد البعوض، حساء الطواعين، المنازل التي أفرغها سفر الخروج وأصبحت مساكن للفقراء. وحيث كانت تعيش أسرة واحدة، كان يحتشد مئتا شخص قدر استطاعتهم.

نمت تلك المدينة المبعثرة على ضفتي النهر بشكل فاحش. منذ قرنين كانت بوينس آيرس قرية حزينة ضائعة، أما اليوم فيعيش فيها مائة وثمانون ألف شخص، نصفهم أجانب؛ بناؤون، غاسلات، صانعو أحذية، عمال مياومون، طباخون، حرّاس ليليون، نجارون، وقادمون جدد آخرون دفعتهم رياح التجارة من البحر الأبيض المتوسط.

1870: باريس

لوترياmون في سن الرابعة والعشرين

كان مصاباً بالحبسة ولم يتعب من أي شيء إطلاقاً، أمضى ليالي مع البيانو غازلاً الألحان والكلمات وفي الفجر كانت عيناه محمرّتين بشكل يثير الشفقة.

مات إسيدور دوكاس، الكونت الخيالي لوترياmون. ولد الطفل ورُبي في أثناء حرب مونتيفيديو، ذلك الطفل الذي طرح أسئلة عن النهر ـ البحر، مات في فندق في باريس. لم يجرؤ ناشره على إرسال أناشيده إلى المكتبات.

كتب لوترياmون ابتهالات للمسترذَل وللُّوطي وغنى لضوء المواخير الأحمر والحشرات التي تفضّل الدم على الخمرة. وبّخ الإله السكران الذي خلقنا وأعلن أنه من الأفضل أن نولد من رحم سمكة قرش. قذف نفسه في الهاوية فناناً بشرياً قادراً على الجمال والجنون، وفي طريقه إلى الأسفل اكتشف صوراً وحشية وكلمات مدهشة، إن كل صفحة كتبها تصرخ حين تمزقها.

1871: ليما

خوانا سانشيث

سقط ميلغاريجو المدمّر. رجمه الهنود وطردوه من بوليفيا وهو يعاني الآن من المنفى في بيت حقير في أحياء ليما الفقيرة . كان كل ما تُـرك له من قوة هو معطفه المصطبغ بالدم، قتل الهنود حصانه هولـوفيرنيس وقطعوا أذنيه.

أمضى لياليه وهو يعوي أمام منزل أسـرة سانشـيث، جعـل صـوت ميلغاريجو الحزين المدوي ليما ترتجف، لكن خوانا لم تفتح الباب.

كانـت خوانـا في الثامنـة عشـرة حـين وصـلت إلى القصـر، أغلـق ميلغاريجو على نفسه وعليها ثلاثة أيـام وثـلاث ليـال. سمـع حرّاسـه صراخا وضربات، ونخيرا وأنينا، لكنهم لم يسمعوا أبداً كلمة واحدة. في اليوم الرابع ظهر ميلغاريجو.

«أحبها قدر ما أحب جيشي»

تحولت مائدة المأدبة إلى مـذبح. في المركـز، كانـت خوانـا العاريـة تحكم محاطة بالشموع. كان الـوزراء والأسـاقفة والجنـرالات يمجـدون جمالها راكعين على ركبهم حين يرفع ميلغاريجو كأساً مـن الكونيـاك الملتهب وينشد أغاني التكريس. وكانت كتمثال رخام منتصب، عارية إلا من شعرها، وتنظر نحو الأسفل وبعيداً.

لم تقل شيئاً، خوانا لم تقل شيئاً. حين ذهب ميلغاريجو في حملـة عسكرية، تركها مسجونة في دير لاباز، عادت إلى القصر بين ذراعيـه ولم تقل شيئاً، هذه العذراء كل ليلة، التي تولد له كـل ليلـة. لم تقـل خوانا شـيئا حـين استولى ميلغـاريجو علـى أراضـي الهنـود المشـاعية ومنحـها ثروة كبيرة ومنح أسرتها إقليما كاملاً.

الآن، أيضاً، لا تقول خوانا شيئاً. أغلقت باب منزلها في ليما بإحكام ولم تظهر نفسها أو تستجب لزئير ميلغاريجو اليائس، لا تقولُ له : لم تمتلكني أبدا، لم أكن هناك.

كان ميلغاريجو يبكي ويجأر وقبضتاه ترعدان على الباب، في هذا الظل، قتلته رصاصتان وهو يصرخ اسم المرأة.

1873: مخيم تيمبو

المامبيزيس

كان السود الذين يلمعون من المشاعل وأضواء أخرى يتموجون ويدورون ويقفزون ويتحدثون مع الآلهة معولين من الألم والمتعة. بدت هذه الفوضى لمراسل «نيويورك هيرالد» عصية على الفهم كالفصول التي تجيء في كوبا دفعة واحدة في أثناء صيف لا ينتهي، رفت عيناً الصحفي بقسوةٍ حين اكتشفتا أنّ الشجرة تمتلك في الوقت نفسه غصناً يتفجّر اخضرارا وآخر يصفرٌ موتا.

هذه هي أرض المامبي التي تقع في غابة شرق كوبا. كانت "مامبي" تعني قاطع طريق أو متمردا في الكونغو، لكنها تعني في هذه الجزيرة العبد الذي يقاتل ليصبح إنسانا.

كان هنود المامبيزيس عبيداً هاربين في الجبال قبل أن ينضموا إلى الجيش الوطني. حسب مراسل الـ "هيرالد" أن الحرب الاستعمارية كلفت في غضون خمسة أعوام ثمانين ألف قتيل إسباني. مات جنود كثيرون بسبب الرصاص أو المرض. وقتل منجل المامبي عددا كبيرا. حولت الحرب مطاحن السكر إلى حصون مسلحة ضد هجوم السود من الخارج وهربهم من الداخل.

في هذا المخيم الذي يعيش فيه المامبيزيس العراة والفقراء، يشارك الجميع في كل شيء. شرب الصحفي ماء، مخلوطاً بدبس السكر نظرا لعدم توفر البن، وبعد بضعة أيام أعلن كرهه الأبدي للبطاطا الحلوة

والهوتيا، ذلك الحيوان الصغير الذي يقدم الغذاء لأي شخص يقدر أن يصطاده في شقوق شجرة أو صخرة. كتب الصحفي أن الحرب يمكن أن تستمر إلى الأبد. هنا، يقدم النبات المتسلق الماء حين لا يكون ثمة نهر في الجوار، وتقدم الأشجار الفاكهة والأراجيح الشبكية والخف والظل الجيد لأولئك الذين يحتاجون إلى أن يجلسوا ويتبادلوا النكات بينما تندمل جراحهم.

1875: مكسيكو سيتي

مارتي

طال شاربه المنتصب مؤخراً في هافانا حين أسّس صحيفتين قصيرتي العمر: الشيطان الأعرج والوطن الحر، ولأنه أراد الاستقلال لكوباٍ، المستعمرة الإسبانية، حكم عليه بالسجن وبالأشغال الشاقة . باكراً، حين كان لا يزال فتى، أراد أن يترجم شكسبير وألهب الكلمات وأقسم أن ينتقم أمام عبد أسود يتدلى على المشنقة. تنبأ في أشعاره الأولى أنه سيموت من أجل كوبا.

أرسلوه من السجن إلى المنفى ولم تختف آثار الأغلال عن كاحليه. ليس هناك كوبي أكثر وطنية من ابن الرقيب الإسباني المستعمر هذا. لا أحد أكثر طفولة من هذا المنفي المتسائل والمندهش والمستاء من العالم.

كان خوسيه مارتي في الثانية والعشرين حين حضر في المكسيك مظاهرته الأولى التي اشترك فيها الطلاب والعمال، أضرب صانعو القبعات وتضامنت معهم جمعية مزيني الشعر للإخاء والوفاء والجمعية الأخوية لمجلدي الكتب وعمال الطباعة والخياطون والمفكرون، "عمال الفكرة". وفي الوقت نفسه، انفجر الإضراب الجامعي الأول جرّاء فصل ثلاثة طلاب طب.

كتب مارتي لصانعي القبعات خطباً مفيدة ووصف في مقالته طلاباً يتقدمون مع العمال في شوارع مكسيكو سيتي متشابكي الأذرع وجميعهم في أفضل ملابس الأحد. قال: "إن هؤلاء الشبان على حق، لكننا سنحبهم وإن كانوا مخطئين".

1875: حصن سيل

آخر جواميس الجنوب

كانت السهول الجنوبية مفروشة بالجواميس التي تكاثرت كالعشب الطويل حين جاء الرجل الأبيض من كانساس كي يشحن الريح برائحة التفسّخ. كانت الجواميس المسلوخة تستلقي على السهول، ذهبت ملايين الجلود إلى أوروبا الشرقية، لم تكن إبادة الجواميس تستدر الأموال فحسب، بل، وكما قال الجنرال شيريدان: إنها الطريقة الوحيدة لإحلال سلام دائم ولجعل الحضارة تتقدّم.

لم يعد هنود الكيووا والكومانتشي يعثرون على جواميس داخل سجن حصن سيل. كانوا يستحضرون عبثاً الصيد الجيد برقصات لإله الشمس، ولم يعد بوسعهم أن يعيشوا على حصصهم الحكومية المثيرة للشفقة.

هرب الهنود إلى وادي بالو درو البعيد، المكان الأخير للجواميس في السهول الجنوبية. عثروا هناك على الغذاء والراحة الكاملة، استخدموا الجلود من أجل المأوى والأغطية والثياب واستخدموا القرون والعظام من أجل الملاعق والسكاكين ورؤوس السهام وصنعوا من الأعصاب وأوتار العضلات الحبال والشباك وحوّلوا الحويصلات إلى آنية للماء.

وصل الجنود حالاً وسط سحب من الغبار وبارود المدفعية، أحرقوا الأكواخ، قتلوا ألف حصان وساقوا الهنود ثانية إلى الحجز.

نجح بعض هنود الكيووا في الهرب وتجولوا في السهل إلى أن هزمهم الجوع. استسلموا في حصن سيل حيث وضعهم الجنود في زريبة وكانوا يرمون لهم كل يوم قطعاً من اللحم النيء.

إلى الآخرة

عقدت جواميس آخر قطيع جنوبي اجتماعاً، لم يستمر النقاش طويلاً. قبل كل شيء وتواصل الليل، كانت الجواميس تعرف أنها لم تعد قادرة على حماية الهنود.

حين بزغ الفجر من النهر شاهدت امرأة من هنود الكيووا القطيع الأخير يعبر في الضباب. كان القائد يسير بخطى وئيدة تتبعه الإناث والعجول وبعض الذكور المتبقية على قيد الحياة.

حين وصلت الجواميس إلى سفح جبل سكوت توقفت دون حراك ورؤوسها إلى الأسفل. عندئذ فتح الجبل فمه ودخل القطيع. هناك، في الداخل، العالم أخضر وجديد.

حين دخلت الجواميس كلها، انغلق الجبل.

1876: ليتل بك هورن

سيتينك بل

حين يتحدث، لا تتعب أية كلمة أو تسقط.

يقول: كفى كذباً! منذ ثماني سنوات ضمنت حكومة الولايات المتحدة، باتفاقية موقرة، لهنود السيو أنهم سيبقون إلى الأبد مالكي "التلال السوداء"، مركز عالمهم، المكان الذي يتحدث فيه المحاربون مع الآلهة.

منذ عامين، اكتشف الذهب في تلك الأراضي وفي العام الماضي أمرت الحكومة هنود السيو أن يغادروا أراضي الصيد حيث يبحث المعدّنون عن الذهب في الصخور والجداول.

"قلت كفى كذباً! سيتينك بُل، زعيم الزعماء، حشد آلافاً من محاربي السهول، السيو والتشيينيز والأراباهوس. رقص طول ثلاثة أيام وثلاث ليال، ثبتت عيناه على الشمس، إنه يعرف".

استيقظ قبل بزوغ الفجر وبلل قدميه العاريتين بالندى متلقياً نبض الأرض.

فجراً، رفع عينيه إلى ما وراء التلال، هناك كان الجنرال كستر قادماً مع فرقة الخيالة السبعة.

1867: ليتل بك هورن

بلاك إلك

في سن التاسعة سمع الأصوات. كان يعرف أننا جميعاً، نحن الذين نمتلك أرجلاً وأجنحة أو جذوراً، أبناء الأب الشمس نفسه والأرض الأم نفسها، التي ترضع ثدييها. أخبرته الأصوات أنه سيجعل الأزهار تنمو على القصبة المقدسة، شجرة الحياة المزروعة في مركز أرض هنود السيو، وأنه يستطيع أن يقتل القحط وهو راكب على سحابة. أعلنت الأصوات أيضاً الحروب والمعاناة.

في العاشرة، قابل رجلاً أبيض للمرة الأولى، ظن أن الشخص مريض. في الثالثة عشرة كان بلاك إلك يستحم في نهر ليتل بك هورن، حين حذرته الصرخات أن الجنود قادمون، تسلق هضبة ومن هناك شاهد سحابة غبار ضخمة مليئة بالحوافر والصرخات، ومن السحابة خرجت أحصنة كثيرة بسروج فارغة.

1876: ليتل بك هورن

كستر

حذّر بلاك كيتل، زعيم هنود التشييني من ذلك حين كانا يدخنان غليون السلام معاً. سيموت كستر إذا خان وعوده ولن يوسّخ أي هندي يديه بسلخ فروة رأسه فيما بعد، أحرق كستر المخيم وثُقب الزعيم بلاك كيتل بالرصاص وسط اللهب.

أصبح الجنرال جورج أرمسترونغ كستر مجرد أحد موتى فرقة الخيالة السابعة التي سحقها الهنود على ضفتي نهر ليتل بك هورن . كان كستر قدٍ حلق شعره الذهبي في الليلة السابقة، بدا قحف رأسه الناعم سليماً وكان يرتدي التعبير الغبي للرجال الذين لم يُهزموا أبداً.

1867: وور بونيت كريك

بوفالو بل

بعد وقت قصير من هزيمة ليتل بك هورن هاجم بعض الجنود هنود التشييني المخيمين على ضفة جدول، وسقط في المعركة الزعيم بلوهاند.

كان بوفالو بل هو أول من ظهر في المشهد، بضربة واحدة سلخ قحف رأس زعيم "التشيينيٍ" وركضٍ بسرعة إلى أنوار مدن بعيدة. أصبح تاريخ الغرب مشهداً مسرحياً وهو ينكشف. لم تكن المعركة قد رُبحت بعد وكان سالخ قحف الرأس يبيع عمله الملحمي العظيم في مسارح فيلادلفيا وبالتيمور وواشنطن ونيويورك. من أجل ذكرى الجنرال كستر، ومن أجل الانتقام له، رفع بوفالو بل ذراعيه أمام

المدرج المحتشد، ظهرت في يد السكين ومن الأخرى التي تمسك قحفاً مصطبغاً بالدم، تدلى شلال من ريش متعدد الألوان. كان البطل يرتدي بزة مكسيكية تنوء بالزينة، يضع مسدسين في حزامه، ويعلق على كتفيه بندقية وينشستر تتسع لخمس عشرة طلقة. حالاً سيزيّن المشهد أغلفة روايات رعاة البقر المثيرة التي تُباع في جميع أنحاء العالم.

إن بوفالو بل، الأكثر شهرة بين رعاة البقر، لم يسق بقرة واحدة طول حياته. إن الرمز الحي لربح الغرب: السوبرمان الخالد، حظي بشهرته من خلال إبادة الهنود والجواميس والتحدث بلا نهاية عن شجاعته ودقته في الرماية، عمدوه باسم بوفالو بل حين كان يعمل في سكة حديد كانساس باسيفيك. قال إنه أطلق 4280 طلقة في عام ونصف، وقتل 4280 جاموساً، رغم أن النساء كن يمنعنه عن الخروج دائماً.

1876: مكسيكو سيتي

الموت

تولّى الجنرال سانتا آنا رئاسة المكسيك إحدى عشرة مرة، اشترى ولاء جنرالاته من خلال بيع قطع من البلاد وفرض الجزية على الكلاب والأحصنة والنوافذ، لكنه كان يهرب دائماً من القصر متنكراً في زي متسوّل. ورغم أنه اختص في خسارة الحروب، نصبت له تماثيل كثيرة من البرونز وهو منتصب يعدو على الفرس مشهرا سيفه وأصدر مرسوماً حوَّل عيد ميلاده إلى عطلة وطنية.

حين عاد من المنفى كان جميع أصدقائه وأعدائه قد ماتوا، دافناً جسده في كرسي عميق ذي ذراعين وواضعاً ديكاً بين ذراعيه، كان سانتا آنا يداعب أوسمة قديمة أو يحك ساقه الفلينية. كان أعمى، لكنه اعتقد أنه شاهد عربة ملأى بالأمراء والرؤساء تصف أمام باب

منزله. كان أصمَّ، لكنه أعتقد أنه سمع حشوداً متضرعة تتوسل من أجل مقابلة أو رحمة أو وظيفة.

كان سانتا آنا يصرخ: انتظر! اخرس! بينما كان أحد خدمه يبدل بنطاله المبلل.

فيما بعد، أخذوه من منزله في شارع فيرجارا، المرهون والفارغ دائماً، إلى المقبرة. سارت الديكة أمام التابوت متحدية البشر وباحثة عن معركة.

1877: مدينة غواتيمالا

المحضِّر

أغمض رئيس غواتيمالا خستو روفينو باربوس عينيه، وسمع صخب السكك الحديدية والآلات البخارية ينتهك صمت الأبرشيات.

لم يكن ثمة أصبغة تركيبية في أسواق العالم ولا أحد يشتري القرمز والنيلة من غواتيمالا. حان وقت البن؛ كانت الأسواق تطلب البن والبن يطلب الأراضي والأيدي والقطارات والموانئ. لكي يحدّث البلاد، طرد باريوس الرهبان الجشعين واستولى على أملاك الكنيسة الضخمة ومنحها لأقرب أصدقائه، استولى أيضاً على أراضي الهنود المشاعية وألغى بمرسوم الملكية الجماعية وفرض العبودية. ولكي تدمج الحكومة الليبرالية الهندي في الأمة، جعلته قناً في مستعمرات البن الزراعية الجديدة وعاد نظام الأشغال الشاقة الاستعماري.

كان الجنود يتجولون في المستعمرات الزراعية ويوزّعون الهنود.

1879: مكسيكو سيتي

الاشتراكيون والهنود

من المؤلم أن نقول هذا، لكن يجب أن نقوله. قاله الكولونيل ألبيرتو سانتا في سجن تلاتيلوكو: كان الهنود أكثر سعادة تحت الحكم الأسباني. اليوم يُقال بشكل طنّان إنهم أحرار بينما هم عبيد .

قال الاشتراكي سانتا في الذي فجر تمرداً في وادي تيهميلوكان: إن سبب الأمراض في المكسيك هو بؤس الشعب الناتج بدوره عن منح الأراضي لأيد قليلة وعن غياب الصناعة، لأن كل شيء يأتي من الخارج بينما نستطيع أن نصنعه بأنفسنا. وسأل نفسه: أيكون من الأفضل أن نفقد الاستقلال ونصبح مستعمرة أميركية شمالية؟

أعلن خوان دي ماتا رفيرا في صحيفة الاشتراكي أن الهنود كانوا أفضل في المستعمرة، وطلب أن تعاد أراضيهم إليهم. ليس ثمة قانون يمنح اللصوص حقوق الاستيلاء على ثمار العنف والخزي وسوء السمعة.

في الوقت نفسه، نشر فلاّحو سيير غوردا خطتهم الاشتراكية؛ رأوا أن المستعمرات الزراعية الكبيرة السارقة، والحكومات التي حولت الهنود إلى خدم لمالكي الأرض، هي جذر البؤس كله. اقترحوا أن تصبح المزارع مناطق وأن تعاد الملكية المشاعية في المزارع والمياه والغابات والمراعي.

1879: جزيرة تشويل ـ تشويل

طريقة ريمنغتون

غزا الجنود الأرجنتينيون عشرين ألف فرسخ من الأرض الهندية. كانت سوق لندن تتطلب تكثيرا للماشية ثم انفجرت الحدود. كانت البنادق المتكررة تفرغ أمكنة فارغة لغرب السهول الكبيرة التي كانت تتوسع جنوبا وغربا. طهّر الجنرال خوليو أرجنتينو ووكا باتاجونيا من المتوحشين، أحرق القرى، وجعل الهنود والنعام دريئة له ليتمرن عليها، وواصل المهنة العسكرية المتألقة التي بدأها في الحروب ضد رعاة البقر والباراغويين.

حضر أربعة آلاف جندي يغطيهم الغبار القدّاس في جزيرة تشويل ـ تشويل الواقعة في نهر نيجرو. قدموا نصرهم لله وأعلنوا نهاية الحملة الصحراوية.

وزّع الباقون على قيد الحياة من الرجال والنسوة والهنود، غنائم الحدود، على المزارع والحصون والاصطبلات والمطابخ والأسرّة. كان عددهم يزيد على العشرة آلاف كما حسبه الكولونيل فيديريكو باربا الذي قال إنه بفضل السيدات الأرجنتينيات ارتدى الأطفال المتوحشون بنطلونات وبدوا ككائنات بشرية.

1879: بوينس آيرس

مارتن فييرو وغروب رعاة البقر

نشر خوسيه هونانديث في بوينس آيرس الجزء الأخير من "مارتن فييرو"، الأنشودة التي تتحدث عن احتضار رعاة البقر الذين أسسوا

هذه البلاد وأصبحوا بلا بلاد. انتشر النصف الآخر من هذه القصيدة الرائعة مدة من الوقت في ريف الريفر بلاتا وكانت مقاطعها مستلزمات أساسية للحياة كاللحم والمتة والتبغ.

كان الأقنان في المزارع الكبيرة والمجندون في الحصون ينشدون، بحزن، الرباعيات حول نيران المخيم، ليستحضروا طرق الأخ البري، الإنسان الذي بلا حاكم أو أحكام، وبهذه الطريقة كانوا يبعثون ذكرى حريتهم الضائعة.

1879: بور. أو. برانس

ماسيو

كان أنطونيو ماسيو المنفي قد وصل إلى مرتفعات بيلي إير في طريقه إلى سانتو دومنغو، حين انقض عليه خمسة قتلة. كانت ليلة يضيئها البدر، لكن ماسيو نجا من الرصاص وعدا بسرعة ليختبئ في الدغل. وعد القنصل الأسباني في هاييتي القتلة بعشرين ألف بيزو ذهباً. كان ماسيو أكثر المقاتلين من أجل استقلال كوبا شعبية وأخطرهم.

فقد والدة وأربعة عشر شقيقاً في الحرب، وإلى الحرب سوف يعود وسط رعد الفرسان، وبينما كانت المناجل تتقدم إلى مداخل الأودية، كان ماسيو يقود الهجوم. رُفع أثناء القتال ولم يُسْعِد الجنرالات البيض أن يصبح كائن أسود لواء.

قاتل ماسيو من أجل ثورة حقيقية قائلاً: ليست المسألة مجرد استبدال الأسبان. ليس الاستقلال هدفاً نهائياً، بل الهدف الأول. بعد ذلك يجب أن يُغيِّر كوبا وطالما أن الشعب لا يقود، لن تصبح المستعمرة وطناً. لم يثق مالكو الأراضي الكريبوليون – لأسباب وجيهة بالنسبة لهم – بهذا الرجل الذي قال إن حق الملكية ليس مقدّساً.

1879: جزر تشينتشاس

الغوانو[4]

كانت التلال التي ارتفعت على تلك الجزر برازاً محْضاً طول آلاف الأعوام. أتمت ملايين الطيور عملية هضمها على ساحل البيرو الجنوبي.

كان هنود الآنكا يعرفون أن هذا "الغوانو" يقدر أن يحيي أية أرض مهما بدت قاحلة، لكن أوروبا لم تعرف القوى السحرية للسماد البيروفي إلى أن أحضر همبولت العيّنات الأولى.

البيرو، التي حظيت بهيبة عالمية بسبب الذهب والفضة، تابعت مجدها بفضل الإرادة الطيبة للطيور. أبحرت إلى أوروبا سفن محملة بسماد الغوانو ذي الرائحة الكريهة وعادت محضرة تماثيل من رخام كارارا الصافي لتزيّن جادات ليما. كانت عنابرها محملة أيضاً بالملابس الإنكليزية التي دمرت مشاغل النسيج في السلاسل الجبلية الجنوبية. وأحضرت نبيذاً من بوردو أفلس الكروم المحلية في موكيكوا، وصلت منازل كاملة إلى كالاو من لندن واستوردت من باريس فنادق ترفيهية كاملة مع رؤساء خدمها.

بعد أربعين عاماً، استُنفدت الجزر. باعت البيرو اثني عشر مليون طناً من الغوانو واستهلكت ضعفي هذه الكمية وهي الآن مدينة بشمعة لكل قديس.

---

[4] سماد من زرق الطيور.

1879: صحارى أتاكاما وتاراباكا

الملح الصخري

لم تنشب حرب من أجل سماد الغوانو الذي لم يتبق منه إلا القليل. كان الملح الصخري هو الذي دفع الجيش التشيلي إلى غزو الصحارى ضد قوتي البيرو وبوليفيا المتحالفتين.

من صحرائي أتاكاما وتارابكا القاحلتين، جاء سر اخضرار أودية أوروبا. كان هناك في هذه الأمكنة المنعزلة السحالي المختبئة تحت الأحجار وقطعان البغال التي تحمل إلى موانئ المحيط الهادي حمولات الملح الصخري، ذلك الثلج كثير الكتل الذي سيثير حماس الأراضي الأوربية المنهكة. لم يكن ثمة شيء يلقي ظلاً في عالم اللاشيء ذاك، إلا جبال الملح الصخري المتلألئة التي تجف مهجورة تحت الشمس، أو العمال البائسين، محاربي الصحراء، الذين يرتدون أكياس طحين ممزقة ويحملون فؤوساً بدل الرمح ورفوشاً بدل السيوف.

تبيَّن أن الملح الصخري، ضروري جداً لمشاريع الحياة والموت، ليس لأنه الأشهر بين الأسمدة، بل لأنه يصبح باروداً إذا مُزج بالكربون والكبريت. وهكذا أصبحت الزراعة وصناعة الحرب المزدهرة بحاجة إليه.

1880: ليما

الصينيون

كانت تشيلي تغزو وتدمّر. وكان الجيش التشيلي يدمر ببزات وأسلحة إنكليزية بلدات ليما الساحلية تشوريلوس وبارانكو وميرافلوريس من دون أن يترك حجراً فوق آخر.

أرسل الضباط البيروفيون الهنود إلى المسلخ وركضوا صارخين: يعيش الوطن!

كان كثير من الصينيين، صينيين من البيرو، يقاتلون إلى الجانب التشيلي. كانوا صينيين فارين من المستعمرات الزراعية الكبيرة، يدخلون الآن إلى ليما منشدين مدائح للجنرال الغازي باتريسيو لينش الأمير الأحمر، المنقذ.

نُقل أولئك الصينيون بالخدعة والإكراه من مينائي ماكاو وكانتون على يد التجار الإنكليز والبرتغاليين والفرنسيين ووصل إلى بيرو واحد من كل ثلاثة. عُرضوا للبيع في ميناء كالاو وأعلنت صحيفة ليما أنهم خرجوا من الزورق طازجين. وُشم كثيرون بالحديد الحامي، ذلك أن السكك الحديدية والقطن والسكر والغوانو والبن تحتاج إلى أيدي العبيد. لم يزحزح الحراس أعينهم عنهم في جزر الغوانو لأن أدنى إهمال سيجعل بعض الصينيين ينتحرون غرقاً.

سبب سقوط ليما الفوضى في جميع أنحاء البيرو وتمرّد السود في وادي كانيتي، في نهاية كرنفال أربعاء رماد انفجر حقد القرون. إذلالات طقسية. السود، العبيد إلى وقت متأخر، والذين لا يزالون يُعاملون هكذا، انتقموا لجراحهم القديمة من خلال قتل الصينيين، الذين هم عبيد أيضاً، بالعصي والمناجل.

1880: لندن

دفاعاً عن الكسل

مطارداً من البوليس الفرنسي ومقهوراً من الشتاء البريطاني الذي يجعل المرء يبول رواسب كلسية، كتب بول لافارغ في لندن إدانة جديدة للنظام الإجرامي الذي يجعل الإنسان خادماً بائساً للآلة.

كتب صهر ماركس الكوبي: إن الأخلاق الرأسمالية هي محاكاة ساخرة للأخلاق المسيحية مثيرة للشفقة.

تعلّم الرأسمالية العمال، كما يعلمهم الكهنة، أنهم وُلدوا في وادي الدموع هذا، ليكدحوا ويعانوا، وتستجرهم لدفع زوجاتهم وأبنائهم إلى المصانع التي تطحنهم اثنتي عشرة ساعة في اليوم. رفض لافارغ أن يسهم في أغان مثيرة للغثيان على شرف إله التقدم، الابن الأكبر للعمل، وطالب بحق الكسل والاستمتاع الكامل. إن الكسل هو هبةٍ الآلهة، حتى المسيح بشر به في موعظة الجبل. أعلن لافارغ أنه يوماً ما ستنتهي عذابات الجوع والعمل الشاق، الأكثر عددا من جراد الإنجيل، وعندئذ سترتعش الأرض من المتعة.

1881: لنكولن سيتي

بيلي، الطفل

«سأمنحك علاوة يا دكتور»

منذ دقيقة كان بيلي ينتظر المشنقة في زنزانة، لكنه يسدد الآن إلى الشريف من أعلى الدرج ."لقد تعبتُ يا دكتور".

رمى له الشريف مفتاح الأصفاد وحين انحنى بيلي، انفجرت نار المسدس، سقط الشريف بعد أن أصابته رصاصة في عينه وتشظت نجمته الفضية.

كان بيلي يبلغ الواحدة والعشرين وثمة إحدى وعشرون إصابة في كفل مهره، هذا من دون أن نحصي دزينة من المكسيكيين وهنود الأباتشي الذين قتلهم ولم يُسجّلوا.

"لن أفعل ذلك لو كنت مكانك أيها الغريب"

بدأ مهنته في سن الثانية عشرة، حين أهان متسكع أمّه، وانطلق بسرعة قصوى مشهراً موس يقطر دماً.

1882: سينت جوزف

جيسي جيمس

قاتل جيسي وأبناؤه، أبناء جيمس، مع الجيش الجنوبي المستعبد وأصبحوا فيما بعد الملائكة المنتقمين للأرضِ المغزوّة. وكي يرعوا حسّهم بالشرف سطوا على أحد عشر مصرفاً وسبعة قطارات بريد وثلاث عربات مسرح.

أرسل جيسي ستة عشر شخصاً إلى العالم الآخر متبجحاً ومتردداً ومن دون أن يزعج نفسه بإشهار بندقيته.

في ليلة سبت، في سينتْ جوزف، بميسوري، أطلق عليه صديقه المفضّل النار في ظهره.

"أنت، يا طفل، جفّف الدموع وانظر حولك إن كنت تستطيع أن تزيح تلك القمامة من الطريق، سأقول لك ماذا كان، أتعرف ماذا كان؟ أعند بغل في أريزونا".

1882: سهول أوكلاهوما

غروب رعاة البقر

منذ نصف قرن، حيّر حصان أوكلاهوما الخرافي والبري واشنطن إرفنغ وألهم قلمه. أصبح أمير السهول الذي لا يُروّض، السهم الأبيض ذو العرف الطويل، دابة وديعة.

أصبح راعي البِقر أيضاً وبطل اجتياح الغرب وقاطع الطريق العادل أو المنتقم، جندياً أو قناً يراقب ساعات منتظمة. كانت الأسلاك الشائكة تتقدم ألف كيلومتر في اليوم. وكانت قطارات التبريد تعبر

سهول الولايات المتحدة الشاسعة. استحضرت الأناشيد الرعوية وروايات الإثارة عواء الذئاب الأميركية والهنود، الأوقات الطيبة لقوافل العربات المغطاة ومحاورها الخشبية ذات الصرير، المدهونة بلحم الخنزير، وكان بوفالو بل يشرح أن الحنين يمكن أن يتحول إلى عمل مريح جداً. لكن راعي البقر آلة أخرى بين آلات كثيرة تحلج القطن، تدرس الحنطة أو تكبس الشعير.

1882: نيويورك

الخلق استناداً إلى جون د. روكفلر

في البدء صنعتُ الضوء بمصباح كيروسين فانسحبتْ الظلال التي سخرت من شموع شحم الحيوان أو دهن الحوت، وكان صباح وكان مساء يوم الأحد.

وفي اليوم الثاني اختبرني الله وسمح للشيطان أن يغويني مقدماً لي الأصدقاء والعشيقات وثروات أخرى.

وقلتٍ: ليأتِ البترول إليّ، ثم أسّست "ستاندارد أويل" ورأيت هذا شيئاً حسناً وكان مساء وكان صباح يوم ثالث.

وفي اليوم الرابع اتبعت مثال الله، مثله هدّدتُ ولعنتُ كل من لا يطيعني، ومثله مارستُ الابتزاز والعقاب. وكما سحق الله منافسيه بلا رحمة شللت خصومي في بيتسبرغ بفيلادلفيا ووعدت، التائبين بالغفران والنعيم الأبدي.

ثم أنهيتُ فوضىٍ الكون، وحيث ثمة فوضى أرسيت النظام. وبميزان لم يُعرف أبدا من قبل، حسبت الكلف وفرضت الأسعار وغزوت الأسواق، ثم وزّعت قوة ملايين الأيدي كي لا يُضيّع الوقت أو الطاقة أو الموارد مرة أخرى. طردت المصادفة والقدر من تاريخ الرجال وفي المكان الذي خلقته لم أترك مكاناً للضعفاء ولغير الأكفاء، وكان مساء وكان صباح يوم خامس.

ولكي أمنح عملي اسماً تحت كلمة "ثقة" ورأيت أن هذا شيئاً حسناً، ثم أكدت أن العالم يدور حول عيني المراقبتين بينما كان مساء وكان صباح يوم سادس.

وفي اليوم السابع قمت بالأعمال الخيرية، جمعت النقود التي منحها الله لي لأنني تابعت عمله الكامل وأعطيت الفقراء خمسة وعشرين سنتاً ثم استرحت.

1883: مدينة بسمارك

آخر جواميس الشمال

أصبح الجاموس تحفة نادرة في مونتانا، وكان هنود البلاكفيت يقضمون العظام ولحاء الأشجار.

قاد سيتينك بُل الصيد الأخير لهنود السيو في السهول الشمالية، ورغم أنهم سافروا بعيدا لم يصادفوا سوى بعض الحيوانات. وحين كانوا يقتلون أي جاموس كانوا يطلبون الصفح من الجاموس اللامرئي العظيم، كما يقتضي التقليد، ويعدونه أنهم لن يضيّعوا شعرة واحدة من جسده.

بعد ذلك حالاً، احتفلت شركة الباسيفيك الشمالية للسكك الحديدية بإكمال خطتها من الساحل إلى الساحل. كان هذا هو الخط الرابع الذي يعبر الأرض الأميركية الشمالية، تقدمت قاطرات تسير على الفحم ذات مكابح ضغط هوائية وعربات البولمان خلف الرواد نحو سهول الهنود، وعلى الجانبين بزغت مدن جديدة ونمت السوق المحلية العملاقة وتماسكت.

دعت سلطات الباسيفيك الشمالية الزعيم سيتينك بل إلى إلقاء خطبة التدشين العظيمة. وصل سيتينك بل من الحجز حيث يعيش هنود السيو على التبرعات، وصعد منصة الخطابة المغطاة بالأزهار

والرايات، وخاطب رئيس الولايات المتحدة والمسؤولين والشخصيات الحاضرة والجمهور العام قائلا: "أكره جميع البيض؛ إنهم لصوص وكاذبون"، وكان ضابط شاب يترجم كما يلي: "قلبي الأحمر واللطيف يرحب بكم". قاطع سيتينك بول تصفيق الجمهور: "لقد سرقتم أرضنا وحولتمونا إلى منبوذين"... قدّم الجمهور للمحارب الذي يعتمر ريشا أحمر هتافا احتفائيا على الأقدام بينما كان المترجم يتعرّق جليدا.

1884: سانتياغو دي تشيلي

ساحر المال يأكل لحم الجنود

قال الحاكم المنتصر: ولدتْ حقوقنا من النصر، القانون الأعلى للأمم.

انتهت حرب المحيط الهادي أو حرب النترات بعد أن سحقت تشيلي أعداءها برا وبحرا وأصبحت صحراء أتاكاما وتاراباكا جزءا من خريطة تشيلي. فقدت البيرو نتراتها وجزر سماد الغوانو المستنفدة. فقدت بوليفيا منفذها إلى البحر وحُصرت في قلب أميركا الجنوبية.

احتفلوا في سانتياغو دي تشيلي بالنصر وقبضوا في لندن مقابله. من دون أن يطلق طلقة أو يصرف بنسا، أصبح جون توماس نورث ملك النترات. اشترى نورث بالمال الذي اقترضه من مصارف تشيلية العقود التي منحتها الدولة البيروفية لإبداعات المالكين القدامى مقابل أغنية. اشتراها نورث حين كانت الحرب في بداية نشوبها، وقبل أن تنتهي كانت الدولة التشيلية من اللطف بحيث أنها اعترفت أن العقود ألقاب ملكية شعرية.

1884: هواناكايو

الوطن يدفع

قاتل المارشال أندريه أفيلينو كاسبرس وعصاباته الهندية فوق مائة فرسخ جبلي ضد غزاة بيرو التشيليين من دون توقف طيلة ثلاث سنوات.

كان هنود الجماعات يدعون مارشالهم ذا الشارب الوحشي "جدّنا"، وفقد كثيرون حيواتهم وهم يتبعونه صارخين "يعيش"! للوطن الذي يحتقرهم. كان الهنود في ليما أيضاً مغذين للمدافع وحمل المؤرخ الاشتراكي تلك السلالة الذليلة والمنحطة مسؤولية الهزيمة.

بخلاف ذلك، كان المارشال كاسيريس يقول حتى وقت متأخر إن الذين هزموا البيرو هم تجارها وبيروقراطيوها. رفض معاهدة السلام التي اقتطعت جزءا جيدا من البيرو، لكن كاسيريس غيّر رأيه فيما بعد لأنه رغب أن يصبح رئيسا، وكان عليه أن يربح الاستحقاقات. يجب أن يسرّح الهنود المسلحين الذين قاتلوا ضد التشيليين، لكن الذين غزوا أيضاً المزارع وهددوا النظام المقدس للمزارع الاستعمارية الكبيرة.

استدعى المارشال توماس ليمز زعيم مقاتلي الكولكا، فجاء ليمز إلى هواناكايو مع 1500 هندي ليقول: رهن أوامرك أيها الجد.

ولكن حالما وصل ليمز جُرِّدت قواته من الأسلحة، ولم يكد يعبر عتبة الثكنة حتى أسقطته ضربة من عقب بندقية. فيما بعد أطلقوا عليه النار وهو جالس معصوب العينين.

1885: ليما

الإزعاج يأتي من القمة
كما يقول مانويل غونزاليس

تئن البيرو تحت هيمنة قلة من أصحاب الامتيازات الذين سيمددونا بين عاصرات مطحنة السكر ويقطروننا في إنبيق ويحرقوننا حتى نصبح رماداً في فرن للصهر، إذا قدروا أن ينتزعوا من بقايانا ميلغراماً واحداً من الذهب... يتلقون، كأرضٍ حلت عليها اللعنة، البذار ويشربون الماء دون أن ينتجوا ثماراً أبداً...

برهنوا على جبنهم في الحرب ضد تشيلي ولم يمتلكوا الشجاعة للدفاع عن الغوانو والنترات... لقد أذللنا وديس علينا ونزفنا كما لم يحدث لأمةٍ من قبل، لكن الحرب مع تشيلي لم تعلمنا شيئاً ولم تصحح أياً من رذائلنا.

1885: مكسيكو سيتي

الكل ينتمي إلى الكل

هذا ما قاله تيودور فلوريس هندي الميكستيك، بطل ثلاث حروب.

كرروا ذلك!

ردد جميع الأبناء: كل شيء ينتمي إلى الجميع.

دافع تيودور فلوريس عن المكسيك ضد الأميركيين الشماليين والمحافظين والفرنسيين، منحه الرئيس خواريز ثلاث مزارع تربتها جيدة كمكافأة، لكنه رفض ذلك.

"الأرض، الماء، الغابات، المنازل، الثيران هي للجميع، كرروا ذلك!"

كرّر الأبناء ذلك.

كان السقف المفتوح على السماء عصياً تقريباً على رائحة البراز والقلي وهادئاً. هنا يستطيع المرء أن يتنفس الهواء ويتحدث بينما في الفناء السفلي يتشاجر الرجال بالسكاكين على امرأة، ويبتهل أحدهم بصوت مرتفع للعذراء والكلاب تعوي نُذر الموت.

طلب الابن الأصغر: "حدّثنا عن سلسلة الجبال".

روى الأب كيف يعيش قومه في تيوتيتلان دِل كامينو. هناك، من يستطيع أن يعمل يقوم بالعمل ويحصل الجميع على ما يحتاجونه ولا يسمح لأحد أن يأخذ أكثر من حاجته، لأن ذلك يعتبر جريمة خطيرة. في سلسلة الجبال يعاقب على الجرائم بالصمت أو التوبيخ أو الطرد. كان الرئيس خواريز هو الذي أحضر السجن الذي لم يكن معروفاً هناك. أحضر خواريز القضاة وألقاب الملكية وأمر بتقسيم الأراضي المشاعية. "لكننا لم نكترث بالأوراق التي منحها لنا".

كان تيودور فلوريس في الخامسة عشرة حين تعلّم اللغة الإسبانية، ويريد الآن أن يصبح أبناؤه محامين ليدافعوا عن الهنود ضد خدع الأطباء. ولهذا السبب أحضرهم إلى العاصمة، زريبة الخنازير التي تصم، ليمروا مندسين بين المهاوشين والشحاذين.

ما خلقه الله وما يخلقه الإنسان هو للجميع، كرروا ذلك!

كان الأبناء يصغون إليه كل ليلة حتى يغلبهم النعاس.

ولدنا جميعاً متساوين، عراة تماماً، جميعنا أخوة. كرروا ذلك!

1885: كولون

بريستان

ولدت مدينة كولون منذ ثلاثين عاماً لأنه كان هناك حاجة إلى محطة طرفية للقطار الذي يعبر بنما من البحر إلى البحر. ولدت المدينة على مستنقعات البحر الكاريبي وقدمت الحمى والبعوض، فنادق مترفة، أوكار قمار وبيوت دعارة للمغامرين الذين تدفقوا ليحصلوا على ذهب كاليفورنيا. قدمت أيضاً بيوتاً حقيرة للعمال الصينيين الذين صانوا السكك وماتوا من الطاعون أو الحزن.

في ذلك العام، احترقت كولون ووقع اللوم على بدرو بريستان، بريستان؛ المدرس والطبيب الأسود، الذي يعتمر دائماً قبعة سوداء مرتفعة ويرتدي ربطة عنق، العنيد دائماً في الشوارع الموحلة، قاد عصياناً شعبياً. اتجه ألف من المارينز الأميركيين للعمل على أرض بنما بحجة حماية سكة الحديد وملكيات أميركية شمالية أخرى وشنقوا بريستان الذي دافع عن الشعب المذلّ بحياته وروحه وقبعته.

حلت لعنة على كولون بسبب الجريمة وتكفيراً عن الذنب، ستُحرق المدينة من الآن إلى الأبد كلّ عشرين سنة.

1886: تشيفيلكوي

السيرك

انجلى الضباب عن عربة سيرك عند بزوغ الفجر وسط غياض تشيفيلكوي المورقة.

في الظهيرة، رفرفت أعلام ملوّنة فوق خيمة، دار عَرْضُ نصر حول المدينة. كانت شركة الأخوة بوديستا للدراما الكريبولية وللفرسان والجمناز والألعاب البهلوانية، تملك حاوياً يابانياً وكلباً ناطقاً وحماماً مدرباً، وطفلاً فلتة وأربعة مهرجين.

ادعى البرنامج أن المهرج بيبينو الـ 88، وفريق الألعاب البهلوانية نالا إعجاب الجمهور في لندن وباريس وفيينا وفيلادلفيا وروا.

لكن الطبق الرئيس الذي قدّمه السيرك هو "خوان موريرا"، الدراما الكريبولية الأولى في تاريخ الأرجنتين، وهي تمثيلية إيمائية تحتوي مبارزات بالرباعيات الشعرية والسكاكين وتروي مغامرات راعي بقر أميركي جنوبي، أنهكه ضابط وقاض ورئيس بلدية وبقال.

1886: أطلانطا

كوكا . كولا

حظي الصيدلاني جون بيسبرتون بقليل من الهيبة بسبب جرعات الحب التي وصفها وعلاجاته للصلع.

ابتكر فيما بعد دواء يزيل الصداع ويخفف الغثيان، صُنع منتجه من قاعدة أوراق الكولا التي أحضرت من الآنديز ومن جوز الكولا والبذار المنشطة التي جاءت من أفريقيا. وأكمل الماء والكاراميل وبعض الأسرار، الصيغة.

باع بيمبرتون اختراعه في الحال بألفين وثلاثمائة دولار، كان مقتنعاً أنه علاج جيد وكان سينفجر من الضحك لا من الكبرياء، لو كشف له بصّار ما أنه ابتكر رمز القرن القادم.

1887: شيكاغو

سيعيشون ثانية في كل أول آيار

كانت المشنقة تنتظر الخمسة لكن لينغ (Lingg) مات باكراً مفجراً إصبع ديناميت بين أسنانه. ارتدى فيشر (Ficher) ثيابه ببطء مدندنا النشيد الوطني الفرنسي. بارسونز (Parsons)، المحرّض، الذي استخدم كلمات كالسوط أو المدية، أمسك بأيدي رفاقه قبل أن يقيدها الحرس وراء ظهورهم. إنجلٍ (Engel)، المشهور بدقته في الرماية، طلب نبيذا برتغاليا أحمر حلوا وأضحك الجميع بنكتةٍ. كان الجواسيس الذين كتبوا وصّوروا الفوضى كمدخل إلى الحياة، يستعدون للموت.

ثبت المشاهدون أعينهم على المنصة وهم جالسون على مقاعدهم. إشارة، ضجة، انطبق الفخ... هناك، ماتوا وهم يدورون في الجو، في رقصة مريعة...

كتب خوسيه مارتي ريبورتاجاً عن إعدام الفوضويين في شيكاغو؛ ستحييهم الطبقة العاملةٍ في كل أول أيار. لا يزال هذا مجهولاً لكن مارتي كان يكتب دائماً وكأنه يسمع صرخة طفل حديث الولادة حيث لا يتوقع أحد أن يسمعها.

1889: لندن

نورث

قفز منذ عشرين عاماً على رصيف مرفأ فلبريزو بعينين حجريتين وشعرات ذقن حمراء وجعداء. كان يحمل في جيبه عشرة جنيهات إسترلينية وصرّة ثياب على ظهره. في عمله الأول

تعرّف على الملح الصخري بطريقةٍ قاسية في مرجل راسب صغير في تاراباكا وفيما بعد أصبح تاجراً في مرفأ إيكيكي. في أثناء حرب الباسيفيك، وبينما كان التشيلون والبيروفيون والبوليفيون ينتزعون أحشاء بعضهم بالحراب، قام جون توماس نورث بخدعات سحرية جعلته رابح ساحات المعركة.

الآن، يصنع نورث، ملك النترات، البيرة في فرنسا والإسمنت في بلجيكا، ويملك سيارات أجرة في مصر ومناشر في أفريقيا السوداء ويستغل الذهب في أستراليا والألماس في البرازيل. اشترى ميداس هذا ذو الأصل السوقي والأصابع السريعة رتبة عقيد في إنكلترا في جيش صاحبة الجلالة البريطانية، وترأس المحفل الماسوني "كينت"، وأصبح عضواً بارزاً في حزب المحافظين، وبدأ الدوقات واللوردات والوزراء يجلسون إلى طاولته. عاش في قصر قيل إن جنودا تشيليين انتزعوا أبوابه الحديدية الكبيرة من كاتدرائية في ليما.

عشية رحلة إلى تشيلي أقام نورث حفلة وداع راقصة في فندق ميتروبول حضرها ألف إنكليزي، توهجت صالونات المتروبول كالشموس وكذلك الصحون والمشروبات. كان حرف النون يتوهج وسط شعارات نبالة ضخمة من الأقحوان. وحيّا هتاف المضيف الجبار وهو ينزل الدرج متنكراً في زي هنري الثامن شابكاً ذراع زوجته التي تلبس كدوقة وخلفهما ظهرت الابنة كأميرة فارسية والابن في زي الكاردينال ريتشيو.

كان المراسل الحربي لـ "التايمز" بين الحاشية الضخمة التي سترافق نورث إلى المملكة التشيلية، كانت تنتظره أيام مضطربة. هناك، في الصحارى التي غزيت بالرصاص، كان نورث سيد الملح الصخري والصحف وسكك الحديد، لكن، كان هناك في مدينة سانتياغو رئيس يمتلك ذوقاً سيئاً لأنه يرفض هباته، اسمه خوسيه مانويل بالماسيدا، وكان نورث متوجهاً إلى هناك ليطيح به.

1889: مونتيفيديو

كرة القدم

كانوا يحتفلون بأقدامهم بعيد ميلاد الملكة فكتوريا السبعين على ضفتي نهر بلاتا.

تنافس فريقا بوينس آيرس ومونتيفيديو على الكرة في حقل بلانكيدا الصغير تحت عيني الملكة المتفحصتين والمزدريتين. كانت تتدلى بين الرايات، وسط المدرج، صورة سيدة بحار العالم وجزء جيد من أراضيه.

ربح فريق بوينس آيرس ثلاثة مقابل لا شيء ولم يكن هناك موتى لِيُنْدَبوا رغم أن العقوبة لم تكن قد ابتكرت وكل من يقترب من مرمى العدو يجازف بحياته. كان على المرء أن يخترق حادورا من الأرجل التي تسدد كالفؤوس لكي يسددٍ من مكان قريب على المرمى وكانت كل مباراة معركة تتطلب عظاماً من الفولاذ.

كانت كرة القدم لعبة إنكليزية وكان يلعبها مسؤولو سكة الحديد وشركات الغاز وبنك لندن، لكن بضعة كرييوليين من الهدّافين الدخلاء ذوي الشوارب الشقراء، أظهروا أن البراعة تصلح كسلاح فعال لإسقاط حراس المرمى.

1890: نهر بلاتا

رفاق

كان يأتي أكثر من خمسين ألف عامل كل عام إلى الريفر بلاتا وهم أوروبيون استنزفهم اليأس على هذه السواحل. حيث رايات إيطالية

زيارة إدمندو دي أميسيس إلى مستعمرات بيدمونتس على الساحل الأرجنتيني. وفي اجتماعات العمال في بوينس آيرس أو مونتيفيديو سُمعت خطابات في اللغة الأسبانية والإيطالية والفرنسية أو الألمانية.

كان ثمانية من كل عشرة عمال أو صناع أجانب، وكان بينهم اشتراكيون وفوضويون طليان وفرنسيون من الكومونة وإسبان من الجمهورية الأولى وثوريون من ألمانيا ووسط أوروبا.

نشبت الاضطرابات على ضفتي النهر. كان سائقو السيارات يعملون ثماني عشرة ساعة في اليوم وكان عمال المطاحن ومصانع المعكرونة يعملون خمس عشرة ساعة. لم يكن ثمة أيام أحد وكان مسؤول من حكومة بوينس آيرس قد نشر اكتشافه الذي يقول إن الكسل هو سبب جميع الرذائل.

احتفل بيوم الأول من أيار الأميركي اللاتيني في بوينس آيرس وحيا الخطيب الرئيس، جوزف وينيجر شهداء شيكاغو بالألمانية وأعلن أن ساعة الاشتراكية اقتربت، بينما كان رجال الرداء والقلم والسيف أو التونية، يضجون من أجل طرد أعداء النظام الغرباء. سن الكاتب الملهم ميغيل كاني قانوناً لطرد المحرضين الغرباء من الأرجنتين.

1890: بوينس آيرس

مساكن الفقراء

كان الفقراء والأغنياء يدفعون السعر نفسه في مسرح كولون أوقات الكرنفال ولكن حالما يعبرون الباب تتجه الأيدي إلى مكانها والأدمغة إلى مكانها ولا أحد يرتكب انتهاك حرمة المقدسات ويجلس في المكان الخطأ. كان العامة يرقصون في الممرات والأسياد في المقصورات وقاعات الانتظار.

كانت بوينس آيرس مثل مسرحها، ذلك أن أبناء الطبقة العليا كانوا ينامون في قصور فرنسية من ثلاثة طوابق في الحي الشمالي، وكانت العازبات اللواتي يفضلن الموت على مزج دمائهن مع أجنبي ما ذي دم غير محدد، ينمن وحيدات. كان بشر القمة يزخرفون نسبهم أو يصنعونه بسيول منٍ اللآلئ والأحرف المنقوشة على عدة الشاي الفضية ويعرضون خزفاً من سكسونية أو سيفر أو ليموج، وكريستالاً من ووترفورد، وقماشاً مطرزاً من ليون وأغطية طاولات من بروكسل، ذلك أنهم انتقلوا من حياة القرية الكبيرة المعزولة إلى حياة حب الظهور المسعورة لباريس أميركا.

كان مستضعفو الأرض يحتشدون في الجنوب، وكان العمال الذي يصلون حديثاً من نابولي أو فيجو أو بيسارابيا ينامون بالدور في منازلٍ استعمارية ضخمة ذات ثلاثة أقنية أو في مساكن بنيت خصيصاً لهم. ولم تكن الأسرّة النادرة تبرد أبداً في اللامكان الذي تغزوه المناقل وأحواض الغسيل والصناديق التي تخدم كمهادٍ.

كانت المشاجرات متواصلة في الممر الطويل على الباب المؤدي إلى المرحاض الوحيد وكان الصمت ترفاً مستحيلاً. لكن أحياناً، في ليالي الحفلات، كان الأكورديون أو الماندولين أو الزمامير تحضر الأصوات الضائعة إلى الغاسلات وصانعات الثياب. خادمات الرؤساء الأغنياء والأزواج، وكانت تريح عزلة الرجال الذين من الشروق إلى الشروق، يصبغون الجلود ويعلبون اللحوم وينشرون الخشب ويكنسون الشوارع ويحملون الحمولات ويشيدون ويدهنون الجدران ويلقون السجائر ويطحنون الحبوب ويخبزون الخبز، بينما يلمّع أبناؤهم الأحذية ويستدعون جريمة اليوم.

رجل لوحده

كانوا يقولون في قرى غاليسيا كلما هاجر شخص ما: "لقد نقصتْ نار أخرى".

هناك، يصبح إنساناً رائداً، وهنا لا يريد أن يكون زائداً. كان الرجل ذو الكلمات القليلةٍ يعمل ويقاوم ويبقى صامتا كبغل، وفي المدينة الأجنبية يشغل مكاناً أصغر من المكان الذي يشغله كلب.

هنا، كانوا يسخرون منه ويعاملونه باحتقار لأنه لا يستطيع حتى أن يوقع والآن العمل اليدوي هو للنوع الأدنى. من ناحية أخرى، كانوا يعبدون هنا أي شخص مغرور ويصفقون للمخادع الذي يفرغ أكثر الرؤوس مباهاة بضربة حظ.

كان المهاجر الوحيد يحظى بقليل من النوم، ولكنه حالما يغمض عينيه تجيء جنية ما أو ساحرة لتحبه في الجبالٍ الخضراء أو المنحدرات الثلجية وكانت الكوابيس تهاجمه أحياناً ثم يغرق في النهر، ليس في أي نهر، لكن في نهر معيَّن قيل إن كل من يعبره يفقد ذاكرته.

رقصة التانغو

ولدت رقصة التانغو، سليلة الميلونجا الخليعة على حافة المدينة وفي ساحات مساكن الفقراء. كانت سيئة السمعة على ضفتي نهر بلاتا وكان العمال والمجرمون يؤدونها على أرضيات ترابية، كان يرقصها رجال المطرقة أو المدية ذكرا مع ذكر إذا كانت المرأة غير قادرة على متابعة الخطوة الجسورة المتقطعة أو إذا بدا العناق الجسدي أكثر ملاءمة للعاهرات. كان الراقصان ينزلقان ويهتزان ويتمددان ويقفزان في حركات مفاجئة ومتشابكة ومعقدة.

جاءت رقصة التانغو من ألحان رعاة البقر الأميركيين الجنوبيين في الداخل وجاءت من البحر، من أناشيد البحارة. جاءت من عبيد أفريقيا وغجر الأندلس. ساهمت أسبانيا بالغيتار وقدمت ألمانيا الكونسرتينة وإيطاليا الماندولين. قدم سائق العربة بوقه والعامل المهاجر الهارمونيكا، رفيقة لحظات الوحدة. كانت التانغو تمتد فوق الثكنات بخطوة مترددة ثم تهبط، وسط السيركات المتنقلة وأقنية

منازل الدعارة في الأحياء الفقيرة. أما الآن فيقدمها عازفو الأرغن في شوارع الشاطئ على حواف بوينس آيرس ومونتيفيديو متجهين نحو مركز المدينة، ثم أخذتها السفن إلى باريس لتجننها.

1890: هارتفورد

مارك توين

خطفتْ يدا الروائي هانك مورغان، الموظف في مصنع كولت للأسلحة، إلى بلاط الملك آرثر البعيد. سافر الهاتف والدراجة والديناميت إلى أزمنة الساحر ميران والسير جالاهاد في وادي كاميلوت. هناك نشر هانك مورغان وباع صحيفته بسعر متواضع وأسس أكاديمية ويست بوينت العسكرية وكشف أن العالم ليس صحناً تسنده الأعمدة. ورغم أنه جاء من مجتمع يعرف الاحتكارات، أحضر هانك إلى القلاع الإقطاعية الأنباء الطيبة عن المنافسة الحرة والتجارة الحرة والانتخابات الحرة. حاول عبثاً أن يلغي المبارزات على الأحصنة وينشر كرة السلة، أن يبطل الملكية الوراثية ويحل محلها الديمقراطيةٍ أن يلغي قوانين الشرف ويعتمدٍ حساب التكلفة. لكنه أحرق أخيرا ثلاثين ألف فارساً إنكليزياً برماحهم ودروعهم بالأسلاك الكهربائية التي استخدمت سابقاً ضد الهنود في الولايات المتحدة. تصارعت المغامرة نحو ذروة مهلكة وسقط هانك مختنقاً من الأبخرة السامة لضحاياه المتعفنين.

أنهى مارك توين كتابه يانكي من كونيتيكت في بلاط الملكٍ آرثر في منزله في هارتفورد وأعلن: "إنه أغنية بجعتي". عاش دائماً بسرعةٍ فائقةٍ مطارداً مليوناً من الدولارات الهاربة. كان صحفياً ومستكشفاً، وكيلاً حكومياً، معدِّن ذهبٍ، مضارباً، مبتكر أدوات ميكانيكية، مدير شركة تأمين ومقاولاً فاشلاً. بين إفلاس وآخر، نجح في اختراعٍ أو استدعاء توم سوير وهك فن، وعثر على طريقة ليدعونا جميعاً إلى

رحلة على معدية في نهر الميسيسيبي وفعل ذلك ليس من أجل الرغبة بالوصول، بل من أجل المتعة المحضة للسفر.

1890: ووندید ني

ريح ثلجية

لم يخلق الخالق الهنود بل غناهم ورقصهم.

أعلن الخالق من خلال الأغاني والرقصات أن زوبعة أرض جديدة خضراء ستدمر الأرض القديمة. وأحضر النبيُّ ووفوكا نبأ ذلك من العالم الآخر، ستُبعث الجواميس في الأرض الجديدة وسيولد الهنود الموتى من جديد وسيغرق طوفان شرس البيض، ولن يبقى مغتصب واحد على قيد الحياة.

جاءت رقصات وأغاني النبي ووفوكا من الغرب، عبرت الجبال الصخرية وانتشرت في أرجاءٍ السهول. احتفل هنود السيو الذين كانوا أقوى القبائل وأكثرها عدداً بإعلان الجنة وبنهاية الجوع والمنفى. رقصوا وغنوا من انبلاج الفجر إلى منتصف كل ليلة.

بعد أربعة أيام من عيد الميلاد قاطع رعد نيران البنادق الاحتفالات في مخيم هنود السيو في ووندید ني. ثقب الجنود النساء والأطفال والرجال القلائل بالرصاص كالجواميس الكثيرة، هبت ريح ثلجية على الموتى وجمدتهم في الثلج.

أغنية هنود السيو النبوية

قلت إنني أمة من الرعد

قلت أنا أمة من الرعد

سوف تحيا

سوف تحيا

سوف تحيا

سوف تحيا.

1891 : سانتياغو دي تشيلي

بالماسيدا

أراد خوسيه مانويل بالماسيدا أن يطور الصناعة الوطنية لنعيش ونلبس بأنفسنا. اعتقد أن حقبة النترات ستمر من دون أن تترك لتشيلي شيئاً إلا الندم. رغب أن يطبق محرضات وحمايات مشابهة لتلك التي مارستها الولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا وألمانيا في أثناء طفولتها الصناعية. رفع أجور العمال وأنشأ المدارس العامة في البلاد ومنح جسد تشيلي الطويل عموداً فقرياً من السكك الحديدية والطرق. في أثناء أعوامه كرئيس، جازف رأس المال البريطاني المقدس مجازفة تجديف خطيرة. أراد بالماسيدا أن يؤمم السكك الحديدية وينهي ربا المصارف وشراهة شركات النترات.

كان بالماسيدا يريد الكثير واستطاع أن يفعل الكثير، لكن الميزانية الضخمة التي خصصها جون توماس نورث لشراء الضمائر وحرف العدالة فعلت أكثر، فتحت الصحف رعدها ضد القيصر السكران من السلطة، الطاغية عدو الحرية والمعادي للمشاريع الأجنبية، ولم يكن صخب الأساقفة والبرلمانيين أقل بعثاً للصمم، نشبت انتفاضة عسكرية وتدفق دم الشعب.

أعلنت الصحيفة الأميركية الجنوبية (ساوث أميركان جورنال) نصر الانقلاب العسكري: ستعود تشيلي إلى أوقات الأمس الجيدة. احتفل المصرفي إدواردو ماتي بذلك أيضاً: نحن

أسياد تشيلي، نحن مالكو رأس المال والتربة وكل ما تبقى هو جمهور قابل للتأثر والبيع.

انتحر بالماسيدا.

1891: واشنطن

أميركا الأخرى

عاش خوسيه مارتي عشرة أعوام في الولايات المتحدة وأعجبته أشياء كثيرة في تلك البلاد المتنوعة والفتية، حيث لا أحد يخاف من أي شيء جديد. لكن خوسيه شجب في مقالاته الطموحات الإمبريالية للأمة الشابة، تمجيدها للجشع وتحويله إلى حق مقدس والتمييز العنصري الذي يبيد الهنود ويذل السود ويحتقر اللاتينيين.

قال مارتي إنه في جنوب ريو هناك أميركا أخرى، أميركا الخاصة بنا، الأرض التي تتلعثم، التي لا تتعرف على شبهها الكامل لا في المرآة الأوروبية ولا في المرآة الأميركية الشمالية. إنها الوطن الأميركي الهسباني الذي يطالب باسترداد كوبا ليكمل نفسه، بينما في الشمال يطالبون بها كي يلتهموها: إن مصالح أحد الأميركيتين لا تتقاطع مع مصالح الأخرى.

سأل مارتي :هل يناسب الاتحاد السياسي والاقتصادي مع الولايات المتحدة أميركا الهسبانية؟

ثم أجاب: إن وحدة بين طائري كندور أو حملين هي أقل خطراً من وحدة كندور وحمل.

عقد العام الماضي المؤتمر الأول الشامل لأميركا في واشنطن وأرسل مارتي كمندوب للأوروغوي من أجل مواصلة الحوار. قال: كل من يقول وحدة اقتصادية، يقول وحدة سياسية. الشعب الذي يشتري يصدر الأوامر، الشعب الذي يبيع يخدم... الشعب الذي يريد أن

يموت يبيع لشعب واحد فحسب، والشعب الذي يريد إنقاذ نفسه يبيع لأكثر من شعب... الشعب الذي يريد أن يكون حرا يوزع عمله بين شعوب متساوية القوة. إذا كان يجب أن يفضّل أي منها: فضّل الذي يريد القليل على الأقل ازدراء...

كرس مارتي حياته لأميركا الأخرى؛ أراد أن يحيي كل شيء فيها قُتل منذ الغزو فصاعدا، وأن يكشفها ويدفعها إلى التمرد، لأن هويتها المختبئة التي خُبئت لن تنكشف حتى تفك قيودها.

أي خطأ يمكن أن ترميه في وجهي أمي العظيمة أميركا؟ مارتي ابن الأوروبيين، لكن أين أميركا، الوطني الكوبي المخلص للوطن العظيم، شعر أن دم الشعوب المجروحة يتدفق في شرايينه، تلك الشعوب التي ولدت من النخيل أو بذار الذرة والتي سمّت درب التبانة طريق الروح والقمر شمس الليل أو الشمس النائمة. هكذا كتب مجيباً سارمينتو المشغوف بكل ما هو أجنبي: هذه ليست معركة بين الحضارة والبربرية، بل بين التعلم المزيف والطبيعة .

1891: نيويورك

بدأ التفكير يصبح تفكيرنا
كما يعتقد خوسيه مارتي

...أن تعرف هو أن تحلل؛ إن معرفة البلاد وحكمها وفقاً لمعرفتنا هي الطريقة الوحيدة لتحريرها من الطغيان. ينبغي أن تخضع الجامعة الأوروبية للجامعة الأميركية، يجب أن يوضع تاريخ أميركا منذ الآنكيين حتى الآن على رؤوس أصابعنا حتى ولو لم يعلم تاريخ القضاة اليونانيين. إن يوناننا أفضل من اليونان التي ليست لنا، يجب أن يحل السياسيون الوطنيون مكان السياسيين الغرباء. لتُلقّح جمهورياتنا بالعالم لكن الجذع يجب أن يكون جذع جمهورياتنا،

وليصمت المتحذلق المهزوم، ذلك أنه ليس هناك وطن يقدر أن يفخر به المرء كثيراً مثل جمهورياتنا الأميركية المجروحة...

كنا قناعاً ببنطلونات من إنكلترا وصدار باريسية وسترات من أميركا الشمالية وطاقية من أسبانيا... كنا كتّاقيات وشملات في بلدان جاءت إلى العالم تنتعلُ خفاً وشعرها معصوب... لا الكتاب الأوروبي ولا الكتاب اليانكي قدّما مفتاحاً للغز أميركا.

تقف الشعوب وتحيي بعضها. وتسأل: من نشبه؟ وتجيب بعضها ماذا تشبه. حين تبزغ مشكلة في كوخيمار لا يذهبون إلى دانزيغ بحثاً عن حلها. لا تزال المعاطف الواقية من المطر فرنسية لكن التفكير بدأ يصبح أميركيا.

1891: غواناخواتو

34 شارع كانتاراناس

تصوير فوري

ينحني الرامي ذو الرأس المغطى ويسدّد. لا تبتسم الضحية التي هي سيد من غواناخواتو رفيع النسب، ولا تتحرك أو تتنفس. كانت الستارة مسدلة خلفه وكان ثمة مشهد ورقي مشغول بالجص وكان درج دعامة المسرح لا يقود إلى أي مكان. محاطة بأزهار ورقية وأعمدة كرتونية ودرابزين، تضع الشخصية الوقورة يدها على ذراع كرسي وتواجه بكرامة الفم المدفعي للكاميرا ذات الجزء الجلدي المتمدد.

صور جميع أبناء غواناخواتو في الأستوديو الواقع في 34 شارع سانتاراناس. كان روموالدو غارسيا يصور الأسياد وزوجاتهم وأبناءهم، الفتيان الذين يبدون كأقزام يرتدون صداري فضفاضة بساعات جيب، وفتيات صارمات كالجدات تسحقهن قلنسوات حريرية مزينة بأشرطة. كان يصور الرهبان السمان والجنود في لباسهم العسكري

الكامل والذين يتناولون العشاء الرباني للمرة الأولى والعشاق وأيضا بعض الفقراء الذين يجيئون من بعيد ويقدمون ما لا يملكونه ليأخذوا وضعية أمام كاميرا الفنان المكسيكي الذي فاز بجائزة في باريس، مرتدين أفضل ثيابهم المكوية بمباهاة وحليقي الشعر.

كان الساحر روموالدو غارسيا يحوِّل الأشخاص إلى تماثيل ويبيع الخلود للفانين.

1891: بوريسيما دل رنكون

حيوات

لم يتعلم من أحد، كان يرسم لأنه أحب ذلك. كان يُدفع لهيرمينيجيلدو بستوس بسخاء أو بأربعة بنسات مقابل الصورة. لم يكن سكان بوريسميا يملكون مصورا فوتوغرافياً بل رسّاما.

منذ أربعين عاماً رسم هيرمينيجيلدو صورة لليوكاديا أوبيت، حسناء البلدة، وكانت تشبهها كثيرا. مذاك، شاهدت بلدة بوريسميا عمليات دفن وحفلات زفاف ناجحة، كثيراً من ألحان المناجاة ونزع أحشاء في البارات وهربت فتاة مع مهرج سيرك متنقل. ارتجفت الأرض أكثر من مرة وأرسل حاكم جديد أكثر من مرة من مكسيكو سيتي، وبينما كانت الأيام البطيئة تمر بشموسها وأمطارها الغزيرة تابع هيرمينيجيلدو بستوس رسم البشر الأحياء الذين شاهدهم والموتى الذين تذكرهم.

كان أيضاً حدائقياً وبائع بوظة ودزينة من الأشياء الأخرى. كان يزرع الذرة والفاصولياء في أرضه أو بالتفويض وينشغل دائماً في مكافحة ديدان المحاصيل. كان يصنع الحلوى المتجلدة من الجليد

الذي يجمعه عن أوراقٍ الأغاف [5] وحين يخف البرد كان يخلل البرتقال، كان يطرز أيضاً الرايات الوطنية ويصلح السقوف الراشحة ويدير قرع الطبول في أثناء الأسبوع العظيم، يزين الستائر والأسرةٍ والأكفان. وبلمسة رشيقة جداً رسم الدونا بومبوسا لوبيث شاكرا العذراء الأكثر قداسة التي سحبتها عن فراش موتها، ورسم الدونا ريفجيو سيجوفيا، مشيداً بمفاتنها من دون أن يحذف شعرة من الخصل المتدلية على جبهتها وناسخاً المشبك الذهبي المعلق حول عنقها والذي كتب عليه "ريفوجيتو".

كان يرسم نفسه حليق الذقن والشعر بعظمي خدين بارزين وحاجبين متغضنين وبزة عسكرية، وكان يكتب عل ظهر الصورة: هيرمينيجيلدو بستوس، هندي من بلدة بوريسيما دل رنكون، ولدتُ في 13 نيسان ورسمت صورتي في 19 حزيران 1891، لأرى إن كنت أستطيع ذلك.

1892: باريس

فضيحة القناة

أعلنت محكمة فرنسية إفلاس شركة قناة بنما. عُلق العمل وانتشرت الفضيحة، اختفت فجأة مدخرات آلاف من الفلاحين الفرنسيين والبرجوازيين اللؤماء. كان المشروع الذي سيفتح شقا بين المحيطين، ذلك المر الذي حلم به الغزاة، عملية غش عملاقة. ونشرت وقائع تبذير ملايين عديدة من أجل رشوة السياسيين وإسكات الصحفيين. كتب فريدريك إنجلز من لندن: "يصلح مشروع بنما أن يكون للجمهورية البورجوازية صندوق باندورا وأعني تلك الفضيحة القومية المهيبة التي تخطت جميع

[5] شجر.

الحدود. لقد اجترحت معجزة تحويل قناة لم تشق بعد إلى هاوية لا يسبر لها غور".

لم يذكر أحد العمال الأنتيليين والصينيين والهنود الشرقيين الذين أبادتهم الحمى الصفراء والملاريا بسرعة سبعمائة وفية في كل كيلومتر من قناة شقت عبر الجبال.

1892:سان خوسيه .كوستاريكا

نبوءة شاعر نيكاراغوي شاب يدعى روبن داريو

سيشهد القرن القادم أعظم الثورات التي أدمت الأرض؛ السمك الكبير يأكل الصغير، هذا ما سيحدث لكننا سنستعيد حالاً ما يخصنا. تسود حياة الفقر والعوز ويحمل العامل على كتفيه لعنة بحجم الجبل. ولا شيء يهم الآن سوى الذهب البائس والذين حرموا من الميراث هم القطيع الأبدي الذي يُساق إلى المسلخ الأبدي.

ما من قوة ستقدرٍ على اٍحتواء تٍيارات الانتقام المهلكة وسيكون علينا أن نغني نشيداً وطنياً جديداً سيدمر، كبوق أريحا، منازل الأشرار.

ستشاهد السماء بفرح مخيف، وسط رعد الكارثة المخلصة، خصيَ الأشرار المتعجرفين والانتقام المطلق والمرعب للبؤس المنتشي.

1893: كاندوس

أنطونيو كونسلهيرو

طاف الأنبياء وقتاً طويلاً في أراضي البرازيل الشمالية الشرقية المحروقة وأعلنوا أن الملك سيباستيان سيعود من جزيرة لاس بروماس ليعاقب الأغنياء ويحول السود إلى بيض والشيوخ إلى شباب. قالوا: حين ينتهي القرن ستصبح الصحراء بحرا والبحر صحراء وستدمر النار المدن الساحلية وعبدة النقود والخطيئة المسعورين. وعلى رماد ريسيف وساو باولو وباهيا وريو، ستنهض قدس جديدة يحكم فيها المسيح ألف عام. أعلن الأنبياء أن ساعة الفقراء تقترب وفي غضون سبعة أعوام ستهبط السماوات إلى الأرض وعندئذ لن يكون هناك مرض أو موت وسيدفع كل ظلم في العهد الأرضي والسماوي الجديد.

كان التقي أنطونيو كونسلهيرو يتجول من بلدة إلى أخرى شبحاً قذراً ومغبراً تتبعه جوقة من الصلوات. كان جلده درعا جلديا مكدودا ولحيته دغلا من العليق وسترته كفناً ممزقا، لم يكن يأكل أو ينام، كان يوزع الصدقات التي يجمعها على الفقراء ويتحدث مع النساء مديرا ظهره. رفض أن يطيع الحكومة الفاسقة للجمهورية ورمى فرمانات الضريبة في النار في ساحة بلدة بون كونسيلهو.

حين طاردته الشرطة هرب إلى الصحراء ومع مئتين من الحجاج أسس جماعة كاندوس قرب قاع نهر سريع الزوال، حيث لا تسمح الحرارة للمطر أن يلمس التربة. وعلى السفوح الصلعاء للتلال نهضت أكواخ الطين والقش الأولى. وفي وسط تلك الأرض المنزوية؛ أرض الميعاد، الدرجة الأولى إلى السماء. رفع أنطونيو كونسلهيرو بانتصار صورة المسيح وأعلن القيامة: سيباد الأغنياء والكفرة والمتقلبون. ستصطبغ المياه بالدم، سيكون هناك راع واحد وقطيع واحد فحسب، قبعات كثيرة وبضعة رؤوس.

1895: كي ويست

الحرية تسافر في سيجار

لا ينام أبداً ولا يكثر من الطعام. كان خوسيه مارتي يجمع البشر والنقود ويكتب المقالات والرسائل ويلقي الخطب والقصائد والمحاضرات ويناقش وينظم ويشتري الأسلحة. لم يقدر عشرون عاماً من المنفى على إطفاء ضوئه.

كان دائماً يعرف أن كوبا لا تستطيع أن تكوّن نفسها من دون ثورة. أسس منذ ثلاثة أعوام الحزب الثوري الكوبي على سواحل فلوريدا الثلاثة؛ ولد الحزب في مشاغل التبغ في تامبا وكي ويست برعاية العمال الكوبيين المنفيين الذين سمعوا مارتي شخصياً وقرؤوا كتاباته.

كانت المشاغل كجماعات عمل واقتضى التقليد أن يقرأ المرء الكتب أو المقالات بينما يعمل الآخرون صامتين، وهكذا كان عمال التبغ يتلقون أفكاراً وأنباء ويسافرون يومياً عبر العالم والتاريخ وفي أقاليم الخيال الرائعة. كانت الكلمة الإنسانية تنطلق من فم القارئ وتخترق المرأة التي تنزع ضلوع أوراق التبغ والرجال الذين يلقون الأوراق ويمسدون السيجار على الفخذ أو الطاولة. وبعد أن اتفق مع الجنرالين ماكسيمو غوميث وأنطونيو ماسيو، أصدر ماتي أمر الهجوم. سافر الأمر من مشاغل فلوريدا هذه ووصل إلى كوبا مخبأ داخل سيجار هافانا.

1895: بلاييتاس

النزول

بعد أربعين عاماً من الآن سيذكر ماركوس دل روزاريو: "لم يحبني الجنرال غوميثٍ من النظرة الأولى، سألني: لماذا أنت ذاهب إلى كوبا؟ هل أضعت شيئاً ما هناك؟ سيصفق ماركوس نافضاً الأوساخ عن يديه. كان الجنرال غوميث عجوزا خرافيا صغيرا، قويا ورشيقة جدا. يتحدث بصوت مرتفع ويتراجع إلى الخلف محاولا ابتلاعك..."

سيعبر البستان باحثاً عن ظل: "أخيراً عثرنا على سفينة أنزلتنا في مكان قريب من ساحل كوبا".

سيظهر حلقات أرجوحته الشبكية الحديدية: " تركتنا السفينة في البحر وكان ثمة موجة طامية مرعبة..."

دومينيكيان وأربعة كوبيين في قارب، تلعب العاصفة بهم، أقسموا أن يحرروا كوبا.

كانت ليلة مظلمة لا تقدر أن ترى فيها أي شيء...

يطلع قمر أحمر يتعارك مع الغيوم بينما يصارع القارب بحراً غاضباً.

كان العجوز في الحيزوم يمسك العجلة بينما كانت بوصلة القارب مع مارتي.. نزعت موجة كبيرة العجلة من يدي الجنرال... كنا نقاتل البحر الذي أراد أن يبتلعنا ويمنعنا من الوصول إلى كوبا..

ونتيجة سحر ما، لا يتحطم القارب على الجروف، بل يطير ويغوص ويطفو. فجأة يسير مع الريح، ينفتح الموج ويظهر شاطئ صغير أو بالأحرى حدوة حصان من الرمل.

قفز الجنرال غوميث إلى الشاطئ وحين وقف على اليابسة قبل الأرض مباشرة وصاح كالديك.

1895: آرويو هوندو

في سلسلة الجبال

ليس بحزن، بل بتألق وابتهاج تحدث ماركوسٍ ديل روزاريو عن مارتي: "حين شاهدته، اعتقدت أنه ضعيف جدا ثم رأيت أنه سلك صغير حي يقفز هنا ويهبط هناك..."

علمه مارتي الكتابة؛ وضع مارتي يده على يدِ ماركوس وهو يرسم حرف الألف: "ذهب إلى المدرسة وأصبح عبقريا".

كان ماركوس يعتني بمارتي ويصنع له مخدات جيدة من الأوراق الجافة ويحضر له ماء جوز الهند ليسقيه. أصبح الرجال الستةُ الذين هبطوا في بلاييتاسٍ مائة ثم ألفا... كان مارتي يتقدم حاملاً بندقية على ظهره ومعلقا بندقية على كتفه ويتسلق سلسلة الجبال محرضاً البشر.

"حين كنا نتسلق الجبال مثقلين بالحمولات، كان يتعرضٍ أحياناً للسقوط فأسرع لأمسك به لكنه يقول بسرعة: لا، شكرا لك، لا. كان يحمل خاتماً مصنوعاً من الأغلال التي قيده بها الإسبان حين كان لا يزال طفلاً".

1895: معسكر دوس ريوس

إنجيل مارتي

كتب مارتي وهو يرتدي قميصه في المعسكر رسالة إلى صديقه الحميم مانويل ميركادو أخبره فيها أن حياته معرضة للخطر كل يوم وأنها جديرة بأن يمنحها من أجل بلاده ومن أجل واجبي في أن أمنع

الولايات المتحدة، بعد أن تحصل كوبا على استقلالها، من أن تمد نفسها إلى جزر الآنتيل وأن تهبط، بقوة إضافية، على أراضينا الأميركية. إن كل ما فعلته حتى الآن وكل ما سأفعله هو من أجل ذلك، وينبغي أن يتم هذا بهدوء...

إن الكوبيين يبذلون الدماء ليمنعوا الشمال الهائج والوحشي الذي يحتقرهم من ضم شعوب أميركا الخاصة بنا، إليه. ذلك أنني عشت داخل الوحش وأعرف أحشاءه ومقلاعي هو مقلاع داود. وأضاف: هذه مسألة حياة أو موت وليس ثمة مكان للرعب.

غير فيما بعد لهجته. كانت هناك أشياء أخرى يريد أن يتحدث عنها: والآن أحدثك عن نفسي. لكن الليل أوقفه أو ربما التواضع، حالما بدأ يقدم لصديقه أعماق روحه تلك. كتب:

ثمة عاطفة من الصدق الشفيف... وكان هذا آخر ما كتبه.

في ظهيرة اليوم التالي، أسقطته رصاصة عن حصانه.

1895: فيكينوهومو

سيكون اسمه ساندينو

تجمع البشر على باب المنزل المصنوع من الطوب بعد أن جذبتهم صرخة. كعنكبوت متدلية، حرك الطفل الوليد ذراعيه وساقيه، لم يأت الملوك المجوس ليرحبوا به، بل قدم له الهدايا عامل مزرعة ونجار وامرأة كانت في طريقها إلى التسوق.

قدمت العرابة ماء الخزامى للأم وقدمت للولد قرص عسل كان تذوقه الأول للعالم.

فيما بعد، دفنت العرابة المشيمة التي بدت كجذر في زاوية حديقة؛ دفنتها في بقعة جديدة معرضة لضوء الشمس لكي تصبح تربة هنا في نيكينوهومو.

في غضون بضعة أعوام، سيصبح الطفل الذي خرج لتوه من المشيمة تربة أيضاً، التربة المتمردة لنيكاراغوا كلها.

1896: بور ـ أوبرانس

أقنعة

استناداً إلى دستور هاييتي، تتحدث جمهورية السود الأحرار اللغة الفرنسية وتتعاطى الدين المسيحي. لكن الأطباء كانوا مقهورين لأن اللغة الكرييولية استمرت، رغم القوانين والعقوبات، لغة لجميع الهاييتين تقريباً واستمر الجميع تقريباً يؤمنون بالآلهة الودونية التي تتجول بعدد كبير في الغابات والأجساد.

طلبت الحكومة من الفلاحين أن يقسموا علناً:

أقسم أن أدمر جميع الأوثان والخرافات إذا حملتها معي أو كانت في منزلي أو أرضي. أقسم ألا أدنس نفسي بأية ممارسة خرافية.

1896: بوكا ديدوس ريوس

قداس من أجل راحة الموتى

«هل حدث هذا هنا؟»

مر عام وما يزال ماكسيمو غوميث يروي القصة لكاليكستو غارسيا؛ قاد المحاربون القدماء من أجل استقلال كوبا المسير من نهر كونترامايستر وتقدمت جيوشهم خلفهم. روى الجنرال غوميث كيف أكل مارتي بشهية جيدة في منتصف الطريق ثم قرأ بعض الأشعار كعادته وكيف سمعوا صوت بعض الطلقات وركض الجميع بحثاً عن الأحصنة.

أحدث الأمر هنا؟

جاؤوا إلى دغل عند مدخل الطريق إلى بالو بيكادو.

قال أحدهم: "هنا".

نظف حاملو المناجل بقعة الأرض.

قال غوميث: "لم أسمعه يشكو أبداً ولم أشاهده يستسلم، وأضاف مدمدماً وغاضباً: أمرته، نصحته أن يبقى في الخلف".

بقعة أرض بحجم جسده.

أسقط الجنرال ماكسيمو غوميث حجراً ورمى الجنرال كاليكستو غارسيا حجرا آخر، اصطف الضباط والجنود وسقطت الأحجار وراء بعضها مصدرة طقطقة حادة، تجمعت الأحجار فوق بعضها رافعة نصب مارتي التذكاري نحو السماء ولم تكن تسمع سوى تلك الطقطقات في صمت كوبا الشاسع.

1896: بابيتي

فلورا تريستان

قدم القماش العريض والعاري نفسه متحدياً. كان بول غوغان يرسم ويصطاد في الجوار ويضيف اللون كأنه يودع العالم فيما كانت يده اليائسة تكتب: من أين جئنا، من نحن، إلى أين نحن ذاهبون؟

منذ أكثر من نصف قرن سألت جدة غوغان السؤال نفسه في أحد كتبها وماتت من دون أن تعثر على جواب. لم تذكر عائلة فلورا تريستان البيروفية ذلك أبداً، ربما بسبب الحظ السيء أو لأنها كانت مجنونة أو شبحاً. حين سأل بول عن جدته في سنوات طفولته البعيدة في ليما، أجابوه:

حان وقت النوم، لقد تأخر الوقت.

أحرقت فلورا تريستان حياتها وهي تبشر بالثورة، الثورة البروليتارية وثورة النساء اللائي يستعبدهن الأب ورب العمل والزوج. دفع عمال بوردو ثمن كفنها وحملوها في تابوت إلى المقبرة.

1896: بوغوتا

خوسيه أسنسيون سيلفا

كان يحب شقيقته ألفيرا، عطر الخزامى، بخور البلسم، القبلات المختلسة لأكثر الجنيات شحوباً في بوغوتا وكتب من أجلها أفضل أشعاره. كان يزورها في المقبرة كل ليلة ويشعر أن وجوده عند قبرها أفضل من وجوده بين أصحابه الكتاب.

ولد خوسيه أسنسيون سيلفا مرتدياً السواد وكان ثمة زهرة في عروته، وهكذا عاش ثلاثين عاماً، من محنة إلى أخرى، هذا المؤسس الذاوي للحداثة في كولومبيا. أخذ إفلاس والده، تاجر الحرير والعطور، الخبز من فمه وفقدت أعماله الكاملة في تحطم سفينة في البحر.

في وقت متأخر من الليل، كان يناقش للمرة الأخيرة إيقاع قصيدة منظومة على البحر الإسكندري. حمل مصباحاً في يده وودع من الباب ضيوفه، ثم دخن سيجارته التركية الأخيرة وأشفق على نفسه أمام المرآة للمرة الأخيرة. معذباً من دائنيه ومن المحتقرين الذين يدعونه

"سوزان الطاهرة"، فك الشاعر أزرار قميصه وضغط فوهة المسدس على الصليب الذي رسمه طبيب صديق على قلبه.

1869: مناوس

الشجرة التي تبكي حليباً

كان الهنود يسمونها كوتشو. كانوا يشقونها فيتدفق الحليب ويجمع في أوراق لسان الحمل المطوية كالآنية ويجفف في حرارة الشمس أو بالدخان بينما تمنحه اليد البشرية الشكل. منذ أزمانٍ سحيقة صنع الهنود مِن هذا الحليب البري مشاعل تستمر طويلا وآنية لا تنكسر وسقوفاً تهزأ بالمطر وكرات تقفز وتطير.

منذ أكثر من قرن، تلقى ملك البرتغال سيرنكات من دون إبر من البرازيل وألبسة مضادة للرصاص، وقبل ذلك، درس العالم الفرنسي لاكوندامين فضائل الصمغ الفضائحي الذي لم يأبه بقانون الجاذبية.

سافرت آلاف مؤلفة من الأحذية من الغابة الأمازونية إلى ميناء بوسطن إلى أن اكتشف تشارلز جوديير وتوماس هانكوك، منذ نصف قرن، كيف يمنعان انكسار وتمدد الصمغ. بعدئذ، بدأت الولايات المتحدة تنتج خمسة ملايين حذاء في العام، أحذية محصنة ضد البرد والرطوبة والثلج وبزغت معامل كبيرة في إنكلترة وألمانيا وفرنسا.

ولم يقتصر الأمر على إنتاج الأحذية، كثر الصمغ المنتجات وخلق الحاجات. ودارت الحياة الحديثة دائخة حول الشجرة الضخمة التي تبكي حليباً حين تُجرح. منذ ثماني سنوات، ربح ابن دِون دنلوب سباقاً في بلفاست للدراجات ثلاثية العجلات مستخدما الإطارات الهوائية التي اخترعها والده لتحل مكان العجلات الصلبة. وفي العام الماضي، اخترع ميتشيلين إطارات هوائية قابلة للاستبدال لسباق سيارات من باريس إلى بوردو.

الأمازون، الغابة الفانتازية التي بدت مستودعاً للقردة والهنود والمعتوهين، أصبحت منطقة لعب محظورة لشركة المطاط الأميركية ولشركة أمازون للمطاط ولمشاريع أخرى بعيدة ترضع حليبها.

1896: مناوس

العصر الذهبي للمطاط

ارتفعت الستارة ببطه بينما كانت تعزف الألحان الأولى لأوبرا بونتشيلي "الجوكوندا". كانت ليلة احتفال وأبهة عظيمة وبعوض في مدينة مناوس. كانت ليلة احتفال وأبهة ويعوض في مسرح "أمازوناس". وكان نجوم الأوبرا الإيطالية يدشنون المسرح الذي هو صحن رخام جُلب مثلهم من أوروبا إلى قلب الغابة.

كانت مناوس وبيليم دو بارا عاصمتي المطاط في البرازيل. ومثل إكيتوسالتي تقع في الأدغال البيروفية، بلطت المدن الأمازونية الثلاث شوارعها ببلاط أوروبي وأنعشت لياليها بفتيات ذات وضع اجتماعي واحد من باريس وبودابست وبغداد أو من الغابة المحلية. كانت المخاصر الذهبية تدير الفرق الموسيقية وسبائك الذهب تُستخدم كأثقال تُوضع على الأوراق. وكانت بيضة دجاجة تكلف ذراعاً وساقاً. كان البشر المهمون جداً يشربون مشروبات فاخرة مستوردة ويتعافون في ينابيع فيشي المعدنية الحارة ويرسلون أولادهم ليدرسوا في لشبونة أو جنيف في سفن "بوث لاين" التي تجيء وتروح في مياه نهر الأمازون العكرة.

من الذين كانوا يقومون بالعمل في غابات المطاط؟ كان يقوم بهذا العمل في البرازيل ضحايا الجفاف في الشمال الشرقي. كان الفلاحون يأتون من تلك الصحارى إلى هذه المستنقعات حيث من الأفضل للمرء أن يكون سمكة. كان ذلك السجن الأخضر يسجنهم بعقد. وكان الموت يأتي سريعاً لينقذهم من العبودية والعزلة المروعة. أما في البيرو فكانت

الأيدي العاملةٍ هندية وقد أبيدت قبائل كثيرة في عصر المطاط ذاك الذي بدا أبدياً.

1897: كانودس

يوكليدس دا كُنها

كانت الأرض تصدر دخاناً وتلتهب وتتسع في أثناء النهار. حين يخيم الليل، فأس الجليد، ترتجف الأرض وتتقلص وفي الفجر تنشقّ إلى نصفين. كتب يوكليدس دا كنها في دفتره: حطام الزلازل. ونوه: مشهد طبيعي يبدو أنه صُنع ليهرب. رصد تجاعيد الأرض ومنعطفات النهر، قطعة الطين الجافة والملتفة التي يدعوها الهنود "ري دهني"، وبحث من دون جدوى عن ظل بين الأدغال المكتسحة. هنا، كان الهواء يحولٍ كل ما يلمسه إلى حجر ويستلقي جندي مديراً وجهه إلى الأعلى، مادا ذراعيه وكان الجرب قد شوه جبهته. قتلوه منذ ثلاثة أشهر في قتال يدوي وأصبح الآن تمثال نفسه.

سمع صوت الطلقات من بعيدٍ، من قرية كانودس المقدسة. استمر إطلاق النار المتقطع أياماً وشهوراً وتنوع أحياناً ليصبح قصف مدفعية وانفجارات وإطلاق نار من رشاشات. وكان يوكليدس يحب أن يفهم أي نوع من القوة يمكن الفلاحين المتصوّفين من مقاومة هجوم ثلاثين كتيبة من دون خوف. كانت آلاف كثيرة منهم تقدم نفسها للقتل بدافع من الإخلاص للمسيح المخلّص أنطونيو كونسلهيرو، وسأل مؤرخ هذه الحرب المقدسة نفسه كيف يستطيعون خلط تلك السهول العارية بالسماء وذلك الرؤيوي الذي هرب من مشفى المجانين الذي لم يتسع له، بالمسيح؟

متردداً بين القرف والإعجاب وصف يوكليدس دا كُنها ما شاهده، من حيرة إلى أخرى، لقراء صحيفة في ساو باولو. كان يوكليدس، الاشتراكي على الطراز الأوروبي، الهجين الذي يحتقر الهجن،

والبرازيلي الذي يشعر بالعار من البرازيل، بين أكثر المفكرين تألقاً في الجمهورية التي تعرض على رايتها الحديثة الولادة شعار "النظام والتقدم". وبينما كانت عملية الذبح تتواصل، بذل جهداً ليفهم لغز الأرض الشمالية الشرقية التي تقع خلف الساحل، أرض المتعصبين حيث تورث العداوات والولاءات، وحيث تُعالج كآبة القطيع المنبوذ بالصلوات ويُحتفل بموت الأطفال بالغيتارات.

1897: كانودس

كان الموتى يحتوون رصاصاً أكثر من العظام

لكن آخر المدافعين عن كانودس كانوا يغنون وراء صليب ولا يزالون يتوقعون وصول كبار الملائكة.

طلب قائد الصف الأول أن تصور جثة أنطونيو كونسلهيرو المريعة لكي يؤكد موته، لأنه كان يحتاج إلى التأكد من ذلك. من زاوية عينه نظر القائد إلى حفنة الأسمال والعظام الصغيرة.

شيد أكثر الفلاحين بؤساً في جميع العصور متراساً من الأجساد حول ذلك المتوشلح المسحوق، عدو الجمهورية والمدن المذنبة. توجب إرسال خمس حملاتٍ عسكرية: حاصر خمسة آلاف جندي كانودس. وكان عشرون مدفعاً يقصفون في سفوح التلال في حرب لا تصدق بين الغدارة ورشاش نوردنفلت.

حولت الخنادق إلى قبور من التراب لكن جماعة كانودس لم تستسلم، تلك اليوتوبيا التي بلا ملكية أو قانون حيث يتقاسم الفقراء الأرض الشحيحة والخبز الحقير والإيمان برحابة السماء.

قاتلوا من منزل إلى آخر، من إنش إلى آخر.

سقط آخر الأربعة الذين بقوا على قيد الحياة، ثلاثة رجال وطفل.

1897: ريودي جانيرو

ماتشادو دي أسيس

كان الكتاب البرازيليون المنقسمون إلى طوائف تلعن بعضها يحتفلون بالعشاءات الأخيرة والإهداءات في "كولومبو" ومقاهي ومكتبات أخرى. هناك كانوا يودعون، في جو تفوح منه رائحة الطهارة، رفاقهم الذين كانوا يسافرون لوضع أزهار على قبر "موباسان" في باريس، وفي تلك المعابد، على صوت كؤوس باركتها مشروبات مقدسة، ولدت أكاديمية الآداب البرازيلية وكان رئيسها الأول ماتشادو دي أسيس.

إنه روائي أميركا اللاتينية العظيم في هذا القرن. عرت كتبه بمحبة وسخرية المجتمع الراقي للدبابير، الذين غزاهم هو، ابن الأب الخلاسي، وعرفهم أكثر من أي شخص آخر. مزق ماتشادو دي أسيس الأغطية التنكرية، الإطارات المزيفة للنوافذ المزيفة المطلة على مشاهد أوروبية وكان يغمز القارئ وهو يكشف عن الجدار الطيني.

1898: سواحل كوبا

الثمرة جاهزة للسقوط

نزلت جنيهات الجنرال ويليم شافتر الثلاثمائة وخمسة وعشرون على ساحل كوبا الشرقي. جاءت من مناخات شمالية باردة حيث كان الجنرال مشغولاً في قتل الهنود وهنا ذابت في بزته النظامية الصوفية التي لا تقاوم.

رفع شافتر جسمه بضع خطوات على ظهر الحصان ومن هناك تفحص الأفق بمنظار.

لقد جاء ليقود. وكما قال أحد ضباطه، الجنرال يونغ: " كان العصاة المنحطون والكثيرون، مثل متوحشي أفريقيا لا يقدرون أن يحكموا أنفسهم". حين بدأ الجيش الأسباني ينهار أمام هجوم الوطنيين العنيد، قررت الولايات المتحدة أن تتولى مسؤولية حرية كوبا. إذا جاؤوا، لن يستطيع أحد إخراجهم كما حذر مارتي وماسيو، ثم جاؤوا.

رفضت إسبانيا أن تبيع تلك الجزيرة بثمن معقول، وعثر التدخل الأميركي الشمالي على حجته في الانفجار المؤاتي للسفينة الحربية "مين"، التي غرقت في ميناء هافانا بمدافعها الكثيرة وطاقمها.

ادعى الجيش الغازي حماية المواطنين الأميركيين الشماليين وإنقاذ مصالحهم التي تهددها حرب مدمرة وكارثة اقتصادية. لكن الضباط كانوا يشرحون في السر أنهم يجب أن يمنعوا ظهور جمهورية سوداء مقابل سواحل فلوريدا.

1898: واشنطن

عشرة آلاف ضحية

احتجت إدا ويلز (Ida Wells) باسم زنوج الولايات المتحدة الأميركية للرئيسِ ماكينلي، قائلة إن عشرة آلاف عملية قتل حصلت في العشرين عاما الأخيرة. سألت إدا ويلز: إذا كانت الحكومة لا تحمي المواطنين الأميركيين الشماليين داخل حدودها، فبأي حق تدعي تلك الحماية لكي تغزو بلدانا أخرى؟ أليس الزنوج مواطنين؟ أم أن الدستور يضمن لهم حق أن يُحرقوا حتى الموت فحسب؟

كان الغوغاء المتعصبون الذين تحرضهم الصحف والمنابر يجرون السود من السجون، يقيدونهم إلى الأشجار، ويحرقونهم أحياء، ثم يحتفل الجلادون في البارات ويذيعون أعمالهم العظيمة في الشوارع.

كان صيادو الزنوج يستخدمون اغتصاب المرأة البيضاء كحجة في بلاد يعتبر فيها اغتصاب الرجل الأبيض للمرأة السوداء طبيعياً، لكن في معظم الحالات، لم يكن السود الذين يحرقون يمتلكون سمعة سيئة أو مشتبه بهم بالسرقة أو الوقاحة.

وعد الرئيس ماكينلي أن ينظر في الأمر.

1898: هضبة سان خوان

تيدي روزفلت

ملوحاً بسيفه، انطلق تيدي روزفلت على رأس فرسانه الأشداء وحين نزل من هضبة سان خوان كان يحمل راية إسبانية مفتتة. سيحظى بالعظمة كلها من أجل تلك المعركة التي فتحت الطريق إلى سانتياغو دي كوبا. أما عن الكوبيين الذين قاتلوا أيضاً فلم يذكر الصحفيون أي شيء.

كان تيدي يؤمن بعظمة القدر الإمبراطوري وبقوة قبضته. تعلم الملاكمة في نيويورك لينقذ نفسه من الضرب والإذلال الذي عاني منه كطفل مريض، مصاب بالربو وقصر البصر. حين بلغ سن الرشد، ارتدى القفازات مع الأبطال، اصطاد الأسود والثيران، ألف الكتب وزأر خطباً. في الصفحة الأولى المطبوعة، وعلى المنصات، كان يمدح فضائل السلالات القوية التي وُلدت للحكم، السلالات المحاربة كسلالته وأعلن أنه في كل تسع من عشر حالات ليس هناك هندي أفضل من الهندي الميت. وقال إن العاشرة يجب أن تفحص بإمعان. كان هذا المتطوع في جميع الحروب يعبد المواصفات العليا للجندي،

الذي يشعر في وطيس المعركة، بأنه ذئب. وكان يحتقر الجنرالات الناعمين الذين كان يؤلمهم فقدان ألفين من رجالهم.

ولكي ينهي الحرب الكوبية بسرعة، اقترح تيدي أن يدمر أسطول أميركي شمالي بالمدفعية قادش وبرشلونة، لكن إسبانيا المرهقة من الحروب الكثيرة ضد الكوبيين، استسلمت في أقل من أربع ساعات.
عدا تيدي روزفلت المنتصر من هضبة سان خوان بالسرعة القصوى ليصبح حاكم ولاية نيويورك ثم صعد إلى رئاسة الولايات المتحدة.

ذلك المتعصب المتحمس لإله يفضل البارود على البخور، أخذ نفساً عميقاً وكتب:

ليس هناك نصر سلمي يبلغ عظمة النصر الحربي الكامل.

في غضون بضع سنوات، تلقى تيدي روزفلت جائزة نوبل للسلام.

1898: سواحل بويرتو ريكو

الثمرة تسقط

كان رامون إيميتيريو بيتانسيس ذو اللحية الشائبة الطويلة والعينين الكئيبتين، يحتضر في منفاه الباريسي. قال: " لا أريد مستعمرة مع أسبانيا ولا مع الولايات المتحدة".

وبينما كان بطرق استقلال بويرتو ريكو على شفا الموت، كان جنود الجنرال مايلز يغنون وهم يهبطون على ساحل جوانيكا. كان الجنود يتقدمون أمام النظرة الساكنة لفلاحي قصب السكر والبن، ببنادق معلقة على أكتافهم وفراشي أسنان موضوعة في قبعاتهم.

كان إيو جينيو "ماريا دي هوستوس"، الذي أراد أيضاً وطناً، يتأمل تلال بويرتو ريكو من علي ظهر سفينة ويشعر بالحزن والعار وهو يراها تنتقل من سيد إلى آخر.

1898: واشنطن

يقول الرئيس ماكينلي إن الولايات المتحدة يجب أن تحتفظ بالفلبين بأمر مباشر من الله

كنت أسير على أرض البيت الأبيض ليلة بعد أخرى حتى منتصف الليل، ولا أشعر بالعار حين أخبركم أيها السادة أنني ركعت وصليت أكثر من ليلة للإله الجبار كي يضيء لي ويرشدني. ولا أعرفٍ كيف جاءني ذلك بهذه الطريقة في وقت متأخر من الليل: أولاً، لا نستطيع أن نعيد الفلبين لإسبانيا لأن هذا سيكون عملاً يتصف بالجبن والعار. ثانياً، لا نستطيع أن نسلمها لفرنسا أو ألمانيا ـ اللتين تتنافسان تجارياً في الشرق ـ لأن هذا سيكون مشروعاً سيئاً لا يستحق الثناء. ثالثاً، لا نستطيع أن نتركها لنفسها لأنها غير مؤهلة للحكم الذاتي وحالاً ستهيمن الفوضى والحكم السيء هناك ويصبح الأمر أسوأ مما كان في العهد الأسباني. ورابعاً، لم يبق أمامنا ما نفعله سوى أن نأخذها كلها وأن نعلم الفلبينيين ونطورهم ونحضرهم ونجعلهم مسيحيين، ونفعل بنعمة من الله ما نقدر عليه بهم كأشقائنا البشر الذين مات من أجلهم المسيح. ثم بعد ذلك ذهبتُ للنوم ونمت بعمق.

1899: نيويورك

مارك توين يقترح تغيير الراية

رفعتُ مصباحي قرب الباب الذهبي. كان تمثال الحرية يستقبل عددا لا يحصى من الحجاج الأوروبيين الباحثين عن أرض الميعاد

بينما أُعلن أن مركز العالم الذي استغرق آلاف السنين للانتقال من نهر الفرات إلى نهر التيمز، أصبح الآن نهر الهدسون.

احتفلت الولايات المتحدة بحماسة إمبراطورية كاملة، بغزو جزر هاواي، ساموا، الفلبين، كوبا، بويرتو ريكو وبعض الجزر الصغيرة التي سميت بفصاحة "اللصوص". وأصبح المحيط الهادي والبحر الكاريبي بحيرتين أميركيتين شماليتين وولدت شركة الفاكهة المتحدة. لكن الروائي مارك توين، مفسد المتع، اقترح تغيير الراية القومية: يجب أن تكون الألوان البيضاء سوداء والنجوم جماجم وعظام متصالبة.

طلب قائد الاتحاد التجاري صامويل ومبرز الاعتراف باستقلال كوبا، وشجب أولئك الذين يرمون الحرية إلى الكلاب في لحظة الخيار بين الحرية والفائدة. أما الصحف الكبيرة فقد رأت، من ناحية أخرى، إن الكوبيين الذين يريدون الحرية هم جاحدون. كانت كوبا بلادا محتلة، وكانت راية الولايات المتحدة التي من دون قضبان سوداء أو جماجم ترفرف مكان الراية الإسبانية وتضاعفت القوى الغازية في غضون عام. كانت المدارس تعلم اللغة الإنكليزية وكتب التاريخ الجديدة تتحدث عن واشنطن وجيفرسون لا تذكر مارتي أو ماسيو. لم تعد هناك عبودية لكن مقاهي هافانا وضعت يافطات تحذر: "للبيض فقط".

فتحت السوق من دون شروط لرأس المال الجائع للسكر والتبغ.

1899: روما

كالاميتي جين

قالوا إنها كانت تنام معلقة مسدسيها على أحد أعمدة السرير وإنها لا تزال تغلب الرجال في البوكر والشرب والتجديف. قتلت كثيراً من الرجال، كما قالوا، بكلاب يعلق بالحنك، منذ أن كانت

تقاتل مع الجنرال كستر في وايومنغ وقتلت الهنود لتحمي المعدنين في التلال السوداء لهنود السيو. قالوا إنهم قالوا إنها كانت تمتطي جاموساً في شارع مدينة رابيد، وإنها سطت على قطارات، وأغوت في حصنٍ لارامي الشريف الوسيم وايلد بل هيكوك، الذي منحها ابنة وحصاناً اسمه الشيطان يركع ليساعدها على امتطائه. كانت ترتدي دائماً بنطالاً وقالوا إنها كانت غالباً تنتزعه ولم يكن هناك امرأة أكرم منها في الصالونات ولا أوقح منها في الحب والكذب.

قالوا.. ربما لم توجد أبداً، ربما، ليست الليلة، في ساحة "الوايلد ويست شو" وإن العجوز بوفالو بل يكذب علينا ثانية. ولو لم يكن الأمر من أجل تصفيق الجمهور، لن تكون حتى كالاميتي جين الحقيقية متأكدة أنها هذه المرأة التي في سن الرابعة والأربعين، السمينة أكثر من المعتاد والبسيطة، التي تجعل سيفها يطير وتحوله إلى مصفاة.

1899: روما

الإمبراطورية الناشئة تثني عضلاتها

تلقى بوفالو بل في احتفال مهيب ساعة ذهبية مرصعة بالألماس من يدي ملك إيطاليا. كان عرض الغرب البري وايلد ويست شو يتجول في أوروبا، لقد انتهى غزو الغرب وبدأ غزو العالم. كان بوفالو بل يمتلك رهن أوامره جيشاً مؤلفاً من خمسمائة رجل، لم يكن يعمل في سيركه رعاة البقر فحسب، بل أيضا الرماحون الأصليون لأمير ويلز والفرسان الخفاف للحرس الجمهوري الفرنسي، الفرسان الدارعون لإمبراطور ألمانيا وقوزاق روس وفرسان عرب ورعاة بقر مكسيكيون ورعاة بقر من الريفر بلاتا. كان جنود فرقة الفرسان الخامسة يؤدون أدوارهم كغزاة. وكان الهنود المغزوون، المنتزعون من أمكنة حجزهم، يظهرون

كأشخاص مستأجرين للتمثيل يكررون هزائمهم على رمال الساحة. وكان قطيع من الجواميس، قطع المتحف النادرة، يضفي واقعية على البزات الزرق النظامية والخوذ المريشة. كان فرسان تيدي روزفلت الأشداء يمثلون للجمهور غزوهم الأخير لكوبا. وكانت الفرق الكوبية وفرق هاواي والفرق الفلبينية تقدم تبجيلاً صاغراً للراية المنتصرة.

شرح برنامج المشهد الاستيلاءِ على الغرب بلغة دارون: إنه القانون الحتمي لبقاء الأنسب. مجد بوفالو بل بعبارات ملحمية الفضائل المدنية والعسكرية لأمته التي هضمت نصف المكسيك وعدداً من الجزر والتي تدخل الآن إلى القرن العشرين مسيطرة على العالم بخيلاء قوة عظمى.

1899: سينت لويس

بعيداً

انبعثت النار من الأفواه والأرانب من القبعات، وخرجت من البوق السحري أحصنة زجاجية صغيرة. مرَّت سيارة فوق امرأة متمددة نهضت بعد ذلك بقفزة واحدة، رقصت أخرى وثمة سيف مغروز في بطنها. أطاع دب ضخم أوامر صدرت باللغة الإنكليزية.

دعي جيرونيمو إلى دخول منزل بأربع نوافذ. فجأة نهض المنزل وصعد في الجو. مندهشاً، نظر جيرونيمو إلى الأسفل: كان البشر في الأسفل يبدون بحجم النمل. ضحك القيّمون على الأمر وقدّموا له منظاراً كالذي أخذه من الضباط الذين سقطوا في المعركة. قرّب المنظار ما كان بعيداً.

حدّق جيرونيمو إلى الشمس فآذى الضوءِ العنيف عينيه، ضحك القيّمون وبما أنهم ضحكوا، ضحك هو أيضاً.

كان جيرونيمو، أسير حرب الولايات المتحدة، أحد الأشياء الجذّابة في معرض سينت لويس. كانت الحشود تأتي لتشاهد الوحش المروّض. كان زعيم "الأباتشي" في أريزونا يبيع الأقواس والسهام ويأخذ، مقابل بضعة سنتات، وضعية أمام الكاميرات، أو يطبع قدر استطاعته، أحرف اسمه.

1899: ريودي جانيرو

العلاج قتلاً

لعبت أيد سحرية بأسعار البن ولم تقدر البرازيل أن تدفع لمصرف لندن والريفر بلاتا ولدائنين آخرين مهمين. أعلن وزير المالية جواكيم مرتينهو: إنها ساعة التضحية. كان الوزير يؤمن بالقوانين الطبيعية لعلم الاقتصاد، التي، من خلال الانتخاب الطبيعي، تشجب الضعفاء، أي الفقراء، أي الجميع. أيجب أن تسترجع الدولة مشروع البن من أيدي المضاربين؟ قال مرتينهو المستاء إن هذا سينتهك القوانين الطبيعية ويعد خطوة خطيرة باتجاه الاشتراكية، الطاعون المخيف الذي جلبه العمال الأوربيون إلى البرازيل. قال: الاشتراكية تنكر بالحرية وتحول الإنسان إلى نملة .

كان مرتينهو يعتقد أن الصناعة الوطنية تأخذ العمل من المستعمرات الزراعية وترفع أجور الأيدي، وسيشهد مرتينهو، الملاك الحارس لنظام الملكية، أن مالكي الرجال والأراضي، الذين بقوا سالمين، بعد إلغاء العبودية وإعلان الجمهورية، لن يعانوا من الأزمة. ولكي يدفع الدين الإنكليزي ويوازن دفاتر الحسابات، أحرق الوزير في الفرن أيةِ عملة ورقية صادفها وقمع أية خدمة مدنية في المتناول وأنزل وابلا من الضرائب على الفقراء.

كان مرتينِهو، الاقتصادي بحكم الوظيفة والطبيب بحكم المهنة، يجري أيضاً تجارب في حقل الفسيولوجيا. كان ينتزع في مخبره

الكتلة الدماغية للجرذان والأرانب ويشرح الضفادع ليدرس تشنجات الجسد الذي يتابع الحركة وكأنه يمتلك رأساً.

1900: هوانوني

باتينو

كان الفارس يجيء من البؤس وينطلق على فرسه في البؤس عبر رياح جليدية، وبعدو بطيء، على عراء الكوكب. وكان يتبعه بغل محمل بالأحجار.

أمضى الفارس وقتاً طويلاً منقباً في الصخور وفاتحاً الكهوف بالديناميت. لم ير أبداً البحر ولم يعرف مدينة لاباز، لكنه اشتبه بأن العالم يعيش حقبة صناعية وأن الصناعة تأكل المعادن المحتقرة. لم يذهب إلى الجبال بحثاً عن الفضة كما فعل كثيرون، وكما لم يفعل أحد، بحث عن القصدير مخترقاً قلب الجبل، إلى روحه، وعثر عليه.

وصل سيمون باتينو، الفارس الذي أنتنه البرد، المعدّن الذي أهلكته العزلة والديون، إلى مدينة هوانيوني. كان يضع في خرج بغله قطعاً من أغنى عرق قصدير في العالم جعلته ملك بوليفيا.

1900: مكسيكو سيتي

بوسادا

كان يزود الأشعار والأنباء بالرسوم التوضيحية وكانت أوراقه العريضة تباع في الأسواق وعلى أبواب الكنائس وأينما غنى شاعر

نبوءات نوستراداموس، التفاصيل المريعة لخروج القطار عن الخط في نيماماتلا، والظهور الأخير للعذراء غوادالوبه، أو مأساة المرأة التي أنجبت أربع عظاءات في حي في هذه المدينة.

وبفضل اليد السحرية لخوسيه غوادالوبه بوسادا لم تفقد أناشيد الكوريدو أبدا تلقائيتها ومحليتها وشعبيتها. كانت سكاكين المتشدقين وألسنة الثرثارين دائما حادة في رسوماته وكان الشيطان يواصل الرقص، والموت يضحك، وشراب البلكة يبلل الشوارب وإليوتيريو البائس يسحق بحجر ضخم قحف رأس المؤلف القديم لأيامه.

في هذا العام، احتفلت لوحة لبوسادا بظهور السيارة الكهربائية الأولى في شوارع مكسيكو، وأظهرت أخرى السيارة تدهس موكب جنازة أمام المقبرة مع تبعثر ضخم للهياكل العظمية. كانوا يبيعون مقابل سنتافو واحد النسخة المطبوعة على ورق أسمر مع أشعار لأي شخص يعرف كيف يقرأ ويبكي.

كان مشغله فوضى من اللفافات والآنية والصحون القصديرية والأسافين الخشبية وكانت كلها مكومة حول المطبعة وتحت مطر من الأوراق المطبوعة المعلقة كي تجف. كان بوسادا يعمل من الصباح إلى المساء وهو ينقش الأعاجيب التي كان يسميها رسومات صغيرة، وكان بين فينة وأخرى يذهب إلى الباب ليدخن سيجارا مريحا من دون أن ينسى أن يغطي رأسه بقبعة وبطنه الضخم بسترة صوفية داكنة.

كل يوم، كان يعبر أمام باب بوسادا بروفسورات أكاديمية الفنون الجميلة التي تقع في الجوار والذين لم ينظروا إليه أو يسلموا عليه أبدا.

1900: مكسيكو سيتي

بورفريو داياث

ترعرع في ظل خواريز الذي سماه الرجل الذي يبكي وهو يقتل.

"إنه يبكي دائماً وسيقتلني إذا لم أكن حريصاً".

حكم بورفريو داياث المكسيك ربع قرن وسجل كتاب السيرة الرسميون للأجيال القادمة تثاؤباته وأقواله المأثورة، لكنهم لم يدونوا حين قال:

"إن أفضل هندي هو المدفون على عمق ستة أقدام".

"اقتلوهم في مكانهم".

"لا تحرضوا القطيع علي".

كان القطيع هو المشرعون الذين يصوتون بـ "نعم" حين تنحني رؤوسهم من النعاس والذين يدعون الدون بورفيريو: الفريد، الذي لا يُقهر، الذي لا يُستبدل. كان الشعب يسميه "الدون بيرفيدي" ويسخر من حاشيته:

"كم الساعة".

"ما تقوله يا سيادة الرئيس".

كان يعرض إصبعه الصغيرة ويقول: تلاهكا لا تؤذيني.

ويشير إلى قلبه ويقول: أواهاكا توجعني، لم يضع يده على قلبه ويقول: ميتشوكان توجعني، وفي ومضة يأتي ثلاثة حكام ويرتجفون أمامه.

طبق قانون إطلاق النار في أثناء الهرب على المتمردين والفضوليين، وفي أوج حكمه، تقدمت المكسيك. أصبحت الرسائل التي كانت تنقلها البغال والأحصنة أو الحمام، تطير فوق سبعين ألف كيلومتر من أسلاك البرق. وحيث اعتادت عربات المسرح أن تذهب، امتد خمسة عشر ألف كيلومتر من السكك الحديدية. كانت الأمة تدفع ديونها في الموعد المحدد وتزود السوق العالمية بالمعادن والغذاء. بزغ حصن في كل عزبة وكان الحراس يراقبون من الشرف المفرجة الهنود الذين لا يستطيعون حتى أن يخبروا أسيادهم. لم يكن ثمة مدارس لعلم الاقتصاد لكن الدون بورفريو كان يحكم محاطاً بالعلماء المتخصصين في الاستيلاء على الأراضي التي ستمر فيها سكة الحديد. كان رأس المال

يجيء من الولايات المتحدة وكانت الأزياء والأفكار تُشترى مستعملة من فرنسا. كانت مكسيكو سيتي تحب أن تدعو نفسها باريس أميركا رغم أن سراويل الفلاحين البيضاء كانت تشاهد أكثر من البنطلونات في الشوارع، وكانت الأقلية التي ترتدي الفراكات تسكن قصورا على طراز قصور نابليون الثالث. عمد الشعراء مساءاتها باسم "الساعة الخضراء"، ليس بسبب الضوء الذي يتخلل الأشجار بل بسبب ذكرى أفسنتين[6] دي موسيه.

1900: مكسيكو سيتي

الأخوة فلوريس ماجون

أبحر البشر في بحر من شراب البلكة بينما كانت الأجراس ترن والسهام النارية تنطلق والسكاكين تلمع تحت الأضواء البنغالية. غزا الحشد الألاميدا وشوارع أخرى ممنوعة والساحة المخصصة للسيدات اللواتي يرتدين المشدات والسادة الذين يرتدون السترات، حاملا العذراء على منصته.

كان ذلك يوم سيدة الملائكة الذي يستغرق في مكسيكو أسبوعاً من حفلات الرقص، وعلى هامش متعة الشعب العنيفة ولدت صحيفة جديدة وكأنها تستحق ذلك. دعيت "البعث الجديد" وورثت حماس وديون صحيفة "الديموكرات" التي أغلقتها الدكتاتورية. كان يكتبها وينشرها ويبيعها جيسوس وريكاردو وإيزيك فلوريس ماجون.

ترعرع الأخوة فلوريس ماجون مع العقوبة. منذ أن توفي والدهم أخذوا أدوارهم بين السجن ودراسة القانون وأعمال صغيرة عابرة وصحافة مقاتلة ومظاهرات أحجار ضد الرصاص.

---

[6] الأفسنتين: عشبة معمرة تستعمل في الطب للهضم والإدوار وتستعمل في صنع شراب كحولي يسمى باسمها.

قال لهم والدهم الهندي تيودور فلوريس ذو الوجه النحيل الذي يعيش الآن بين النجوم: كل شيء ينتمي إلى الجميع. قال لهم ألف مرة: كرروا ذلك!

1900: مريدا، يوكاتان

الهينيكوين

كان واحد من كل ثلاثة من هنود المايا في يوكاتان رهينةً لـ "الهينكوين"، وسيصبح أولادهم الذين يرثون ديونهم عبيداً أيضاً. كانت الأراضي تباع بهنودها، لكن مستعمرات الهينيكوين الزراعية الكبيرة كانت تستخدم أساليب علمية وآلات حديثة وتتلقى أوامرها بالتلغراف وتمولها مصارف نيويورك. كانت آلات كشط بخارية تفصل الألياف وكانت قطارات "إنترناشيونال هارفستر" تنقلها إلى ميناء يدعى التقدم.

في غضون ذلك، كان الحرس يسجنون الهنود في الثكنات حين يخيم الليل وفي الفجر يركبون خيولاً ليعيدوهم إلى خطوط النباتات الشوكية.

كان غزل نبات السيسال والهينيكوين يفيد في تقييد أي شيء على الأرض وكانت جميع السفن التي تمخر عباب المحيط تستخدم حبالاً من الهينيكوين. أدى الهينيكوين إلى ازدهار يوكاتان، إحدى أغنى مناطق المكسيك. وفي مريدا، العاصمة، كانت القضبان الذهبية المشبكة تمنع الهنود والبغال من أن يدوسوا في حدائق نسخت بشكلٍ سيء عن حدائق فرساي. كانت عربة الأسقف مماثلة تماماً لتلك التي يستخدمها البابا في روما وجاء من باريس مهندسون قلدوا القلاع الفرنسية القروسطية، رغم أن مغامري اليوم لا يغامرون من أجل أميرات سجينات، بل من أجل هنود أحرار.

كان الجنرال إغناسيو برافو ذو العينين الحادتين كمدية والشارب الشائب والفم محكم الإغلاق قد وصل إلى مريدا ليبيد هنود المايا الذين

كانوا لا يزالـون يقرعـون طبـول الحـرب. حيتـه مـدافع سـان بينيتـو مخلـص الهينيكـوين. وفي سـاحة دي آرمـاس تحـت أشـجار الغـار المورقة، قدم سادة يوكاتان للجنرال برافو السيف الفضي الـذي ينتظـر غازي شان سانتاكروث مدينة المتمردين المقدسة في الغابة.

ثم أطبق الجفن البطيء لليل.

من الأنشودة المكسيكية

للكتيبة الثماني والعشرين

أنا في طريقي، في طريقي

أنا في طريق يملؤني الفرح

لأن هنود المايا

يحتضرون، كما يقال، من الخوف.

أنا في طريقي، في طريقي

إلى الجانب الآخر من البحر

لأنه لم يعد أمام الهنود

طريق للهرب.

أنا في طريقي، في طريقي

فليمنحك الله الدفء يا جوهرتي

لأن هنود المايا

سيقدمون وقوداً محبباً.

أنا في طريقي، في طريقي

لأمكث هناك في الشتاء

لأن هنود المايا

سيذهبون مباشرة إلى الجحيم.

1900: تابي

الثعبان الحديدي

كانت المدفعية ترعد في المقدمة مدمرة المتاريس وساحقة الهنود. وخلف المدافع، كان الجنود، الذين معظمهم من الهنود يحرقون حقول ذرة الجماعات ويطلقون الماوتزر ضد أسلحة قديمة تذخر من المواسير. وخلف الجنود، كان الهنود الأقنان، ينصبون سكة الحديد ويرفعون أعمدة التلغراف والمشانق.

كان ذيل سكة الحديد، الأفعى التي بلا جلد، في مريدا وكان جسدها الطويل ينمو نحو شان سانتا كروز. وصل الرأس إلى سانتا ماريا وقفز إلى هوبومبيتش ومن هناك إلى تابي لسان حديدٍ مضاعفاً وسريعاً وشرهاً، كان يحطم الغابة ويقطع الأرض مطارداً ومهاجماً وعاضاً وكان يبتلع الهنود ويتبرز العبيد في مسيره المتوهج.

كان ملاذ شان سانتا كروز مداناً. لقد جاء إلى الوجود منذ نصف قرن وولد من صليب الماهوغاني الصغير ذاك الذي ظهر في الدغل وقال: "لقد أرسلني والدي لأتحدث معكم يا من أنتم التراب".

النبي

حدث هكذا هنا، منذ أكثر من أربعة قرون. متمدداً على ظهره، على حصير، سمع الكاهن ـ اليغور ليوكاتان رسالة الآلهة. تحدثوا

معه من خلال السقف بلغة لم يعد يفهمها أحد وهم يجلسون القرفصاء فوق منزله.

تذكَّر تشيلام بالام، ذلك الذي كان فم الآلهة، ما لم يحدث بعد وأعلن ما سيكون:

" ستنهض العصا والحجر من أجل الصراع... وتعض الكلاب أسيادها... أما الذين استولوا على العروش فيجب أن يتقيؤوا ما ابتلعوه. كان حلو المذاق وطيبا جدا ما ابتلعوه لكنهم سيتقيؤونه. سيغادر المغتصبون إلى حدود المياه... عندئذ لن يكون هناك مفترسون للإنسان... حين ينتهي الجشع، سيتحرر وجه الأرض وستتحرر يداها وستتحرر قدماها".



حين ترسم العالم مقلوباً
تراه في جميع أخطائه
يطارد اللص القاضي مرتدياً عباءته
يجلس نهرٌ على ضفة إنسان
يشحذ حصانه في الظل
ويسقي حدّه المثلّم

❖ ❖ ❖

"ستنهض العصا والحجر من أجل الصراع...وتعض الكلاب أسيادها...أما الذين استولوا على العروش فيجب أن يتقيؤوا ما ابتلعوه.كان حلو المذاق وطيباً جداً ما ابتلعوه لكنهم سيتقيؤونه. سيغادر المغتصبون إلى حدود المياه...عندئذ لن يكون هناك مفترسون للإنسان...حين ينتهي الجشع، سيتحرر وجه الأرض وستتحرر يداها وستتحرر قدماها".

❖ ❖ ❖

من روايات إدواردو غاليانو أيضاً في منشورات دار الحوار:

قرن الريح

سفر التكوين

الأغنية التي لنا

أشباح المدينة

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ اللاذقية ـ ص.ب 1018 هاتف 422339
دار الحوار
9789933523312